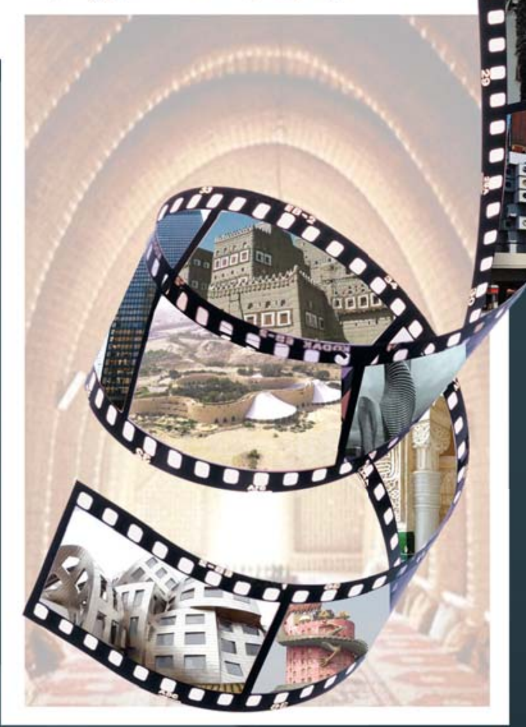
الإصدار: 54

روافد

مسار العمارة المعاصرة وآفـــاق التجديد

(قراءات حضارية)



المهندس فالح بن حسن المطيري





مسار العمارة المعاصرة وآفاق التجديد

«رؤية حضارية»

م. فالح بن حسن المطيري

الإصدار: 54 (يونيو 2012م / رجب 1433هـ)

الإخراج الفني : محمود محمد أبو الفضل

م. فالح بن حسن المطيري

من مواليد المملكة العربية السعودية، حاصل على ماجستير العلوم في العمارة من جامعة الملك سعود بالرياض، وبكالوريوس العمارة والتخطيط من جامعة الملك فيصل بالدمام .

يعمل مهندسا معماريا، وباحثا في توثيق العمارة التقليدية بالمملكة.

من إنتاجه العلمي «العمارة التراثية في المدينة المنورة» المقدم للمؤتمر الدولي للتراث العمراني الذي أقيم في مدينة دبي بالامارات العربية المتحدة سنة ٢٠٠٧ م .



نهـر متعـدد... متجـدد

مشروع فكري وثقافي وأدبي يهدف إلى الإسهام النوعي في إثراء المحيط الفكري والأدبي والثقافي بإصدارات دورية وبرامج تدريبية وفق رؤية وسطية تدرك الواقع وتستشرف المستقبل.



وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية
قطاع الشؤون الثقافية
إدارة الثقافة الإسلامية

ص.ب: 13 الصفاة – رمز بريدي: 13001 دولة الكويت

الهاتف: 22487310 (965+) – فاكس: 22445465 (965+)

نقال: 99255322 (965+)

البريد الإلكتروني: rawafed@islam.gov.kw

موقع «روافد»: www.islam.gov.kw/rawafed

الطبعة الأولى - دولة الكويت

يونيو 2012 م / رجب 1433هـ

رقم الإيداع بمركز المعلومات: **2012 / 26**

وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية

الموقع الإلكتروني: **www.islam.gov.kw**

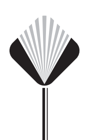
تم الحفظ والتسجيل بمكتبة الكويت الوطنية

رقم الإيداع: **2012 / 538**

ردمك: **978-99966-50-67-3**

فهرس المحتويات


بسم الله الرحمن الرحيم



تصدير

الحمد لله رب العالمين ، والصلاة والسلام على محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

كثيرة هي الكتابات التي اشتغلت بإبراز خصائص العمارة الإسلامية، والإشادة بمواءمتها للمقتضيات النفسية والبيئية ، وللخصوصيات الفردية والأسرية، لكن الكتابات التي تسعى إلى إثارة الموضوع من جانب مآلات العمارة المعاصرة، والأعطاب التي نتجت عن الخضوع للتقليعات الحداثية والتكنولوجية بعيدا عن مراعاة المحيط الثقافي والبيئي للناس...

مثل هذه الكتابات تبقى نادرة، ومن هذه الزاوية، يتمتع كتاب «مسار العمارة المعاصرة وآفاق التجديد» بقيمته العلمية ، لأنه يثير قضايا من شأنها أن تتحول إلى خطط وبرامج ومشاريع لا توقف حركة العمارة المعاصرة، وإنما تجعلها تسير على هدى وتوافق مع قيم التعاليم الإسلامية التي تحقق مقاصد الخلق في حفظ النفس والعقل والدين والمال والعرض، وتكون امتدادا للسمات والخصائص التي ميزت الحضارة الإسلامية عبر تحققها التاريخي الذي انطلق من المدينة المنورة ، وامتد إلى القاهرة وبغداد ودمشق وأصفهان ومراكش والقيروان والأندلس وغيرها من حواضر العالم.

ويسر إدارة الثقافة الإسلامية بوزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية بدولة الكويت أن تقدم هذا الكتاب إلى جمهور القراء والمهتمين، إسهاما منها في إحداث حركة تنويرية تجعل ميزان جودة العمارة وقيمتها مرتبطة بتحقيق أكبر قدر من التوازن بين الإنسان، بمختلف أبعاده العقدية والنفسيبة والاجتماعية والبيئية، والعمران.. سواء في المساكن أو المؤسسات أو الفضاءات العامة .

سائلين المولى عز وجل أن ينفع به، وأن يجزل الثواب لمؤلفه.

إنه سميع مجيب...



مقدمة

لقد مرت العمارة في القرن الماضي بالكثير من المتغيرات الجذرية التي استطاعت رسم الخطوط الأساسية لمفهوم الحداثة وما بعد الحداثة، حيث أسست تلك التيارات ووطئت لنشوء مفاهيم جديدة وظهور مدارس معمارية معاصرة نشأت وانتشرت في مختلف بقاع العالم. إلى أن وصلت إلى بقاع العالم العربي بسبب الاحتكاك مع الغرب وما خلفه ذلك الإحتكاك من صدمة حضارية للمنتوج المعماري المحلي، وما لاقته تلك العمارة الجديدة من قبول أو رفض في البيئة المحلية.

واستمرت إفرازات التيارات الغربية تنسل إلى تصاميمنا بكل هدوء كما ينسل القط الأليف إلى أحضان صاحبه، دون أدنى محاولة منا لتقويم تلك النظريات والأفكار، بل إن بعض المعماريين العرب أصبحوا يقدسون بعض الاتجاهات المعمارية الغربية دون فهم معمق لها ولآثارها على البيئة المحلية. تماما كما حصل في عمارة الديكونستركشن (التفكيك).

لقد استخدمت العمارة في الوقت الحالي لوظائف أخرى بالإضافة إلى وظيفتها الأساسية وهو الإسكان، وهذه الوظائف الأخرى هي في الغالب المؤثر الأكبر على تلك الإتجاهات. فتجد أن العمارة خضعت، في مسيرتها الطويلة، لتأثيرات كل من المجتمع لإقتصاد أثر على مسيرة العمارة وكذلك المجتمع والسياسة والدين والعادات والتقاليد والهوية الشخصية.

إن دخول العمارة المحلية في هذه المعمعة وإقحامها في تلك المجالات المشار إليها في حقل العمارة أدى إلى نشوء أنماط جديدة من العمارة لم يكن معروفا في السابق. الأمر الذي يدعونا إلى دراسة تلك المؤثرات وإلقاء الضوء على بعض منها ومقارنتها مع ما لدينا من مخزون وإرث معماري خلفته عمارة المسلمين.

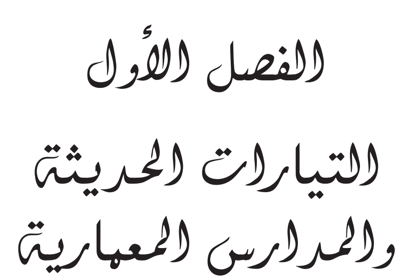
إن التعاطي مع فكر الآخر هو بمثابة استشراف لمستقبل العمارة ومعرفة فيم يفكر فيه هذا الآخر حتى نضع لنا خطًا فاصلاً ومنهجاً واضحاً

بين إشباع رغبات الإنسان الإيوائية وبين بعض الأفكار والاتجاهات التي لا تلبي الحاجات الإنسانية مثل الاهتمام بالشكل على حساب الوظيفة والإهتمام بالبناء المستورد دون مراعاة الجوانب البيئية والاهتمام بتوفير مبانٍ لا تراعي الجوانب الاجتماعية لمجتمعات معينة وتطبيق مبادي «جاك دريدا» على العمارة وهو منهج لغوي غير قابل للتطبيق على العمارة واستخدام هذه الأخيرة ككبش فداء لتمثل مفاهيم اقتصادية أو عسكرية أو غيرها كثير سيتضح بين طيات هذا الكتاب مما ينعكس سلباً على العمارة المعاصرة. وبعيداً عن تطبيق الشعارات الغامضة التي انتشرت في العالم الغربي دون إدراك وتأمل فيها بشفافية ووضوح.

ولا ننسى هنا أن الغربيين أنفسهم قد أقحموا منهج الفلسفة الإلحادية في كثير من علومهم حتى انتشرت في العمارة من خلال تيار العمارة التفكيكية كمثال دون أي مسوغ يذكر لاستخدامها.

لذلك وجب علينا، نحن المعماريين أن ندلي بدلونا ونوضح موقفنا من تلك الاتجاهات بعيداً عن التحيز، وإنما بنظرة فاحصة لواقع العمارة المعاصرة، وسبر أغوارآفاق التجديد فيها.

إن هذا المؤلَّف هو محاولة لإلقاء الضوء على المؤثرات الفعلية على العمارة المعاصرة سواء كان ذلك من خلال المدارس المعمارية أو التيارات الفكرية أو النظريات المعمارية أو تأثير المجتمع أو الدين أو السياسة أو الاقتصاد. بعد ذلك يبسط الكتاب منهجاً فكرياً حول آفاق التجديد المعماري والذي يعتبر خلاصة ما تمَّ إثارته، لكي نستطيع أن ندرك ما لنا وما علينا. ولكي نلاحق الاستهتار والاستخفاف الذي لحق ببيئة الإنسان من خلال غربلة تلك المفاهيم الحديثة. ونظل بعد ذلك أصحاب فكر ومنهج يحتل موقعاً متميزاً بين مدارس العمارة المعاصرة.



الفصل الأول

التيارات الحديثة والمدارس المعمارية

-مدارس عمارة الحداثة.. لمحة تاريخية لابد منها:

لعلنا نحتاج هنا إلى التطرق إلى مدارس عمارة الحداثة بشكل مختصر ومبسط بعيداً عن السرد التاريخي والوقائع التاريخية لتاريخ العمارة الحديثة، حتى لا نبتعد عن إطار التناول النقدي للكتاب حول مسار العمارة الحديثة.

لقد ظهرت عدة تيارات ومدارس معمارية حديثة كنتيجة لتأثير الثورة الصناعية ودخول التقانة في حياة وثقافة المجتمعات التي عاصرت الثورة الصناعية، وكانت هذه العمارة الوليدة تحمل اسم العمارة الحديثة (Modern Architecture)، حيث ضمَّت هذه الفترة مجموعة من التيارات والمدارس المعمارية أولها مدرسة عمارة الحداثة (Modernism) حيث كانت في الفترة بين(١٨٩٠-١٩٤٥م)، ومدرسة الحداثة المتأخرة (Late Modernism) التي كانت في الفترة بين(١٩٤٥-١٩٨٠م)، ومدرسة ما بعد الحداثة (Post Modernism) حيث بدأت في العام ١٩٨٠م، وهناك من يضيف تصنيفاً جديداً لمرحلة مابعد الحداثة مثل مدرسة الحداثة الجديدة (New Modernism) حيث لا يزال هذا الاتجاه يناقش الاتجاهات الحديثة في مسار العمارة الحديثة.

لقد ظهر كثير من التيارات المعمارية بروادها، وشهدت حراكاً معمارياً صاخباً في بدايات القرن الماضي ومنتصفه، حيث ساندت الثورة الصناعية الكبرى التوسع في الفكر المعماري واستخدام مواد بناء حديثة لم تكن معروفة من قبل، كما أسهم الكثير من المعماريين في قولبة العمارة ضمن إطار حديث يعكس مفهوم التقنية الحديثة، حيث أسهم المعماري «لوكوربوزييه» في إضافة الأشكال التكعيبية الجامدة للعمارة والبعد عن الأشكال التي تهتم بالطبيعة وتتناغم معها، فقد أضاف فكرة «الدوبلكس» في المباني (والمقتبسة من البيئة المعمارية الإسلامية) كما أسهم المعماري «ميرفان ديرو» في إضافة

الزجاج والحديد فيما يعرف بالبناء بأسلوب العظم والجلد في العمارة الحديثة وكانت إضافة جوهرية في الحقيقة. كما لاننسى الإضافات الأخرى التي قام بها بعض رواد مدارس العمارة الحديثة مثل «فرانك لويد رايت» والذي كان يعتبر رائدا للعمارة العضوية و«والترجردبيوس» الذي زاوج بين الوظيفة في المبنى مع التناغم في خارج المبنى وسوف نستعرض بعضا من أهم الحركات المعمارية الحديثة في طيات هذا الكتاب بشكل مختصر بإذن الله تعالى.

لقد اتخذت مدرسة الحداثة في القرن الماضي في العمارة والعلوم الأخرى والتي كانت بين الفترة (١٨٩٠-١٩٤٥م) عدة اتجاهات مثل الاتجاه المستقبلي الذي تأسس في إيطاليا والذي كان يهدف إلى التوجه نحو المستقبل والانفصال عن الماضي متأثرا بالمكننة وصناعة السيارات والطيارات والمكائن ومحاولة إقحام التقنية الحديثة في العمارة، والاتجاه التعبيري حيث تأسس في ألمانيا، وكان يمتد كحركة أدبية انتشرت في ألمانيا إلى باقي دول أوروبا، فهو يمثل انعكاس الأدب والشعر على مشاهد الحياة والحرب آنذاك، والاتجاه التكعيبي الذي ظهر في فرنسا حيث يعتبر الأشكال الهندسية هي أساس الأعمال الفنية ومنها تتكوَّن الأفكار، وتمَّ تبني أفكار فيتاغورس في الهندسة والرياضيات.

وأثناء هذه الفترة ظهرت عدة اتجاهات ومدارس معمارية لها نفس خصائص وصفات الاتجاهات التي ذكرناها أعلاه في عدة أماكن من العالم مثل مدرسة «الباوهاوس» في ألمانيا، ومدرسة «دي شتيل» في هولندا، و«المدرسة البنائية» في روسيا.

لقد بدأت مدرسة الباوهاوس (Bauhaus) في ألمانيا، حيث تعبر هذه المدرسة عن دمج الفنون مع بعضها كدمج الفنون التشكيلية والموسيقى والنحت والعمارة مع بعضها البعض على يد المعماري الألماني «والترغروبيوس»

في العام ١٩١٩م، لكنها لم تستمر بسبب النظام القمعي النازي والذي كان يريد أن تكون تلك المدرسة ذات اتجاه وطني خاص بها وليست ذات اتجاه عالمي.

أما بالنسبة إلى مدرسة «دي شتيل» فإنها بدأت في هولندا في العام ١٩١٧م، حيث اعتمدت مبادئها على استخدام الأشكال البسيطة والمجردة والخطوط الأفقية والرأسية وأسلوب الرسمية في التصاميم المعمارية والابتعاد عن التماثل في التصميم واستخدام أسلوب التعارض أيضاً.

أما المدرسة البنائية فقد بدأت في روسيا (الاتحاد السوفيتي سابقا) في مطلع القرن الماضي حيث تتركز فلسفتها على ربط بنية المبنى الوظيفية بالبيئة الإنشائية مع اعتبار الإنتاج الإنشائي موجها للإنتاج بالجملة للعناصر الإنشائية والمعمارية على حد سواء.

ثم تلت هذه المرحلة مدرسة عمارة الحداثة المتأخرة (Late Modernism Architecture) والتي كانت في الفترة بين (١٩٤٥-١٩٨٠م) ومن أبرز إتجاهاتها اتجاه الهاي تيك (High-Tech.Architecture) أو العمارة فائقة التكنولوجيا، وهذا الإتجاه ظهر في سبعينات القرن الماضي حيث يتضمن دمج العناصر الصناعية والتكنولوجيا الحديثة ضمن تصميم المباني، ويعدُّ من ضمن الاتجاهات الحديثة الأكثر حضوراً في المشهد المعماري المعاصر بسبب تقبل أفكاره بسهولة وعدم انضوائه تحت ثقافة معينة أو منطقة جغرافية محددة، فهو عالمي الأسلوب.

تلت هذه المرحلة مدرسة مابعد الحداثة (Post Modernism Architecture) وكانت من أبرز اتجاهاتها مدرسة العمارة التفكيكية (Deconstruction) حيث كانت تحمل دلالات معينة تدعو إلى رفض التراث المعماري من خلال الاعتماد على أسلوب التشويه والتفكيك للعناصر المعمارية، وقد لاقى هذا الاتجاه معارضة الكثيرين له بحكم أنه لايستند

على أي تراكم تاريخي وخبرة سابقة.

وتلت هذه التيارات أفكار حداثية جديدة ومعاصرة كتيار العمارة المستدامة أو الخضراء وغيرها من الدراسات الجديدة كتأثير الطاقة والجيومتري في المباني وبعض الدراسات المعمارية التي تكونت بسبب صعوبة توفير مبانٍ للسكن الشخصي وبسبب انتشار الفقر في دول العالم النامي كفكرة البناء الميسر والبناء لذوي الدخل المحدود، وارتباط العمارة بكثير من مناحي الحياة الاجتماعية.

تيارات الحداثة التجديدية:

مع بداية القرن الثامن عشر تغيرت جميع النظريات المعمارية التقليدية وأصبح التركيز موجهاً نحو الوظيفة وكفاءة المبنى من الناحية الاقتصادية. كما حدث تجاهل لحاجات الإنسان مثل تحقيق الراحة النفسية ومراعاة الجوانب الاجتماعية والثقافية وكذلك تجاهل لحاجات الإنسان الفيزيائية مثل درجة الحرارة والإضاءة. كذلك تم تجاهل الموروث المعماري الضخم والذي هو نتاج تجارب إنسانية تراكمت خلال آلاف السنين. وقد بدأت الحداثة المعمارية في أوروبا من خلال معماريين تركوا بصماتهم في تكوين تلك العمارة في أوروبا مثل «والترجروبيوس، ميس فان ديروه، فيليب جونسون، لوكوربوزييه، فرانك لويد رايت، ألفارالتو» وغيرهم كثير حيث قاموا بوضع أساسيات العمارة الحديثة.

إنه من الضروري التطرق إلى هذه الحقبة الزمنية لتوضيح الاتجاهات السائده ورواد تلك النظريات آنذاك بشيء من التفصيل.

رواد عمارة الحداثة :

لوكوربوزييه رائد العمارة الوظيفية :

لقد ذهب لوكوربوزييه إلى استخدام الأشكال الهندسية التكعيبية ومعاداة الأشكال التي تهتم بالطبيعة وتتناغم معها، وقد عرف عنه مقولته المشهورة إن المنزل هو آلة للعيش فيها (Home is a machine for live). كما أن لوكوربوزييه اعتنق فكرة الدوبلكس وهو أسلوب العمارة الإشتراكية المتعارف عليه آنذاك.

كما استهوت لوكوربوزييه فكرة الأعمدة الرافعة للمبنى لمستوى البناء فوق منسوب الأرض، واستغلال ذلك المكان تحت البناء كحديقة أو موقف سيارات واستخدام الحدائق فوق أسطح المباني، وتميزت كذلك تصميماته باستخدام الواجهات الزجاجية الطويلة والتي غالباً ما تكون ممتدة من عمود إلى عمود للسماح بدخول ضوء الشمس إلى كافة أرجاء المسكن، وتميز كذلك بعمل المساقط الأفقية متباعدة الأعمدة لعمل مسقط أفقي مرن يسمح بإنشاء قواطيع في ذلك الفراغ. (انظر الشكل (١-١)).



شكل(١-١) : فيلا سافوي في بواسي - فرنسا. لاحظ الأعمدة الرافعة للمبنى هنا.

المصدر : شبكة الانترنت بواسطة «إي باري».

ميس فان ديروه رائد العمارة التشريحية :

انتهج ميس فان ديروه أسلوب بناء العظم والجلد (Skin and bone Structure)حيث يستخدم نظاماً إنشائياً هيكلياً ويكسوه بالزجاج من كل جهة، حيث يرى البعض أن مفهوم ميس فان ديروه ممكن أن ينفذ في أي مكان في العالم وهو تصميم عملي جيد إنظر الشكل (١-٢)، وكان ميس يهتم بدراسة التفاصيل البسيطة حيث يرى أن المبنى الأجمل هو المبنى الذي لا يحتوي على تفاصيل كثيرة حيث مقالته المشهورة : القليل هو الأكثر جمالاً (less is more). كذلك إستخدام ميس في تصاميمه نظرية الفراغ الواحد متعدد الأغراض بحيث يكون المبنى ذا فراغات مرنة وقابل تحويله لأي وظيفة من الوظائف. إنظر الشكل (١-٣)، كذلك استخدم ميس أسلوب الربط بين الفن والعمارة التجريدية حيث قام بتحويل إحدى اللوحات التجريدية إلى مبنى.



شكل(١-٢) : عمارة سيجرام بنيويورك، لاحظ إستخدام الزجاج في الواجهات.
المصدر: ويكيبيديا، الموسوعة الحرة على الانترنت، هذه الصورة مرخصة للاستخدام الحر من خلال منظمة «المشاع الإبداعي».



شكل(١-٣) : كلية الحقوق بجامعة شيكاغو، حيث أستخدم هنا الفراغ متعدد الاغراض مع الواجهات الزجاجية. المصدر: ويكيبيديا، الموسوعة الحرة على الانترنت، هذه الصورة مرخصة للاستخدام الحر من خلال منظمة «المشاع الإبداعي».

فرانك لويد رايت رائد العمارة العضوية:

تبنى فرانك لويد رايت فكرة الشكل يتبع الوظيفة في تصاميمة (Form follows function) حيث يقوم بتصميم المبنى من الداخل إلى الخارج، كما إمتازت تصاميمه بمرونتها في التصميم وقابليتها للتمدد المستقبلي، كذلك إستخدم «رايت» الشبكات التصميمية (modules) في المساقط، وتناغم المبنى مع الطبيعة المحيطة حيث قام باستخدام عناصر الطبيعة كجزء من المبنى، ومن هنا كان رايت رائد العمارة العضوية. ففي أحد أهم أعماله المسمى «بيت الشلال» في بنسلفانيا نلاحظ أن «رايت» إستغل جدول الماء شديد الإنحدار وأدخله ضمن المنزل كما استخدم أسلوب التضاد في الملمس حيث استخدم حجر الكلس غير المتناسق بالتضاد مع كتل خرسانية وكذلك مع الزجاج والحديد. (انظر الشكل (١-٤)). كما قام رايت بتصميم متحف جوجنهام ليعكس المبنى الوظيفة المثالية له والمتمثلة في فكرة الحركة الحلزونية. وسنعرض ذلك لاحقاً.




شكل(١-٤) : بيت الشلال في بنسلفانيا لاحظ التناغم مع الطبيعة. المصدر : ويكيبيديا، الموسوعة الحرة على الانترنت، هذه الصورة مرخصة للاستخدام الحر من خلال منظمة «المشاع الإبداعي».

والترجروبيوس رائد العمارة الحديثة:

استطاع والترجروبيوس المزج بين أسلوب لوكوربوزيية في أن التصميم وظيفي بالدرجة الأولى وأسلوب ميس فان ديرو في تناغم المبنى مع الطبيعة المحيطة. وهو مؤسس عمارة (الباوهاوس) أي بيت البناء عام (١٩١٩م) في مدينة فاير الألمانية. واستطاع جروبيوس تأسيس جماعة حرفية من معماريين ونحاتين ومصورين في مكتبة (H.O.K.) لاعتقاده بأن العمارة تشتمل على جميع هذه الحِرف. انظر الشكل (١-٥) لمدرسة ومعهد البناء «الباوهاوس».



شكل(١-٥) : مدرسة ومعهد البناء (الباوهاوس) في مدينة دساو عام ٨٢٩١م. المصدر: ويكيبيديا، الموسوعة الحرة على الانترنت، هذه الصورة مرخصة للاستخدام الحر من خلال منظمة «المشاع الإبداعي».

كانت هذه البداية لنشوء الحداثة المعمارية وما بعد الحداثة، حيث يلاحظ المتتبع لهؤلاء المعماريين الاختلاف بين بعضهم الأمر الذي أدى إلى نشوء مدارس معمارية مختلفة الآراء والأذواق. وقد يختلف اثنان في الرأي في نسبة معماري إلى إتجاه معين أو مدرسة معينة ولا ضير في ذلك حيث يرفض بعض المعماريين فكرة التصنيف. يقول المعماري نورمان فوستر «إن كل مبنى في القرن العشرين ماهو إلا بلورة لإتجاه معين هو عمارة الحداثة» كما تؤكد ذلك المعمارية العراقية زهاء حديد والتي قالت «أنا لا أعتبر نفسي من رواد عمارة (Deconstruction) لأنني لا أتقيد بمنهج معين في التفكير فأنا لا أفعل إلا ما أحس به».

إذاً فإن الموضوع هو إجتهادي وتلك التصانيف والإتجاهات ماهي إلا إجتهادات للنقاد والمحللين للوصول إلى نتائج تسهل من تحليل المباني ودراستها.

مجموعة الميتابوليزم (Metabolism):

نشأت حركات ومدارس أخرى في الجزء الشرقي من العالم وبالتحديد في اليابان، حيث نشأت مجموعة الميتابوليزم التي سادت خلال منتصف القرن العشرين.

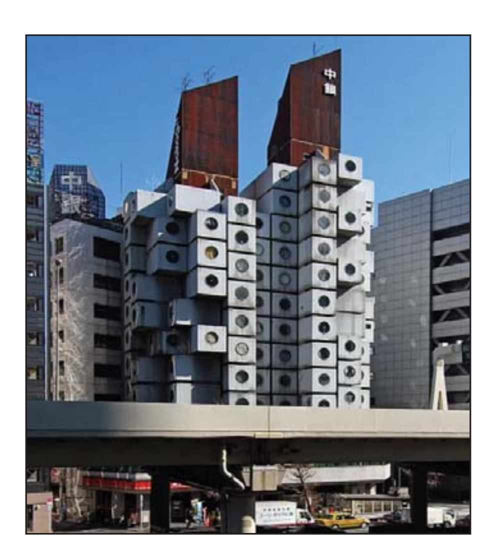
وهي حركة أنشأها مجموعة من المعماريين اليابانيين يمثلون الفكر المتطور لعمارة المستقبل، وقد استمدوا مبادئ الميتابوليزم من الوظائف البيولوجيه للكائنات الحية. ومعنى كلمة «الميتابوليزم» هو مجموعة من العمليات التي تقوم ببناء البروتوبلازما وبها يمكن إنتاج خلايا أو أجزاء جديدة لتعويض ما تمَّ استهلاكه منها، بمعنى أنها العملية الأساسية التي تقوم عليها حياة الكائنات الحية.

وقد اتخذ هؤلاء الشباب اليابانيون مبدأ الميتابوليزم ليكون أساساً لهم

لعمارة حديثة تظهر فيها الحيوية الإنشائية البارزة في الكائنات الحية من تطور ونمو وتوسع، حيث أن كلَّ شئ في الحياة يتغير ويتبدل فالمباني عادة ما تعمر إلى مائة أو مائتين عام وبعضها يعيش آلاف السنين ولكن تعاقب الأجيال على تلك المباني قد يفقدها وظيفتها الأصلية مما يجعله غير متناسب مع عمره وبهذا يجب صناعة المبنى بطريقة تسهل تفكيكه أو إزالته أو توسعته ليتناسب مع الوظيفة الجديدة للمبنى.

وكان من رواد ومؤسسي هذه المجموعة ، (Kawazoe, Kikutake Kurukawa) الذين

صاغوا أفكارهم واتجاهاتهم، وذلك في عام ١٩٥٩م (انظر الشكل (١-٦)).

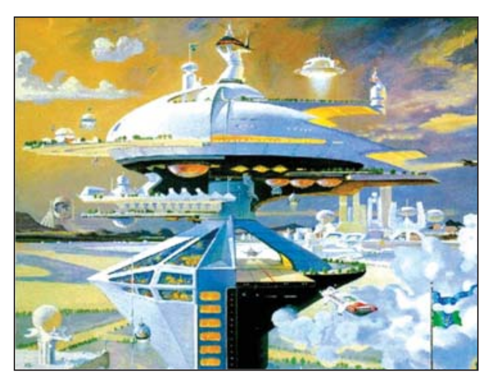


شكل(١-٦) : مبنى يمثل فكر مجموعة الميتابوليزم – طوكيو اليابان، المعماري «كيشو كوروكاوا»، حيث الكبسولات قابلة للفك والتركيب بما يتناسب مع الحاجة لها. المصدر : ويكيبيديا، الموسوعة الحرة على الانترنت، هذه الصورة مرخصة للاستخدام الحر من خلال منظمة «المشاع الإبداعي».

-مجموعة الآرشيجرام (Archigram) :

وهي حركة أنشأها مجموعة من المعماريين في بريطانيا، ومن مبادئها تكوين جيل مختلف من المعماريين يفكرون بطريقة إبداعية من خلال هندسة عمارة مستقبلية تتلاءم مع التكنولوجيا والخيال العلمي، وقد تأثرت هذه الحركة بفترة الإنتاج الصناعي للأجهزة الحاسوبية واختراق الفضاء، وكانت أفكار مجموعة الآرشيجرام تتركز على فكرة المباني العملاقة المكونة من أجزاء عمرها الزمني أقل من الإنشاء الأصلي الرئيسي، وبعد انتهاء العمر الزمني لتلك الأجزاء تستبدل بوحدات جديدة تلائم الحاجات الجديدة، حيث كانوا يعتبرون أن المبنى ينشأ لفترة زمنية معينة ثم تتغير وظيفته.

ولقد عاب الكثير من المعماريين هذا النظام بسبب ارتفاع كلفته الاقتصادية وبسبب أنه كان أقرب إلى الخيال فمن الصعب تنفيذ تلك المشاريع، إضافة إلى بعُد هذا التوجه المعماري عن الاهتمام بالجوانب الإنسانية والاجتماعية للمستخدمين. وكان من رواد ومؤسسي هذه المجموعة (Michael Webb,David Greene,Peter Cook) (انظر الشكل (١-٧) والشكل (١-٨)).



شكل(١-٧) : أفكار تخيلية لمجموعة الآرشيجرام. المصدر : المجلة المعمارية العربية على الانترنت، العدد الرابع ٢٠٠٨ م.



شكل(١-٨) : مشروع بيت الشرنقة لديفيد غرين ٦٦٩١م وهو عبارة عن خلية صغيرة يمكن ان يوجد هذا المسكن بشكل مستقل او بشكل مجمعات. المصدر : نفس المصدر السابق.

-الثورة الصناعية وتأثيرها على العمارة الحديثة :

نشأت الثورة الصناعية خلال القرن الثامن عشر والتاسع عشر الميلادي في أوروبا الغربية (فرنسا وبريطانيا وألمانيا) وهي عبارة عن تحولات علمية وتقنية ساهمت في النهضة الفكرية وبروز الاختراعات التي كان لها تأثير كبير على كل مجالات الحياة ومنها العمارة.

تم اختراع مواد بناء جديدة في تلك الفترة ساهمت في تغيير أسلوب العمارة آنذاك، فأدخل الحديد والخرسانة والزجاج في البناء، وأدى ذلك إلى تغيرات كبيرة، واستطاع الناس الحصول على فراغات كبيرة في المباني بدون وجود عمود في وسطها حيث يكوّن الحديد بحراً طويلاً (Long span struchre)، وبواسطة الخرسانة تم تشكيل المباني بأشكال لم تكن متاحة، وكانت المباني ذات الإنشاءات القشرية (Shell structure) وبانحناءات كبيرة دون أن يؤثر ذلك على كفاءة المبنى الإنشائية. كذلك تمَّ بناء المباني

ذات الارتفاعات العالية (Skyscraper) الذي صممها المعماري لويس سوليفان عند تبنيه تلك التصاميم من خلال مدرسته Chicago school) of Architecture).

ولا ننسى استخدام الزجاج في المباني والتي تبناها (ميس فان ديرو) في تصميماته، وانتقل ذلك إلى الدول العربية ذات المناخ الحار، مع أنه من غير المنطقي استخدام الزجاج كواجهات مع وجود الإشعاع الشمسي الهائل والحرارة التي يمتصها الزجاج، إلا أنه نتيجة التقنية تم استخدام التكييف المركزي لحل تلك المشكلة مع العلم أنه من غير المقبول إيجاد المشكلة عمداً ومحاولة إيجاد الحل لها.

كانت الثورة الصناعية هي بداية تكوين الحركات المعمارية والمدارس والاتجاهات،حيث برز تركيز كامل على الوظيفة والكفاءة الاقتصادية كمنبع للتصميم وتجاهل المعماريون إشباع حاجات الإنسان الفيزيائية كدرجة الحرارة وشدة الإضاءة وتحقيق الراحة النفسية ومراعاة الجوانب الثقافية والحضارية والاجتماعية وعاملوا المباني كما لو كانت أجهزة وآلات مجردة من روح العمارة التي هي توأم روح الإنسان، وأدى ذلك إلى فجوة عميقة بين العمارة والبيئة، حيث أطلق المهتمون بدراسة البيئة على تلك العمارة اسم «العمارة المدمرة»(Destructure Architecture).

وقد كان «جون راسكن» من أوائل الباحثين الذين رصدوا أضرار التقدم الصناعي ونادى بأنه يجب على العمارة أن تتجاوب مع البيئة وصحة الإنسان.

إن التفاعل بين الإنسان والبيئة والعمارة يعد من مظاهر حضارة الإنسان ورقيه، ولكن ساد فهم خاطئ لتلك العلاقة السابقة (الإنسان – البيئة – العمارة)، حيث اعتقد الإنسان أن بإمكانه قهر البيئة والطبيعة مظهراً أدواته وتقنيته. ولم يكن ذلك صائبا حيث توالت الأزمات البيئية.

استمرت التقنية الإنشائية والصناعات المساندة لها حتى يومنا هذا ولازلنا نصلح من جهة ونخرب من جهة أخرى !! كما ظهرت مواد بناء جديدة لم تكن موجودة في السابق أدت إلى حدوث أضرار صحية وبيئية جسيمة مثل مادة الأسبستوس المسرطنة ومواد العزل الحديثة التي عندما تحترق فإنها تحدث غازات سامة قاتلة والغازات المنبعثة من التكييف وما تسببه من تلف في طبقة الأوزون وأثرها على ظاهرة التسخين الحراري العالمية، لذلك ظهرت فكرة العمارة البيئية والخضراء وإعادة تصنيع المواد (Recycling)، وتمَّ التركيز على تلك العوامل التي تراعي الجوانب البيئية وتقلل من تأثير تدمير البيئة إلى حدٍّ ما.

لقد حقق تبني نظريات العمارة البيئية أو الخضراء تقليلاً في استهلاك الطاقات الطبيعية واستخدام المواد الطبيعية في البناء، لكن المشكلة هنا أن تلك العمارة ركزت على ترشيد استهلاك الطاقة وملاءمتها للبيئة وأغفلت إشباع الحاجات الأخرى للإنسان مثلما حدث في قرية (القرنة) التي قام المعماري المتميز حسن فتحي بتصميمها في مناطق الريف المصري كما سنرى في فقرات هذا الكتاب.

لقد أنشأ التقدم الصناعي أفكارا وتيارات معمارية حديثة توائم وتواكب الحالة الصناعية والاجتماعية لتلك المجتمعات، فظهرت تيارات حديثة ومدارس معمارية،منها ما كان نتاج الصناعات الحديثة، ومنها ما جاء بسبب عوامل أخرى.

مدرسة العمارة البيئية:

برزت مدرسة العمارة البيئية كحاجة طبيعية للأزمة التي خلفتها الصناعات الحديثة بعد أن لوحظ أن صناعة التشييد تستهلك مواد بناء ومعدات تؤثر سلباً على البيئة والطبيعة، فكان أن حاول المعماري استغلال الموارد الطبيعية وإدخالها في البناء وذلك للتقليل من الإعتماد على مواد

الصناعات الحديثة ذات الأثر السلبي، والاستفادة من تلك الموارد الطبيعية، حيث استغل المعماري الطاقات الطبيعية مثل استخدام حرارة الشمس في توليد الكهرباء والإنارة داخل المبنى من خلال استخدام الخلايا الشمسية وكذلك تقنيات التخفيف من الحرارة الشمسية من خلال عدة وسائل وطرق حديثة وموروثة، وأيضاً استغلال مواد البناء الطبيعية مثل استخدام الطين في العمارة كما حصل في عمارة حسن فتحي (عمارة الفقراء) فكانت مثالاً يحتذى به في معظم المجتمعات الإنسانية. (انظر الشكل (١-٩)).



شكل(١-٩) : مشروع مركز الحرف التقليدية بالفسطاط – القاهرة – حسن فتحي. المصدر : جريدة الشرق الأوسط، العدد ٨١٢١١ بتاريخ ٥١ أغسطس ٩٠٠٢ م.

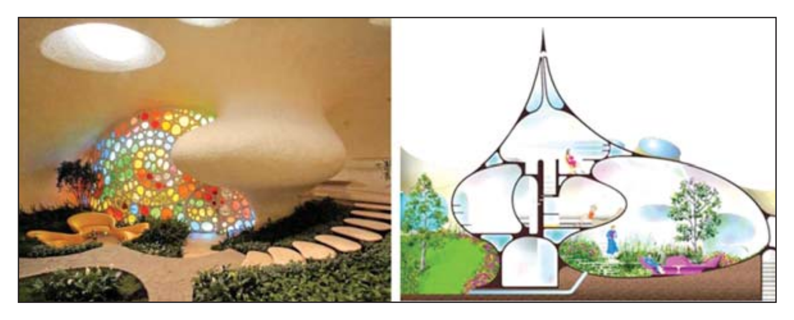
إن مساكننا تفتقر إلى التوافق مع المحيط والبيئة والانكشافات للخارج وللشمس، فهي منفصلة عن البيئة حولها إلى حدٍّ ما، لذلك يكمن التحدي المعماري هنا في إيجاد وسائل للاستفادة من مقومات التوافق البيئي والانفتاح على الخارج دون فقدان الهوية المعمارية للمباني ودون المساس بخصوصية المجتمع المحلي.

لذلك فإنه من المهم التركيز على التحول من مفهوم بناء المساكن من

العداء للبيئة إلى الصداقة مع البيئة وتفادي التصادم معها، تماما كما في «بيت القوقعة» حيث تمَّ تصميم المنزل ليتوافق مع البيئة المحيطة. (انظر الشكل (١-١٠) والشكل (١-١١)).



شكل(١-١٠) : بيت القوقعة في ناوكالبان المكسيك
من تصميم مكتب Senosiain Architecture.
المصدر : جريدة البيان الاماراتية، العدد ١١٣٠٥ بتاريخ ١ يونيو ٢٠١١ م.



شكل(١-١١) : مقاطع ومناظير داخلية لبيت القوقعة، لاحظ وجود شجيرات ومزروعات داخل المنزل. المصدر : نفس المصدر السابق.

ومن المفيد أن أذكر، في هذا السياق، أن سبع عشرة ولاية أمريكية تقدم حوافز لإقامة مبانٍ صديقة للبيئة أو تطلب شهادات في تصاميم الطاقة والبيئة (LEED) وهو نظام لتصنيف المباني الصديقة للبيئة معترف به على مستوى البلاد.

لذلك، فإنه من الضروري للعمارة البيئية أن تراعي عدة عوامل بين يدي تصميمها، ومن أهمها :

١- عدم الإضرار بصحة الإنسان :

وذلك بأن يتم الأخذ بعين عتبار النقاط التالية :

أ- غير ملوثة للبيئة:

من الضروري أن تتعامل العمارة البيئية بحرص ومهارة لتفادي الملوثات في العمارة والصرف الصحي وإعادة معالجة المياه، وكذلك تفادي استخدام الآلات التي تصدر الضجيج والأبخرة المتصاعدة التي تساعد على اختراق طبقة الأوزون قدر الإمكان، وذلك باستخدام التقنيات الحديثة والأبحاث التي كتبت مؤخرا حول آلية الحفاظ على البيئة من التلوث الذي تصدره العمارة.

ب-لا تحتوي على مواد مضرة:

انتشرت في الآونة الأخيرة مواد عزل ومواد بناء مضرة بصحة الإنسان البعض منها منع من تصنيعه مرة أخرى مثل الاسبستوس والبعض الآخر لم يزل مستخدما على نطاق واسع مثل مواد العزل ذات المنتجات البترولية والتي تصدر أبخرة تؤدي إلى الاختناق عند احتراقها.

ج- توفر التهوية والإضاءة الطبيعية :

وذلك بأن تدخل الإضاءة والتهوية الطبيعية بحد نستطيع أن نستغني فيها عن الاضاءة والتهوية الميكانيكية الصناعية ولو مؤقتاً.

ومن الصعب أن نتجاهل الرياح والإشعاع الشمسي الكبير في بلداننا العربية ذات المناخ الحار والإشعاع الشمسي شديد التوهج.

٢-التوافق مع البيئة:

عندما نرى شخصاً في فصل الصيف يعيش في بيئتة المحلية الحارة مثلاً ويلبس هذا الرجل ملابس شتوية ثقيلة لا تعكس أشعة الشمس ولا تحتفظ بدرجة الحرارة المناسبة للجسم بحجة أن تلك الملابس جميلة وراقية

وحديثة. فإننا حتماً سوف ننتقده ونلومه على هذا السلوك، لسبب بسيط وهي أن تلك الملابس لا تتوافق والبيئة المحلية، نعم هي أدت الوظيفة منها ولكن بشكل سيئ وغير منطقي.

إن من الأمور المسلمات والمنطق العقلاني أن تتهيأ لنا عمارة تتوافق مع بيئتنا بكفاءة عالية، وقد تحقق ذلك قديماً قبل عصر الطفرة النفطية من خلال إستخدام المساكن التي سكنها أباؤنا و أجدادنا والتي تحتوي على عناصر تتوافق مع البيئة من الناحية المعمارية والعمرانية، فنجد مثلا أن تصميم المباني يكون متلاصقا مع بعضه البعض مع وجود الأزقة الضيقة التي تعمل كممرات للتيارات الهوائية الملطفة للجو، وتلك المباني المتلاصقة تعمل كعازل حراري. أيضا الشبابيك التي كانت ضيقة عند الجهة المقابلة لجهة الرياح السائدة وتكبر عند الجهة التي يخرج منها الهواء بالإضافة إلى وجود المشربيات التي «تفلتر» الضوء وتدخله بطريقة جيدة وتتعامل بكفاءة مع الخصوصية الفردية للساكنين في تلك المساكن، إلى جانب العديد من العناصر الأخرى التي تدل على جودة العمارة التقليدية في التوافق مع البيئة لأنها نتاج موروث ثقافي متراكم عبر الأزمنة والسنين. لذلك لا يمكننا نسف ذلك المخزون وتجاهله بكل بساطة بحجة أن التجديد في العمارة يستلزم إلغاء الموروث القديم !!

٣-الاستفادة من الطاقات الطبيعية:

إن بيئة البلدان العربية بشكل عام بيئة حارة جافة يكثر فيها الإشعاع الشمسي والرياح، لذلك لابد من استغلالها والبحث عن بديل للطاقة الكهربائية والميكانيكية في المباني،حيث يكثر في بعض دول أوروبا استخدام المروحيات العملاقة كمولدات للطاقة عن طريق استغلال الهواء في توليد الطاقة، وكذلك استغلال أشعة الشمس في توليد الكهرباء بواسطة استخدام الخلايا الشمسية.

إن أحد أهم أسباب الكلفة الزائدة في إنشاء المباني هو عدم مراعاة الجوانب البيئية في التصميم، وسنشير في الفصول القادمة من هذا الكتاب إن شاء الله تعالى إلى هذه النقطة. إن التصميم المعماري بشكل عام لا يمكن أن يكون متكاملاً بأي حال من الأحوال إنما هو نسبة وتناسب فعندما تصلح شيء قد يتغير شيئاً أو يتبدل إلى الأسوأ. لذلك قد يأتي أحدهم فيشكل عليه أمر العمارة البيئية فيقول إنها عمارة الانكشاف إلى الخارج والانفتاح على البيئة مما يجعلها تفقد جزءاً من خصوصيتها وهويتها الثقافية في البيئات المحافظة.

لذلك فإن عملية التصميم عملية معقدة نوعاً ما ولابد لنا من الاستفادة من الخبرات السابقة في ذلك المجال الذي أشبع بحثاً بدلا من أن نهرب إلى تلك الإشكالات والفرضيات الجديدة حيث قد يتخذ أحدهم قراراً بتصميم مبنى زجاجي وسط مدينة صحراوية ذات وهج شمسي شديد ويستخدم وسائل تكييف تستهلك طاقة كبيرة نتيجة الحرارة الزائدة لاستخدامه ذلك الزجاج وذلك المبدأ التصميمي. وقد يستخدم في ذلك المبنى كميات كبيرة من عناصر الإضاءة الصناعية دون الإفادة من الإضاءة الطبيعية ولو بنسبة ضئيلة.

علم الأحياء والعمارة :

يتطرق «سلقيني» في كتابه «العمارة البيئية» إلى موضوع رئيس في كتابه باسم علم الأحياء والعمارة «من وجهة نظر مناخية« حيث يشير الكاتب إلى أن هناك مجالاً كبيراً للاستفادة من عالم الأحياء في مجال العمارة، فهناك الحيوانات التي تبني لنفسها مأوى ومسكناً بغريزة إلهية مثل الحلزونات والأصداف والعنكبوت أو ما يتشكل منه الجسم الحي نفسه جملة وتفصيلاً. ويؤكد الكاتب على ضرورة دراسة تلك الحيوانات والنباتات والبيئه الحية بشكل عام لنستنتج منها دروساً مهمة في مجال عمارة متناغمة مع راحة

الإنسان (Human Comfort) . فعلى سبيل المثال لا الحصر تكون أوراق الشجر في الضوء غليظة وفي الظل نحيفة وذات سطح أوسع كما أن الأوراق في أعلى النبات أصغر وشكلها أبسط لذلك علم الأحياء مرتبط بعلم العمارة لحاجة كليهما إلى التكيف البيئي والانسجام مع البيئية المحيطة [١] .

وقد أشرنا سابقاً إلى دور مجموعة الميتابوليزم التي استمدت أفكارها من الوظائف البيولوجية للكائنات الحية، فقد نجحت المجموعة في تبني فكرة التعاطي مع تغير وظيفة المبنى وتوسعته أو تغيير شكله لكنها لم تنجح من وجهة نظري في إيجاد عمارة عضوية تكون جزًءا من الإنسان والبيئة المحيطة.

لقد استطاعت الكائنات الحية أن تتكيف مع البيئة أكثر من الإنسان الذي لا يزال يبدأ من البداية ولا يبدأ من حيث إنتهى الآخرون، فالتصاميم المعمارية يجب أن تعتمد على المخزون الثقافي الموروث في التعامل مع معطيات الحياة العصرية وتراكم خبرتها في المجال، ذلك التراكم الممتد امتداد حياة الإنسان داخل البيئة.

-مدرسة العمارة المستدامة (عمارة القرن الحادي والعشرين):

العمارة المستدامة (Sustinable Architecture) أو العمارة الخضراء ماهي إلا امتداد للعمارة البيئية وتكملة لها حيث إنها تقوم على مبدأ تقليل الأثر البيئي وكذلك تقليل الأثر الاقتصادي من خلال تقليل تكلفة التشغيل والصيانة للمباني. بالإضافة إلى إسهام العمارة المستدامة في توفير بيئة آمنة ومريحة وصحية.

والعمارة المستدامة نموذج مميز لعمارة القرن الحادي والعشرين حيث البعد عن التكلف في التصاميم المعمارية بدون داعٍ وحاجة، فهي توظف الطاقات الطبيعية والميكانيكية لخدمة المبنى وتقليلً هدر الطاقة، ويشير

المعماري جيمس واينز (James wines) في كتابه «العمارة الخضراء» إلى أن المباني في العالم تستهلك ربع إنتاج الخشب وسدس إمدادات الماء العذب في العالم وخمس الوقود.

كما يشير واينز إلى أن مساحة البيئة المبنية ستتضاعف خلال فترة وجيزة جداً تتراوح بين ٢٠-٤٠ سنة قادمة، وستجعل هذه الإحصائيات من عمليات إنشاء المباني العمرانية وتشغيلها واحدة من أكثر الصناعات استهلاكاً للطاقة وللموارد في العالم بالإضافة إلى التلوث الناتج عنها [٢].

كما يسهم هذا الاتجاه المعماري أيضاً في إيجاد بنية مناسبة ومريحة للاستخدام البشري، فقد أكدت الكثير من الدراسات والإحصاءات إلى أن العمارة المستدامة توفر بنية عمل مناسبة للموظفين في تلك المباني والتي تتوفر فيها إطلالة مناسبة وخضراء على الخارج، الأمر الذي ينعكس على أداء الموظفين في مكاتبهم.

وقد تمَّ الاهتمام بهذا التوجه في المملكة العربية السعودية في مبنى وزارة التربية والتعليم انظر الشكل (١-١٢)، كما نجد آثار هذه الوعي المعماري في مشاريع أخرى ببيئآت مختلفة. (انظر الشكل (١-١٣)).



شكل(١-١٢) : مبنى وزارة التربية والتعليم بالرياض من تصميم مكتب البيئة.
لاحظ زراعة الأسطح. المصدر : مكتب البيئة للاستشارات الهندسية.



شكل(١-١٣) : أحد المباني المكتبية التي طبقت البناء المستدام في دولة البحرين، وتتضح المراوح التي تولد الطاقة الكهربائية من الرياح. المصدر: ويكيبيديا، الموسوعة الحرة على الانترنت، هذه الصورة مرخصة للاستخدام الحر من خلال منظمة «المشاع الإبداعي» بواسطة «تيم ميلر».

ويشير «السواط» إلى أن العمارة التقليدية في المملكة هي أساس العمارة المستدامة، بل إنها تمثل تطبيقات مبكرة لمفهوم العمارة المستدامة الخضراء حيث قدمت تلك العمارة التقليدية معالجات بيئية ذكية أسهمت إلى حد كبير في إيجاد توافق بيئي بين المبنى والبيئة المحيطة من خلال التوجيه المناسب للمباني وتوظيف طبوغرافية الأرض، واستخدمت الأفنية الداخلية والعرائش والمشربيات وملاقف الهواء، واعتنت بأشكال وأحجام النوافذ والفتحات، كما انها اعتمدت على المواد المحلية كالطين والخشب، وإعتنت بالنسيج العمراني المتوافق بيئياً معها للتكيف البيئي والتقليل من وطأة الظروف المناخية.

ويستطرد الباحث قائلاً: إذا كان هناك من ينادي باعادة إحياء التراث العمراني لأسباب متعلقة بالهوية والبعد الحضاري والثقافي والسياحي.. فإن هناك اليوم دافعا أهم وأكبر لاعادة إحياء هذه المفاهيم يتجاوز الجوانب الشكلية والثقافية ويلامس القضايا الاقتصادية والبيئية الملحَّة التي تتسبب فيها قطاعات البناء في العصر الحديث (٣).

مدرسة العمارة التفكيكية (اللامنطقية في التكوين) :

إن العمارة التفكيكية هي إحدى مدارس عمارة مابعد الحداثة، ونلاحظ فيها أنها لا تستند إلى موروث معماري أو أي نتاج خبرة سابقة، بل تقوم بتهميش القيم القديمة من أجل إبداع شيء ما جديد لا يشبه منطلقات العمارة المعتادة حيث تحمل العمارة التفكيكية دلالات سيكلوجية تدعو إلى رفض الموروث المعماري لحضارات ودول لها ذلك الموروث الغني من الممارسة المعمارية. علماً بأن التجديد في العمارة كأسلوب عمارة التفكيك (Deconstruction) لا يستلزم نسف المخزون المعماري والإرث الضخم لإنتاج عمارة لا تعدو كونها كتلا نحتية غير متناسقة لا تصلح إلا لتكون مجسمات جمالية على الأرصفة وبين الشوارع !! فالعمارة التفكيكية تفتقر إلى التحكم في السلوك الإنساني كما هو الحال في العمارة الإسلامية المشهود لها بالثراء والتميز في هذا المجال و تنعدم في النظرية التفكيكية أيضاً المنطقية في التكوين، الأمر الذي يؤدي إلى بذخ في البناء وإسراف في التكلفة. كما أن الشكل لا يتبع ولا يوحي بالوظيفة هنا. لذلك، فإنّ أسلوب المدرسة التفكيكية لا يستند إلى أي قيم أو مبادئ ثابتة.

وما كان نتاج ذلك سوى محاولة لعمل عمارة جديدة حديثة تستند إلى أسلوب الرمزية والاستفزاز البصري للمتلقي، وهي بذلك نجحت في تحقيق هذه الفكرة حيث الأشكال غير المتناسقة والكتل المائلة والألوان الفاقعة والمتضادة، ولكن هذا الهدف لم يكن في يوم من الأيام هدفا رئيساً للعمارة الإنسانية.

كانت العمارة التفكيكية إحدى أفكار الفيلسوف الفرنسي «جاك دريدا» ١٩٣٠-٢٠٠٤م، فقد كان يثير التساؤلات لدى المعماريين حول إمكانية أن تتخلى العمارة عن هيمنة علم الجمال ومبادئ جماليات العمارة الكلاسيكية، وحول ما إذا كان بإمكانها أن تتخلى عن الوظيفة والنفعية،

وحول إمكانية تشييد مباني تتخلى عن موروثات العمارة ومبادئها لأجل إبداع شيء ما جديد. لذلك كان يرى ضرورة إيجاد أشكال معمارية جديدة وإلغاء المألوف والمتعارف عليه حتى يستطيع الإجابة على سؤاله.

وقد تبع «دريدا» الكثير من المعماريين المعاصرين الذين سلكوا فلسفته وترجموها، منهم «بيتر إيزمان» ١٩٣٢م و «ريم كوولهاس» ١٩٤٤م و «زهاء حديد» ١٩٥٠م و» هيرومي فوجي» ١٩٣٥م وغيرهم كثير.

لقد كان التفكيك في العمارة أحد نتاجات الفكر الغربي المتأثر بالفكر البنيوي الذي ينص على أن كل ظاهرة إنسانية كانت أو أدبية هي بحد ذاتها تشكل بنية، وحتى نستطيع دراسة هذه البنية يجب أن نفككها ونُرجعها إلى عناصرها المكونة منها، بدون الرجوع إلى أي عوامل خارجية أُخرى حيث كان البنيويون يقولون إنَّ نقطة الارتكاز هي الوثيقة وليست الهوامش (Text is Context).

وبعد ذلك انتشرت البنيوية في كثير من المجالات والحقول العلمية والدراسات الإنسانية الأخرى.

ولقد استمدت البنيوية أفكارها من خلال بعض الأفكار الفلسفية التي انتشرت في أوروبا في أوائل القرن الماضي، فهي لا تؤمن بالماورائيات «الميتافيزيقيا» ولكن تؤمن بالتجارب والمشاهدات الفعلية بعيداً عن الظواهر الإدراكية المتخيلة غير الحسية.

لقد كان هذا المنهج «البنيوي» المادي يقوم بدراسة الظواهر بشكل مادي بحت في مناهج اللغة وعلم الاجتماع وعلم النفس، ثم بعد ذلك وصل إلى منهج العمارة كرافد من روافد العلوم الإنسانية، ليقوم البعض،وبدون دراسة واعية، بتبني هذا النهج الذي ثبت فشله لدى الغربيين أنفسهم.

لقد ربط «بيتر آينزنمان» و «برنارد تشو» المنهج التفكيكي بنظرية معمارية تؤكد على هدم الأسس الهندسية الشكلية وتفكيك المنشآت إلى أجزاء لأن

ذلك حسب وجهة نظر الباحثين السابقين يعدمن الغرائز الإنسانية التي تسعد وتبهج الإنسان تماما كالطفل عندما يفكك اللعبة لمعرفة محتوياتها !!

إن هذا الكلام بعيد عن المنطق والحجة السليمة لأن العقل يقول إن الخبرة والممارسة الناجحة هي تراكم المعلومات وتنقيحها من خلال التجارب، فلا يمكن أن نضرب بتلك الممارسات بعرض الحائط ونأتي بمنهج تشكيكي كان موجها للغة والأدب والمنطق. ولا استبعد أنه كان موجهاً في الأصل للنيل من الكتب السماوية ومعجزات الأنبياء ليكون سندا وملاذا للملحدين والفلاسفة الماديين أمثال كارل ماركس وميشيل فوكو وجيوفري هارتمان وغيرهم كثير.

لقد اشتهر المعماري فرانك جيري (Frank Jehry) باستخدام الاتجاه الانفصالي في العمارة التفكيكية بمعنى أنه كان يرى أن يستقل المبنى المراد تصميمه عن كل المباني المحيطة والضرب بمبدأ الوحدة والانسجام عرض الحائط، وذلك بهدف أظهار المبنى كنقطة جذب بصرية.

(لاحظ الشكل (١-١٤) والشكل (١-١٥) لبعض مشاريع جيري).



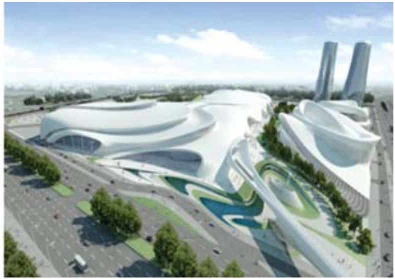
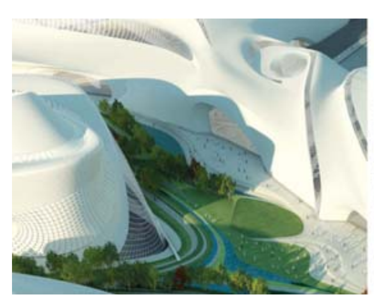


شكل(١-١٤) : يمين : قاعة والت ديزني، المصدر : ويكيبيديا، الموسوعة الحرة على الانترنت، هذه الصورة مرخصة للاستخدام الحر من خلال منظمة «المشاع الإبداعي» بواسطة «كارول ماكيني».

شكل (١-١٥) : يسار : مركز لو ريفو للأمراض العقلية، المصدر : شبكة الانترنت بواسطة «إسحاق بريكين»

أما المعمارية العراقية «زهاء حديد» فقد استخدمت أسلوباً فنياً تجريدياً في تصميم المباني وكأنها كتلة نحتية، كما استخدمت الألوان الصارخة في المباني، وهي تحتفظ في تصاميمها بنفس مفاهيم التفكيك من غموض في الفكرة وصعوبة تنفيذ تلك المباني، مع أنني أختلف مع من يصنفها ضمن هذا الأسلوب التفكيكي ولكنه أسلوب متميز ومختلف فأسلوبها أجمل من أسلوب العمارة التفكيكية وإذا أردنا تصنيفها ضمن تيار معين فإنني سوف أنسبها للعمارة التجريدية.

ويرى «السلطاني» أن متحف «أودغوبغو» للمعمارية زهاء حديد، هو خير فضاء يعطي شعوراً غريباً يعود إلى أسلوب وصفية العناصر التركيبية وأشكالها التي تغلف ذلك الفضاء وتحدده، فلا تكاد ترى جدرانا تنهض باستقامة ماعدا استواء أرضية فضاء قاعات العرض[٤] «وقد عللت زهاء حديد استخدام ذلك الأسلوب المعماري بأن لديه (٣٦٠ درجة) فلماذا تتقيد بزاوية واحدة فقط؟.

شكل(١-١٦) : مشروع أرض المعارض الجديد بالقاهرة من مشاريع زهاء حديد.

المصدر : مجلة بناة الالكترونية، بتاريخ ١٠ يناير ٢٠٠٩ م.

-الصخب الفكري وإثراء النظريات المعمارية:

مع بدايات الثورة الصناعية، تغيرت معظم النظريات المعمارية، وأضحى التركيز على الوظيفة والاقتصاد كأساس للتصميم، وأصبحت حاجيات الإنسان الطبيعية كدرجة الحرارة وشدة الإضاءة والارتياح النفسي ومراعاة الجوانب الاجتماعية والثقافية غير ذات أهمية في عملية التصميم كما نلاحظ في مساكننا الآن، فأصبحت المباني كما لو كانت آلات للسكن دون مراعاة للجوانب المذكورة سابقاً. وقد أطلق الكثير من المعماريين على هذه العمارة وصف «العمارة المدمرة» (Destructive Architecture) لأنها أثرت سلباً على البيئة واتزانها الطبيعي.

كما أن «جون راسكن «يعتبر من الأوائل الذين رصدوا أضرار التقدم الصناعي ونادى بأن على العمارة أن تتجاوب مع البيئة، وكتب في أحد مؤلفاته «اللّه أعارنا الأرض لنحيا عليها بعض الوقت وهبه ومنحه عظيمة، لكن ملكيتها تؤول لأبنائنا و أحفادنا أكثر مما تعود لنا، وليس لنا أدنى حق في أن نتجاهلهم أو أن نشركهم في عقاب على جرائم لم يقترفوها أو حتى أن نحرمهم من نعم وهبها اللّه لهم، ليس لنا أدنى حق في ذلك».

وإستمرت هذه النظريات المعمارية حتى «مدرسة الباوهاوس» التي جسدت روح المكننة في البناء بعيداً عن روح العمارة الإنسانية، وأعطت إحساساً لساكني تلك النماذج من الأبنية بقسوة البيئة المبنية وباختفاء الهوية والسمات الثقافية للمكان. (انظر الشكل (١-١٧)).



شكل(١-١٧) : مبنى الامم المتحدة بنيويورك – الباوهاوس، المصدر : ويكيبيديا، الموسوعة الحرة على الانترنت، هذه الصورة مرخصة للاستخدام الحر من خلال منظمة «المشاع الإبداعي».

الصدمة الحضارية والاحتكاك مع الغرب:

انتشرت العديد من الدراسات حول علاقة العرب بالغرب والثقافة السائدة بينهما، فانتشر مفهوم حوار أو صراع الحضارات الأمر الذي دعا إلى إعادة التفكير والتعاطي مع ثقافة الغرب بمحاولة استيعاب العلوم العصرية الحديثة والاستفادة القصوى من التكنولوجيا، خصوصا بعد مناداة الباحثين بالتقريب بين تلك الفجوة العميقة في القضايا الخلافية بين الشرق الوثني والغرب المسيحي والوسط الإسلامي، وعلى جميع الأصعدة السياسية والثقافية والاجتماعية.

ويثير «ضاهر» سؤالاً مهماً قائلاً: هل هناك عجز بنيوي في الثقافة العربية والمثقفين العرب بحيث لم تنجح كل مشاريع التحديث النهضوي طوال القرنين الماضيين في حين نجحت لدى شعوب كثيرة لا تمتلك الجزء اليسير مقارنة مع الموارد العربية ؟

ويرى الباحث أن من أهم الأسباب العميقة التي مازالت تعيق حركة الإبداع العربي تغييب التراث العقلاني العربي بسبب الاقتباس الحرفي من الغرب دون نقد، فلم تتولد تيارات ثقافية فاعلة قادرة على صياغة مشروع نهضوي جديد، وغاب معه التفكير النقدي عن الجامعات والمؤسسات الثقافية مما أدى إلى أزمة إبداع ثقافي [٥].

لقد أثرت ظاهرة الاغتراب في الثقافة والفكر، نتيجة التعاطي السلبي مع هيمنة الفكر الغربي، على المخزون والموروث الثقافي المحلي بما في ذلك المنتوج المعماري حيث أدت تلك الثقافة المستوردة إلى الابتعاد عن ثقافة المجتمعات المحلية باعتبارها ثقافة بلدان نامية والثقافة المستوردة باعتبارها ثقافة بلدان متقدمة !!

أدى هذا النزوع نحو الثقافات الوافدة إلى ضياع الهوية العمرانية المحلية وطمس معالمها كلية أو عبر مراحل «تهجين عفوي» كما أسماها «النعيم»[٦]. ويرى «الحلواني» أنه إذا اعتبرنا أن منهج تعليم العمارة في بلداننا العربية ساهم بشكل كبير في صنع أزمة العمارة،فسنجد أن وراء ذلك أيضاً الهيمنة والسيطرة الغربية في المجالات الاقتصادية والسياسية والفكرية مروراً بالمجال المعماري [٧].

وحتى على مستوى المدينة نلاحظ أن تخطيط المدينة الشبكي الروماني الأصل كان غير موجود في المدينة العربية في حين كانت تستخدم النهايات المغلقة (Cul de Sac) عند مداخل المساكن والتي كانت بيئة حميمية من الدرجة الأولى لها وظائف عديدة، كما أنها تتحكم في السلوك الإنساني.

هناك الكثير من الأسباب التي ساهمت في نشر الثقافة المعمارية الغربية في البلدان العربية غير ماذكر، فقد مرت بعض الدول العربية بعصر الطفرة والثراء السريع الذي حتَّم عليها بناء وحدات سكنية بشكل عاجل، أدت تلك المساكن فيما بعد إلى تلوث بصري حيث اختفت الكثير من

العناصر المعمارية العربية الأصلية وحلت محلها تلك المباني التي أحدثها عصر الطفرة. فإختفت الأفنية الداخلية ووسائل التبريد الطبيعي والعزل الحراري الجيد وعناصر فلترة الضوء كالمشربيات والكوليسترا والعلاقات الداخلية المرنة بين مجلس الضيوف والحرملك والألوان المتناسقة مع البيئة المحيطة وإختفى معها السلوك الإنساني المتميز الذي أحكمته تلك العمارة حيث كانت موجهة نحو علاقات الجوار الجيدة.

ونتيجة للغزو المعماري الغربي لعمارتنا وهويتنا المحلية، أحسَّ الجيل الماضي من المعماريين العرب بالصحوة المعمارية العربية ووضعوا على عاتقهم أهمية الحفاظ على ما تبقى من تلك العمارة التراث وعدم تمكين العمارة المستوردة من الاستمرار في أسلوبها الحداثي.

أحد أهم المعماريين الذين تصدوا لظاهرة التغريب المعماري واستيراد الفكر المعماري في القرن العشرين هو شيخ المعماريين العرب حسن فتحي الذي يعتبر رائد إحياء التراث المعماري المحلي للعمارة الشعبية في مصر.

وقد يرى البعض أن عمارة حسن فتحي للفقراء لم تكن ناجحة بالوجه الأمثل بسبب تغير طريقة تفكير الناس نحو حبِّ المظاهر، فقد واجه المعماري حسن فتحي في مصر، عند تنفيذ إسكان قرية «القرنة» التي صممها، خيبة أمل من مستخدمي تلك المساكن حيث هجرها أهلها وذلك لأسباب نفسية، إذ رأى الساكنون أن اشكال تلك العمارة تذكرهم بعمارة المقابر المنتشرة هناك آنذاك وقام البعض بطلائها بألوان عصرية وإحداث تغييرات جذرية فيها، علماً بأن تلك المساكن كانت تراعي الجوانب البيئية والاقتصادية على أكمل وجه. ولكن كان للعامل النفسي الدور الأهم حيث هجرت المساكن. ولكن بعد ذلك أدرك المجتمع المصري والعربي عموما أهمية تلك التصاميم المعمارية وفعاليتها وانسجامها مع البيئة المحلية.

كما شهدت العمارة العربية المعاصرة خلال العشرين عاماً الماضية

نشاطاً واضحاً في مجال التعليم المعماري، حيث ظهر العديد من المؤسسات والجمعيات التي اهتمت بالعمارة والعمران. ومن أبرز تلك المؤسسات: جائزة الآغاخان للعمارة الإسلامية والدوريات المعمارية الشهرية والعديد من المسابقات المعمارية مثل مسابقة المسكن الميسر وغيرها كثير من المسابقات التي أقيمت وتقام بشكل دوري، دون أن ننسى جائزة منظمة المدن العربية والتي تقام كلَّ ثلاث سنوات.

-اللهث وراء الشكل وعدم الاهتمام بالمضمون:

إن ارتباط الذاكرة الصورية البشرية لدى المعماري بالموروث المعماري المعاصر ومحاولة إلغاء الماضي بحجة أنه جزء من التاريخ قد يكون أحد أسباب فرض المعاصرة، وقد يكون تجاهل رومانسية الأصالة المعمارية الماضية وعدم الاستفادة من تراكم الخبرات من الأسباب وراء بزوغ تلك الاتجاهات المعمارية الحديثة التي لم تحاول، في معظمها، سد النقص الملحوظ في النظريات التي سبقتها كما أشرنا إلى ذلك. ومع كل هذا الصخب المعماري الحديث من نظريات واتجاهات معمارية حديثة من خلال تطرقنا إلى شرح المدارس المعمارية، لم تزل العمارة العربية الإسلامية تحتفظ بأسمى وأروع الأشكال الهندسية التي تجاوزت الصورة المرئية إلى اختراق الجدار الروحي حيث ارتبطت تلك العمارة بتمثل قيم الفكر الإسلامي واقتباس المعاني الدينية، فعلى بساطة تلك الأشكال المعمارية إلا أنها متناغمة مع البنية واقتصادية وملبية للوظيفة.ونلاحظ أن العمارة الإسلامية مليئة بالخبرات والتجارب الناجحة ومن الممكن تطويرها للوصول إلى عمارة حديثة، ففيها كل مقومات العمارة الحديثة الناجحة وعناصرها، بالإضافة إلى توفر الجانب الروحي متمثلا في امتزاج الثقافة الإسلامية بالبناء من خلال تلاحم المسلم مع بيئته وشعوره بالانتماء إلى محيطه. وحتى على المستوى الفردي نجد أن الشكل المعماري يوجه

المستخدم والساكن نحو سلوك معين ويفرض عليه سلوكيات معينة تحترم المتطلبات الشرعية من احترام حقوق الجوار ومن فصل الفراغات الداخلية لذلك فإن العمارة الإسلامية جديرة بالدراسة والتطوير لما لها من قابلية ذاتية مرنة،والوصول إلى عمارة فعالة بعيدة عن مظاهر الأشكال الجديدة و«الموضة» التي سرعان ما تتغير بسبب استنفاذ تلك الأشكال لجاذبيتها والبحث عن أشكال أخرى بدون هدف منطقي واضح.

(لاحظ في الشكل (١-١٨) كيف أن العمارة الإسلامية استخدمت حتى الكتابات والآيات القرآنية في البناء مما يعزز المضمون للشكل).



شكل(١-١٨) : استخدام الآيات القرآنية في العمارة الاسلامية،
المصدر : المجلة المعمارية العربية الالكترونية، العدد السادس ٢٠١١ م، الزخرفة الإسلامية والخط العربي.

-التباس المفاهيم المعمارية:

التبس على كثير من المعماريين مفاهيم تجديدية في العمارة، الأمر الذي جعلهم يتغاضون عن فكرة التجديد المعماري والاكتفاء بنقل الموروث الماضي والصور الذهنية الماضية إلى حياتنا المعاصرة دون معالجات يقتضيها تغيير السياق الاجتماعي والاقتصادي. ومن بين تلك المفاهيم الخاطئة:

أولا : التجديد لا يستلزم تطوير الموروث :

يظن البعض أن مفهوم التجديد في العمارة ارتبط بنسف الماضي بكل مقوماته وإحلال كل ماهو جديد غثا كان أو سمينا، ولكن من المفترض أن لايتمَّ التجديد إلا بالتعاطي مع الموروثات المعمارية السابقة حيث تزخر تلك التصاميم بالتجارب التي كانت نتاج خبرات وسنوات من العمل وتلاقح بين الأمم والحضارات حتى بلغت التصميم المتحقق، وإلا سوف يكون العمل ترميماً وليس تجديداً. ويمثل المعماري حسن فتحي في مقارباته التصميمية هذا الاسلوب ويتبناه حيث اشتهرت مباني الريف المصري التي صممت من قبله باستلهام الموروث المعماري وتأصيله، إذ استخدمت مواد البناء المحلية مثل الطين، و كانت جرأة المعماري واضحة في وقت ازدهرت فيه صناعة البناء مع مالها من إيجابيات وسلبيات،فكأنه أراد أن يرينا أن مادة الطين هي أفضل مادة بناء في دول العالم العربي الصحراوية لما لها من خصائص بيئية، ولما توفره من راحة للإنسان (Human Comfort) وكأنه أراد أن يوضح بأن جدران الطين مصنوعة من نفس المادة التي صنع منها الجسم البشري لذلك يتكيف الإنسان مع هذه المادة روحياً وجسدياً، وأذكر أنني شاهدت أحد البرامج الوثائقية حيث كان التقرير حول البناء بالطين في مدينة «شبام» باليمن، وتحدث أحد سكان المدينة قائلاً إنَّ لديه بيتين أحدهما من الطين والآخر من الخرسانة المسلحة وأنه يجد نفسه منسجمة مع البيت الطيني وعندما يذهب إلى البيت المبني بالخرسانة المسلحة فإنه يحس بالوهن في جسمه ويحس بحرارة الجو. وقد أكد كلام هذا الساكن معظم الذين كانوا يتحدثون معه، الأمر الذي يؤكد أهمية البناء بالطين. ومع ذلك فإن حسن فتحي يصرُّ على التحديث والأصالة، ويرفض نقل الماضي بكل صورة دون معالجات كما أنه يرى ضرورة ارتباط العمارة ببيئية الإنسان، فقد كان يقول: انظر تحت قدميك ثم قم ببناء بيتك بمعنى أن نبني من بيئتنا، فالإنسان ابن بيئته. (انظر الشكل (١-١٩) لبعض المعالجات البيئية لحسن فتحي).



الشكل (١-١٩) بعض المعالجات البيئية لحسن فتحي. المصدر : موقع العمارة المصرية أون لاين على الانترنت – مشاريع حسن فتحي.

ثانيا : التجديد المعماري هو تجديد في الشكل فقط :

يعتمد الكثير من المعماريين بأن التجديد المعماري هو تجديد في الأشكال المعمارية والكتل الخارجية للمباني دون المساس بالمضمون. وقد أشرنا إلى هذه النقطة في الموضوع السابق، حيث شاع لدى البعض فكرة الإيحاء الخارجي لشكل المبنى مع عدم إعتبار لبعض الأمور المهمة التي قد تتغير نتيجة عمل ذلك الشكل. ولعلنا نلاحظ ذلك من خلال بناء مبان عالية الارتفاع (High Rise Buildings) في مناطق ذات مساحات شاسعة للأراضي كالمناطق الصحراوية مثل دول الخليج العربي في حين كان بالإمكان تصميم مبنى يحتوي على نفس الفراغات المعمارية، ولكن بشكل أفقي الأمر الذي يخفض التكلفة بشكل كبير.

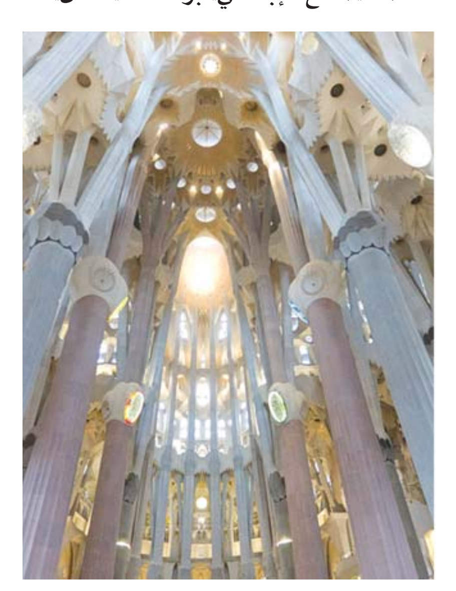
فالمعماري هنا يقوم بدور جراح التجميل الذي يحسن من الصورة

الخارجية لشكل الإنسان دون المساس بالجمال الداخلي للإنسان. و نحن بأمس الحاجة في وقتنا الحاضر إلى عمارة قابلة للتجديد بشكل عفوي وتلقائي ومعروف مسبقاً مثل نظرية الميتابوليزم في اليابان التي استلهمت فكرتها من تطور الخلية الحيوية ونموها. وباعتقادي، فإن الوصول إلى هذا المنهج يتطلب تعاوناً وجهوداً من معماريين وغير معماريين لوضع أيدلوجيات ونظريات تناقش الشكل المعماري.

وفي بعض الأحيان، يستدعي الوضع أن يطلب من الشكل المعماري بأن يؤثر على الإنسان بإعطائه انطباعاً معيناً بعمل مؤثرات بصرية لأهداف اجتماعية أو سياسية أو دينية، وهنا تتغير الفكرة بتغير الهدف. (انظر الشكل (١-٢٠) والشكل (١-٢١) لكاتدرائية ساجرادا فاميليا La Sagrada Familia) في برشلونه للمعماري أنتوني جاودي (Gaudi) حيث اعتمد المعماري على الإيحاء الخارجي على حساب العناصر المعمارية الأخرى.



شكل(١-٢٠) : كاتدرائية ساجرادا فاميليا في برشلونه، المصدر : ويكيبيديا، الموسوعة الحرة على الانترنت، هذه الصورة مرخصة للاستخدام الحر من خلال منظمة «المشاع الإبداعي» بواسطة «كنعان».



شكل(١-٢١) : كاتدرائية ساجرادا فاميليا من الداخل، المصدر : ويكيبيديا، الموسوعة الحرة على الانترنت، هذه الصورة مرخصة للاستخدام الحر من خلال منظمة «المشاع الإبداعي» بواسطة «تيم بري».

ثالثا : العمارة الإسلامية هي قبب وأقواس:

يعتقد الكثير من الناس بأن العمارة الإسلامية هي عمارة تحتوي على قبب وأقواس وزخارف ونقوش إسلامية وهذا اعتقاد خاطئ حيث أن العمارة الإسلامية هي منظومة بيئية متكاملة تتناغم مع المتطلبات البدنية والروحية للساكنين ابتداء من الوحدة السكنية وانتهاء بالمجاورة السكنية للحي. فنلاحظ في الوحدة السكنية أن العمارة الإسلامية راعت جوانب الخصوصية الفردية للساكن والزائر، فهي تحجب الرؤية المباشرة للساكن عن الجار لتوفير الخصوصية، كما أنها تتدرج في الخصوصية بمستويات مثل الحرملك والليوان والفناء الداخلي وغرفة استقبال الضيوف ليتمتع الساكن والزائر «الضيف «بالخصوصية والطمأنينة.

ولا يقتصر الوضع على الخصوصية الفردية داخل الوحدة السكنية بل يمتد ذلك المنهج إلى المجاورة السكنية (الحي) من خلال توجيه الفراغات الرئيسية في الحي إلى نقاط تركيز مهمة (Focal points) مثل المسجد والسوق، وبذلك تتحكم العمارة الإسلامية في السلوك الإنساني بالإضافة إلى وجود الكثير من معايير العمارة في المجتمعات الإسلامية والتي سنتكلم عنها بالتفصيل في الفصل الثالث. ولعل نظرة واحدة في كتاب «عمارة الأرض في الإسلام» للدكتور جميل عبد القادر أكبر [٨] تكفي لتوضيح المنهج الإسلامي في العمارة والعمران.

رابعا : تفضيل العولمة المعمارية على العمارة المحلية :

يعتقد البعض أن البناء باسلوب العمارة العالمية هو أفضل من البناء بأسلوب العمارة المحلية، فهؤلاء ينظرون من خلال منظار واحد فقط وزاوية ضيقة وهو توفر التقنية فيها وإغفال كثير من الجوانب الإيجابية في العمارة المحلية. فهي مناسبة لبيئاتنا المحلية التي ولدت فيها، فكل موقع له ميزاته وخصائصه، ولا يمكن أن نحلَّ العمارة العالمية محلها. ومثلها كمثل من

يفضل اللباس الإفرنجي على أن يرتدي الثوب والغترة في بيئة عربية، أو مثل من يهجنها كأن يلبس الكرفته فوق الثوب والغترة.

كما أنه من غير المحبذ لمعماري غربي أن يقوم بتصميم مبان في البلدان العربية أو الاسلامية حيث يعارض الكثيرون أن يقوم آخر بنشر ثقافة غربية في بلدان عربية كما لو قام أحدهم بتصميم «المبولة» في دورات المياه بسبب كراهة البول واقفا في تعاليم الإسلام أو يوجه دورات المياه إلى القبلة أو يصمم فيلا دون أن يراعي عوامل الخصوصية للساكنين من الجيران والزوار.

ولو أخذنا أحد أشهر المباني التي صممها المعماري «لوكوربوزيه» مثل منازل الدومينو نجد أن الفكرة تقوم على تصميم مسقط مفتوح وزجاج شفاف كجدران خارجية بطول الجدار وهنا تنعدم الخصوصية الفردية علماً بأنها كانت من الأفكار الرائدة آنذاك ولكنها لا تتناسب والثقافة العربية الإسلامية. كما أن ذلك لا يعني أن نتخلى عن التقنية في البناء، وإنما نأخذ بأفضلها مع مراعاة المعالجات المحلية للعمارة.

خامسا : التقنية تحل محل الطاقات الطبيعية في المباني :

يعتقد كثير من المعماريين أنه بإمكان تصميم المباني من مواد بناء لا تتماشى مع البيئة مثل استخدام الزجاج في واجهات المباني عالية الإرتفاع في بيئتنا الصحراوية، ويذهبون إلى أنه بالإمكان تفادي الحرارة الناجمة عن استخدام الزجاج والإشعاع الناتج عنه باستخدام نظام تكييف عالي الجودة.

وهذا خطأ شائع،إذ يجب على المعماري أن يصمم المباني بطريقة تتماشى مع البيئة ويستفيد من الطاقات الطبيعية لتوظيفها داخل المباني حيث السؤال المنطقي هنا هو: لماذا يقوم المعماري بعمل المشكلة «الزجاج في الواجهات كمثال» ثم يحاول أن يجد حلاً لهذه المشكلة من خلال عمل

التكييف وتركيب ستائر بتقنية معينة. لذلك، فإنه من الأفضل تحاشي المشكلة من الأساس.

ثم يجب ألا ننسى أن تلك التصاميم المستوردة أثبتت نجاحها في الدول التي صممت فيها، فالجو البارد يختلف عن الحار الجاف وعن الرطب وعن الممطر وهكذا.

إقحام الدراسات السلوكية والاجتماعية مع تأثير البيئة المبنية:

يقع على عاتق البلديات دور كبير في معالجة وتصحيح السلوك الإنساني وتفادي المشاكل قبل حدوثها، من خلال التنبؤ ووضع خطط خمسيه وخطط بعيدة المدى ليكون هناك تصور واضح لما سيكون عليه شكل المدينة في المستقبل ومدى تأثيره على الوظائف الأساسية للسكان في تلك الاحياء.

ولعلنا نلاحظ بشكل دائم قيام السكان في المدن الكبيرة بالهروب من السكن في داخل الأحياء المركزية للمدينة إلى السكن في أطراف المدينة، بسبب التغير الديموغرافي وإحلال العمالة الوافدة للسكن في تلك المناطق بسبب وجود المحلات التجارية والمجمعات، مما أدى إلى اختراق للخصوصية من خلال وجود سيارات الزبائن للمحلات التجارية بالقرب من الفلل والمساكن الشخصية، الأمر الذي أدى إلى حدوث إزعاج وقلق. تماماً كما حصل في حي البطحاء في مدينة الرياض، وهو ما يشعر الزائر لهذا الحي بوجود الاختناقات المرورية وازدياد عدد العمالة الوافدة وما يسببه من اختلاط الثقافة من مأكل و ملبس وعادات تؤثر على الساكنين في ذلك الحي.

وقد أحسَّ المسؤولون بنفس المشكلة في جمهورية مصر العربية بعد أن تعرض وسط القاهرة لترهل من الصعب جدا معالجته، فسعوا إلى حل المشكلة من خلال بناء مراكز مدن فرعية ومجاورات سكنية بعيدة عن المدينة ومحيطة بها ، مثل مدينة «٦ أكتوبر» وغيرها كثير.

إن العمارة الحديثة لديها القدرة على توفير العزلة الاجتماعية لفئات معينة من السكان بسبب عدم دراسة التركيبة الديموغرافية للساكنين من الناحية الاجتماعية، ولا ننسى أنه مطلوب من العمارة والبيئة المبنية أن تحدَّ من السلوكيات السيئة للساكنين وتوجه إلى سلوكيات حسنة. وأذكر هنا قصة واقعية تدلل على ما ذكرت، فقد تبرع أحد رجال الاعمال بتكلفة إنشاء مجمع سكني لذوي الدخل المحدود والفقراء. وتمَّ عرض المشروع على لجنة علمية ومعمارية لدراسته وإبداء الرأي، وقد رفضت فكرة إنشاء المجمع ومعارضتها بشدة !! ولكن لماذا ياترى ؟

لقد أبدت اللجنة سبب اعتراضها على تلك الفكرة بقولها إننا بذلك نقوم بإيجاد تجمع بشري من طبقة فقيرة قد يساعد ذلك على انتشار المخدرات والرذيلة في حين أنه بالإمكان توفير السكن لهم من خلال دمجهم مع المجتمع، بحيث يذوبون مع المجتمع ولا يعرفهم أحد تماماً كما هو حال الفقراء المتعففين.

وبالتالي نكون قد استخدمنا العمارة في توجيه سلوكيات الناس وعدم وضعهم في عزلة طبقية وفقاعة اجتماعية. وقد استمدت هذه القيم من القيم الإسلامية ونظرة الإسلام إلى الفرد والمجتمع. لذلك بإمكاننا أن نضيف هذه النقاط إلى رصيد العمارة الإسلامية التي هي ليست قباباً وأقواسا، وإنما هي عمارة تستمد هويتها من القيم الإسلامية الراقية.

ما بعد الحداثة وهوية العمارة المحلية:

في بداية حديثنا عن الهوية المعمارية هناك العديد من التساؤلات التي سنحاول إثارتها حتى نتمكن من الوصول إلى أجوبة تقودنا إلى تحديد معنى الهوية المعمارية والتساؤلات هي:

ماهو مفهوم الهوية ؟ وهل الهوية ثابتة أم متحولة؟ وهل عاطفة الانتماء إلى هوية هي عاطفة شكلية أم ضمنية؟

قام عالم النفس «اريك اريكسون» ١٩٣٣م بدور مهم في نشر هذه الكلمة وتوظيفها في مجالات العلوم الإنسانية، حيث يعتبر هو صاحب مفهوم الهوية، وقد أنجز العديد من الدراسات حول العنصرية والأقليات العرقية والانتماء للمجتمعات، وبعد ذلك انتشر هذا المفهوم ليدخل في مجالات كثيرة منها مجال العمارة والبيئة المبنية.

وترى «كاترين» أن الهوية تبدو في المعرفة العادية وكأنها عبارة عن ماهية مستقلة أو معطى أولي، وهذا بالضبط ما تنكره البحوث الاجتماعية أكثر فأكثر والتي تؤكد جميعا على أن الهوية هي في الحقيقة نتاج تركيب معين.

كما ترى أيضا بأن الهوية يمكن أن تعدُّ ضمن المفاهيم التي ليس لها تاريخ، حيث تعتبر الهوية بمثابة كلمة مجردة يرجع استعمالها إلى الأصول الأولى للفكر. حيث إنَّ الفلاسفة ماقبل سقراط مثل «بارميندس» و «هراقليطس» كانوا دائماً محتارين حول مسألة مفهوم الذات، وكيف يمكن التوفيق بين التغير والهوية؟

وتذهب الباحثة إلى أن الإشكالية المعاصرة لمفهوم الهوية لا تعود في أصلها إلى التراث الميتافيزيقي، إذ بعد أكثر من عشرين قرناً تحددت المسألة حيث بدأت تقترب بما يشغل العلوم الإنسانية والاجتماعية حاليا، وذلك بفضل الطريقة التي بها الفلاسفة مشكلة الهوية الشخصية : كيف يمكن التفكير في وحدة الأنا في الزمان ؟ هل أنا الشخص نفسه الذي قبل عشرين سنة؟ هذا بالنسبة لمفهوم الهوية في العلاقات الإنسانية [٩]. وفي مجال العمارة يشير «النعيم» إلى أن الهوية في جوهرها تعبر عن علاقات ا

حتمالية بين الشكل والمعنى، وهذه العلاقات غالباً ما تتحول مع مرور الزمن وتغير الظروف المحيطة وهي أيضا تترك مجالاً واسعاً لا محدودا من الأسئلة المفتوحة التي غالبا ما تقود إلى تفسير جديد للبيئة والشكل المعماريين رغم بقاء الشكل بصرياً كما هو في بعض الحالات. ويستطرد

الباحث قائلاً: إنّ الطابع الاجتماعي للهوية لا يؤدي إلى تقديم جواب قاطع، حتى وإن كان الطابع البصري يوحي ببعض الثبات، ذلك أنه في ذاته مجال لصراع التناقضات الدلالية، هكذا لا تولد الهوية إلا مزيداً من الأسئلة وهذا ما يجعلها من الناحية المعرفية عامل قلق وإقلاق، لا عامل وثوق وطمأنينة، ولعل هذا يفسر غموض «الهوية» كمصطلح، لكونها فكرة تحتاج إلى تعريف محلي وزمني، أي إن تعريف الهوية يجب أن يخضع لظروف المكان والزمان وهذا ما يجعل تعريفه ذا طبيعة متغيرة كما يجب أن يخضع البعد اللامرئي للهوية إلى النقد والدراسة (١٠). ويستأنس الباحث برأي «ملينوفسكي» حيث يرى أن ما نخططه ونبنيه الآن سيشكل عمارة المستقبل، وقد يكون أمراً طبيعياً أن تسعى الجماعات البشرية إلى المحافظة على هويتها وكينونتها عن طريق إعادة إنتاج الصور المخزنة في أذهان أفرادها والتي تعبر عن خبرتهم المشتركة السابقة التي لابد لخيوط التقاليد من دور في صنعها. هذه الظاهره تجعل الهوية في حالة تشكل مستمر وتتجاوز المفهوم الذي يزعم إمكانية صنع الهوية العمرانية إلى التأكيد على أن هذه الهوية العمرانية جزء من الهوية الثقافية لمجتمع من المجتمعات وصناعتها لا يمكن أن تحدث إلا من خلال تفاعل جماعي تاريخي تتداخل فيه كثير من العوامل التي لايمكن حصرها. وبهذا تصبح الهوية نتيجة لهذا التفاعل لا موجهاً له. إن مسألة صناعة الهوية هي مسألة وقتية، أي إن الهوية ظاهرة تتشكل باستمرار، وفي كل وقت هناك درجة من الهوية تختلف عن سابقتها ولاحقتها. لذلك تختلف الهوية المعمارية وتتعدد باختلاف الثقافات والموروثات الاجتماعية والمعتقدات الدينية والتي تميز تلك المجتمعات عن بعضها البعض، وتتغير بتغير الزمن والعوامل الدخيلة على الثقافات والمؤثرات الأخرى(١١).

وبنوع من المقاربة والتسديد، نستطيع أن نعرف الهوية المعمارية هنا، ومن خلال القراءات السابقة، بأنها هي: انعكاس لتراكم ثقافي معين في مكان ثابت وزمان متغير، يتبدل حسب المعطيات الجديدة باستمرار. ويمثل ذلك التراكم الثقافي التجاوب البيئي والمعتقد الديني والعادات الاجتماعية

والطراز أو الموضة. كما أن ذاكرة المكان تمثل المخزون الحضاري الذي لا يجب تجاهله والذي يتميز به عن باقي الأمكنة مما يعطيه الانتماء الخاص بالمحيط العمراني . وعند تقييمنا لهوية مبنى ما أو تشييد معماري لم يتأثر بإفرازات التيارات العالمية وظل محافظاً على محليته، فإننا نلاحظ أن هويته مقتبسة من الروافد الآتية:

أولا : الاقتباس من البيئة:

وقد نلاحظ ذلك في العمارة التقليدية والتي لم تتعرض بعد لإفرازات الثقافة والهيمنة الغربية على الفكر المحلي، حيث تتشكل بنية المبنى وهيئته من تأثير البيئة المحلية فيتمُّ استخدام مواد بناء متجاوبة ومتناغمة مع البيئة ومأخوذة منها. (انظر الشكل (١-٢٢) بيت طيني في منطقة سوق الغنان في شمال اليمن)، ونلاحظ استخدام مادة البناء المحلية «الطين» بالإضافة إلى استخدام بعض التقنيات لمقاومة حرارة الشمس وذلك من خلال عمل نوافذ صغيرة لا تسمح بدخول حرارة الشمس إلى الداخل بشكل غير مرغوب فيه.

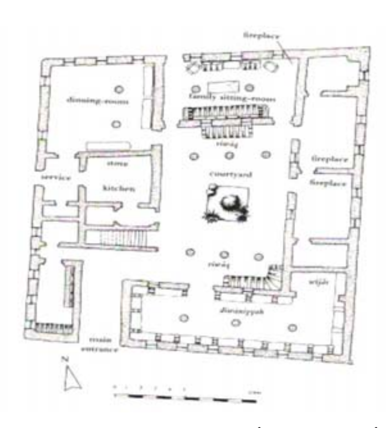


شكل(١-٢٢) : مساكن تقليدية في شمال اليمن. المصدر : كتاب الرجوع للأرض لويليام فاسي

ومن النماذج في هذا الاتجاه بيت من الطين يقع في مدينة عنيزة بالمملكة العربية السعودية، ويلاحظ هنا المعالجة البيئية أيضا، فالشبابيك أيضا ضيقة وطولية لحجب أشعة الشمس المباشرة في حين نلاحظ في المسقط الداخلي للمنزل احتواءه على الفناء الداخلي الذي يسمح بخروج الهواء الحار للخارج ويدخل نسيم الهواء للداخل وغالباً ما يحتوي الفناء الداخلي على حديقة داخلية وأشجار توفر الظل. (انظر الشكل (١-٢٣) والشكل (١-٢٤)).



شكل(١-٢٣) : مبنى طيني في مدينة عنيزه بالمملكة العربية السعودية. المصدر : كتاب الرجوع للأرض لويليام فاسي.



شكل(١-٢٤): مسقط أفقي للدور الأرضي للمنزل المذكور. المصدر: نفس المصدر السابق.

وفي «فيلا» بمدينة جدة غرب المملكة، استخدمت الأحجار المرجانية المأخوذة من ساحل البحر الأحمر في الواجهات لوقوع مدينة جدة على البحر الأحمر، وقد صمم الفيلا المعماري حسن فتحي الذي عرف بمنهج الاستفادة من البيئة والطاقات الطبيعية والبناء بالطين في البيئات الصحراوية.



شكل(١-٢٥) : فيلا في مدينة جده – حسن فتحي. المصدر : كتاب الرجوع إلى الأرض لويليام فاسي.

ثانيا: التوافق مع المعتقدات والتعاليم الدينية :

وغالبا ما تقتبس الهوية المحلية للعمارة أنماطها وأشكالها من خلال التأثر بالمعتقدات والتعاليم الدينية. فنجد التأثر بذلك واضحاً في البلدان التي تدين بالإسلام العظيم، من خلال وجود دور العبادة في مراكز المدن ومراكز الحارات وأماكن التجمعات لإقامة الصلوات والفروض الواجبة، ونلاحظ أيضاً انعكاس ذلك التأثر بقيم الدين في الوحدات السكنية حيث يلاحظ مستوى الخصوصية العالي وكذلك وجود الترابط بين الجيران في البنايات القديمة ذات النهاية المسدودة (Cul de Sac) والتي مع الأسف بدأت تتغير وتتحول إلى النظام الشبكي.

ولعل مجهودات الهيئة الملكية بالجبيل وينبع واضحة في مجال استخدام الحارات المغلقة والشوارع ذات النهاية المسدودة واستخدام عناصر معمارية محلية ضمن أرقى معايير البناء الحديث، وذلك في مدينتي الجبيل وينبع الصناعيتين.

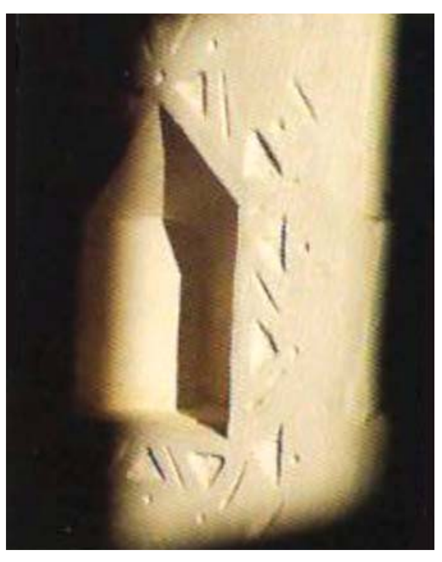
في حين نلاحظ في دول ذات توجه توجه علماني انتشار دور القمار والمراقص .. الخ، مما يعكس التوجه العام لتلك المجتمعات. فكل بيئة مبنية تعكس المعتقدات والتعاليم الدينية التي تدين بها تلك المجتمعات.

وقد نتج عن تطبيق هذا المبدأ عند المسلمين أن اكتسبت العمارة بساطة ملحوظة وخاصة في المظهر الخارجي.

و ينطبق الحال نفسه على باقي الديانات حيث أن الهوية المميزة لتلك العمارة كانت متوافقة مع معتقداتها وتعاليمها السماوية. وقد نلاحظ ذلك في عمارة الكنائس والأديرة في روما في عصر النهضة وما قبله، وكذلك الحال أيضاً في عمارة المعابد البوذية في الشرق وما تحمله من رموز ودلالات ترتبط بالمعتقدات الشائعة هنالك وبذلك تتكون هوية العمارة وتتشكل.

ثالثا: الارتباط بالثقافة المحلية :

تنعكس الهوية المعمارية للمبنى عبر ارتباط العمارة بالثقافة المحلية من خلال تطبيق مبادئ التراث المحلي وقيمه وباستخدام بعض المفردات التقليدية، وبالتعبير عن العادات السائدة هناك. انظر الشكل (١-٢٦) والشكل (١-٢٧) حيث مكان أباريق الشاي والقهوة «الوجار» وما يقدم للضيف في مجلس الرجال أو مايسمى بـ «الديوانية» وكذلك المدخنة التي تستخدم للتدفئة في منطقة نجد وسط المملكة العربية السعودية.

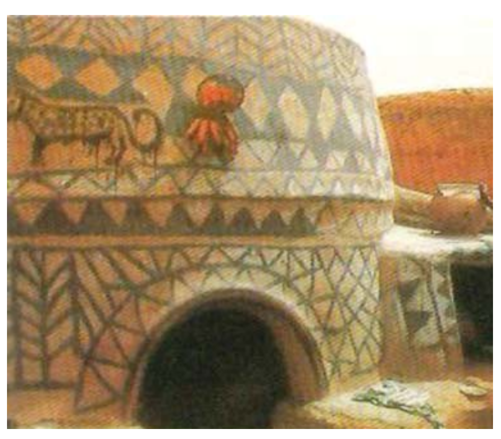


شكل(١-٢٦) : تفريزات داخل الجدار تستخدم لوضع ادوات الوجار. المصدر : كتاب الرجوع للأرض لويليام فاسي.



شكل(١-٢٧) : الوجار أو الموقد داخل مجلس الرجال ويعبر عن الثقافة المحلية بالمملكة العربية السعودية. المصدر : نفس المصدر السابق.

كما أن الثقافة تنعكس على عمارة بعض الشعوب على الجدران الداخلية والخارجية من خلال عمل رسومات ونقوش لها دلالات تراثية ومعتقدات. لاحظ الشكل (١-٢٨) مثل البيت المبني بالطين في «بوركينافاسو» بأفريقيا حيث يلاحظ الزخارف الخارجية وأشكال الحيوانات التي تعبر عن وجودها بتلك البيئة.



شكل (١-٢٨) : بيت مبني بالطين في بوركينافاسو. المصدر : كتاب العمارة البيئية لمحيي الدين سلقيني.

دور المجتمع في صياغة التصميم المعماري والعمراني :

إن العمارة والعمران نتاج اجتماعي مشترك وكسب مجتمع ساعد في تكوين العمارة وتشكيلها. ويعرف مسعود ضاهر العمران بأنه فن وتعبير عن عاطفة بشرية، والتفاعل معه يتمُّ عن طريق إسقاط العواطف الإنسانية على العمارة بهدف التمتع أو الإحساس الوجداني بها، وهي جسم مادي تم تشكيله نتيجة التفاعل الخلاق بين الفكر والمادة. لكنها في جوهرها تلبي حاجات الإنسان.

وأشار ضاهر إلى أن العمارة ظاهرة اجتماعية تحتاج إلى فهم معمق للمقولات الجمالية دائمة التطور، وبالتالي لا يجوز تفسيرها بالأوضاع

الاقتصادية بصورة ميكانيكية، دون إعطاء الإرادة البشرية لدى الأفراد والجماعات، ومعها الإرادة الحية والفاعلة في المجتمع – الدور الأساسي في قيام ما أسماه ابن خلدون (علم العمران الحضري)، في مواجهة البداوة المترحلة، التي يغلب عليها طابع الخشونة والتوحش وعدم الاهتمام بالعمران، وتهديم ماهو موجود منه.

ويتمثل دور المجتمع في تكوين البيئة المبنية بالمشاركة في اتخاذ القرارات ووضع المنتج المعماري بعيداً عن الانعزالية.

ويشير «حداد» إلى أن المعماري «ميزفان ديرو» وضع المخطط العام لمشروع «القرية النموذجية» حيث أعطى كل معماري مهمة تصميم منزل من طابقين على أحد المواقع في المشروع، ضمن شروط محددة ومنها التزام العمارة الحداثية والطلاء الأبيض وعدم استعمال المواد التقليدية أو سقف القرميد حيث أصبح المشروع مشابها للمساكن في البيئات العربية – الأمر الذي أدى إلى امتعاض البعض من ذلك التصميم، فقاموا برسم قافلة من الجمال العربية حول التصاميم في إشارة منهم إلى مشابهة تلك التصاميم للبيئات العربية الدخيلة عليهم. كان رد الفعل قويا على هذا الطرح الجديد للسكن الاجتماعي نظراً إلى منحاه الأيدلوجي وتأثيره على طريقة العيش ومنها على مسألة الهوية الألمانية، فتبارى المحافظون من المعماريين والصحافيين والنقاد إلى مهاجمة هذا المشروع ووصفه بالمستورد أو الغريب عن الواقع الألماني.

لذلك كانت المعارضة قاسية لميزفان ديرو بسبب عدم مشاركة المجتمع في التصميم أو حتى الاستئناس بالرأي الآخر، مما أدى إلى إلغاء الفكرة بالكامل [١٢].

إن من مهام المشاركة الجماعية في اتخاذ القرار المعماري الحفاظ على رونق الذوق العام وجماله، وإعطاء المدينة هويتها الخاصة بها.

وقد تثار إشكالية معمارية في مجتمع ذي تركيبة ديموغرافية عرقية أو مذهبية مختلفة ومتعددة حيث من الصعب التوفيق بين تلك الثقافات في تحديد الهوية العمرانية لتلك المدينة. وهل مشاركة المجتمع في صياغة التصميم المعماري والعمراني تعتبر، في هذه الحال، ضرورية أم لا؟

إن دراسة وافية اجتماعية وعمرانية لتلك المدينة مطلب ضروري للبدء في وضع التصور المبدئي للشكل المعماري والهيئة العامة للبناء، مع ضرورة تحديد حدود ومجال الحرية الفردية للساكنين بان يعبروا عن ما بداخلهم وفق حدود ومنهج محدد لا يتجاوز الرؤية العامة للمجاورة السكنية. حيث تكون مسؤولية تحديد الهوية العمرانية بعد ذلك للجهات المختصة والتي تراعي المصلحة العامة.

ونلاحظ في الفكر المعماري الإسلامي توضيح حدود الساكن ومسئولياته بشكل فردي وحدود الجوار والمحيط وتوضيح المسؤوليات العامة للحي السكني والمدينة بشكل عام، كما اشرنا سابقاً. (راجع كتاب عمارة الأرض في الإسلام للدكتور جميل عبد القادر أكبر).

وأشار «ثويني» إلى دور المجتمع في صياغة التصميم المعماري من خلال مفهوم «العمارة بلا معماريين» وأطلق عليه اسم «العمارة الفطرية» (Vernacular Architecture)، وقد انتشرت هذه الظاهرة في العديد من دول العالم الثالث كنتيجة لتداخل الإنسان مع بيئته والتصاقه بها [١٣].

وتعتبر المجالس البلدية إحدى مظاهر المشاركة الجماعية في صياغة التصميم المعماري والعمراني، والتي يجب أن تكون قريبة من أماكن اتخاذ القرار في البلديات والأمانات، ويوضح «النعيم» تجربته الشخصية في مجال النقد التخطيطي عندما كان مستشاراً لإحدى أمانات المناطق في المملكة: كنت مستشاراً لإحدى أمانات المناطق في المملكة وكان عملي ينصب على «نقد المخطط الهيكلي «ضمن هيئة استشارية عملنا فيها طيلة ثلاثة أعوام

وتوصلنا فيها إلى أن أحد أهم أسس النقد التخطيطي هو مشاركة المجتمع بقطاعاته المختلفة في اتخاذ القرارات التخطيطية فالناس أقرب لمشاكلهم من أي مخطط واستشارة هؤلاء الناس تجعل من القرار التخطيطي أقرب للواقع وأكثر ملاءمة لحاجة الناس بحيث يكون تغيير الواقع الذي يجب أن يسعى له المخطط الهيكلي من خلال ضبطه للتنمية المستقبلية مطمئناً ولا يحدث ردود فعل عكسية، واتفقنا على إجراء مجموعة من ورش العمل ندعو لها قطاعات مختلفة من مجتمع المنطقة إلا أنه بعد أن تغير الأمين وهو غير متخصص في العمران لم يعد لأحد دور وضاعت فكرة «المشاركة المجتمعية»![١٤].

-فساد الذوق العام وتأثيره على العمارة والعمران :

كانت العمارة قبل اكتشاف النفط في منطقة الخليج العربي عمارة تتسم بالتكامل والوحدة وعمارة منسجمة مع متطلبات البيئة والمستخدم، و كان يغلب على تلك المباني الطابع المحلي الناتج من تراكم خبرات ماضية، ولكن بعد عصر الطفرة «عصر اكتشاف النفط «ظهرت الحاجة إلى مشاريع الإسكان العاجل (Instant housing) لإشباع الحاجة المحلية للمواطنين ولإسكانهم ونقلهم من الأرياف والبوادي إلى المدن الكبيرة. ونتيجة لذلك الطلب المتزايد على الإسكان لم تستطع الجهات الحكومية المسؤولة أن تتحكم في جميع ضوابط التصميم والبناء والمراقبة والمتابعة والتنسيق بين شركات المقاولات والمستخدمين. لذلك شهدت تلك الفترة بناء وحدات سكنية ذات طابع مستورد لا يراعي الجوانب البيئية فكانت عبارة عن كتل غير مترابطة وغير منسجمة مع النسيج العمراني، حيث حصلت الارتدادات حول المباني من جميع الجهات، وصممت المجاورة السكنية بطريقة لا تسمح بالتلاقي المباشر للساكنين في الجوار كما هو الحال في الحي بالبيئة التقليدية، بعد ذلك أحسَّ الناس بعدم الانسجام مع البيئة الجديدة، فقاموا برد فعل معاكس، منها الإحساس باختراقها الخصوصية

الفردية من خلال وجود المحلات التجارية والعمارات السكنية إلى جانب الفلل والمساكن الخاصة الأمر الذي جعل أصحاب المساكن يقومون بعمل سواتر حديدية على الشبابيك لمنع الرؤية المباشرة، فانعكس ذلك سلباً على الشكل العام للعمارة والعمران فأصبحت المباني قبيحة وغير منسجمة في اللون والارتفاعات.

وأثناء تلك الفترة، ظهرت الحاجة إلى التمدد الرأسي في مشاريع الإسكان للحد من نمو المدينة بالاتجاه الأفقي وماله من سلبيات. فتمَّ إسكان المواطنين بتلك المباني المختلفة حيث كانت بيئة السكن هناك تماماً عن ما سبق، فلا وجود للفناء الداخلي «الحوش»، ولا اعتبار للخصوصيات الكافية، وغيرها من مميزات البيئة التقليدية.. فالمدخل واحد ويستخدم الساكنون المصاعد في تحميل وتنزيل الأغراض، الأمر الذي يؤدي إلى مضايقات لدى البعض. ونتيجة لذلك، هجر المستخدمون تلك العمائر بحثاً عن إسكان شخصي أفضل من السكن في تلك العمائر كما حصل في مشروع إسكان مدينة الدمام شرق المملكة العربية السعودية.

وظهرت بعد ذلك ظاهرة فتح المحلات التجارية على شوارع سكنية نتيجة لعدم وضع خطة للتنمية، فانتشرت المحلات التجارية بكثرة وبدون مركزية لها الأمر الذي أدى إلى إرباك الحركة المرورية وإزعاج الساكنين الذين يقطنون حول تلك المحلات التجارية، إضافة إلى تشويه المنظر العام.

فانتقلت العمالة إلى تلك الأحياء وسكنت فيها كما حدث في حي البطحاء في مدينة الرياض مما أدى إلى نزوح الساكنين الأصليين من ذلك الحي إلى أحياء أخرى أكثر هدوءاً واستقراراً بسبب تغيير التركيبة السكانية واختلاف الثقافات.

كل ذلك كان بسبب غياب الوعي بالبيئة العمرانية وهبوط الذوق العام.

-الحداثة وما بعد الحداثة بين الرفض والقبول:

إن قيمة كل شعب هو بمقدار ما يحمل من عادات وتقاليد وقيم ثقافية وعقائدية تعتبر حصيلة للتاريخ الثقافي لتلك الشعوب وعلامة تميزها عن باقي دول العالم الآخر، وقد حصل أن بقي العالم الإسلامي متذبذبا بين القيم المادية للحداثة الغربية والقيم الروحية للأصالة الإسلامية، وامتدت موجة التغير الحداثية لتمس العلوم الإنسانية والثقافة والعمارة، الأمر الذي طرح عدة تساؤلات حول قبول الحداثة أو رفضها وبمعنى حديث أيكون النقاش في موضوع الحداثة وما بعد الحداثة حوار حضارات أم صراع حضارات ؟ خصوصاً مع وجود منظرين للحداثة مثل «أرنست رينان» حيث ادعى هو ومن معه أن الإسلام يتعارض مع الحداثة !!

وذلك لأن «أرنست» كان يرى أن العلم الحديث كافٍ لإدارة حياة الإنسان وقادر على تنظيم جميع شؤون الحياة.

لذلك فإن الفلسفة المادية الإلحادية تطغى على الفكر الإسلامي الروحاني في مدرسة الحداثة حسب رأي «أرنست رينان» ويشير «داوري» إلى أن «أرنست رينان» يرى أن الحداثة لا حدود لها ولا قيود وكل شيء فيها مباح وأن الأمر والنهي والحلال والحرام والقدس والكعبة من مخلفات الأديان القديمة !! والمجتمع الحديث في راحة من هذه القيود. كما صرح «ماكس فيبر» أن العالم اكتسى كسوة العقلانية. وليس هناك من أمر له صفة السحرية، كما أن مشكلة «رينان» تكمن في أنه لم يستطع التخلص من سحر العولمة الحديثة، ولم يتمكن من التدبر في الدين في دائرة العقل، بل كان ينظر إلى العالم الجديد بمثابة أن الحداثة هي شريعة في حدّ ذاتها، أو ينبغي أن تتجلى بمظهر الشريعة [١٥].

ويستطرد «داوري» قائلاً لقد كان «نيتشه» مصيباً في قوله إن الإنسان سوف يفقد قدراته في آخر محطة من محطات الحداثة. ولكن هل يمكن

الإعراض عن الحداثة؟ أو عدم الاهتمام بها؟ إن إنسان اليوم لا يسمح له وضعه بتجاهل الحداثة أو إدارة الظهر لها حيث بالإمكان أن يعيش في أجواء الحداثة من دون أن نعتبرها قيمة مطلقة ومعياراً لكل شيء.

ولكن هل إن الخوف من الفلسفة المادية هو الذي أعاق حركة الإبداع العربي في مجال العمارة والعمران ؟

يرى «ضاهر» أن أبرز أسباب إعاقة حركة الإبداع العربي هو تغييب التراث العقلاني العربي، ومعه الثقافة العقلانية، عن الساحة العربية على مدى قرون طويلة مما أسهم في هيمنة ثقافية تقليدية تضعف أحياناً لتعود فتظهر بأشكال أكثر قوة في مرحلة أخرى. كما أن غالبية مثقفي عصر النهضة العربية قد اقتبسوا الكثير من المقولات الغربية دون نقد، لذلك لم تتوالد تيارات ثقافية فاعلة قادرة على صياغة مشروع نهضوي جديد [١٦].

نعود الآن إلى موضوع تقبل الحداثة وما بعد الحداثة في مجال العمارة والعمران حيث تغير السيناريو المعماري المحلي في المقاربات التصميمية التي تأثرت بعمارة عصر الحداثة وما بعد الحداثة والبنيوية وما بعد البنيوية. ومنحت الجوائز العالمية التي تحث وتشجع على تبني تلك الأفكار الحديثة، فمثلاً في مدرسة العمارة التفكيكية يرى المنظِّرون لها أن العمارة قابلة إلى أن تتفكك إلى عناصر أساسية تشكل فيما بعد مباني فنية ذات معانٍ أكثر تعقيدا.

ويشير «خلوصي» إلى أن المؤيدين لتلك المدرسة «التفكيكية» لاحظوا التقدم العلمي الذي تمَّ إحرازه في مجال الكيمياء والفيزياء وتحليل الجزئيات إلى عناصرها «الذرات» وقد شجعت هذه النجاحات علماء النفس على البحث عن العناصر العقلية التي تكونت منها الخبرات الأكثر تعقيدا [١٧]. ولكن هذا لا ينطبق على العمارة والعمران حيث لا يمكن أن نعتبر العمارة لوحة سريالية نطبق عليها أفكار أدبية وفنية. إن العمارة العربية الإسلامية

أسمى من أن تكون سيناريو للسرد المعماري الغامض حيث يؤمن التفكيكيون بالفرضية التي تقول إن ما يبدو واقعاً بالنسبة لنا، إنما هو مشفر وتقليدي، وعمارتنا هي نتاج هويتنا وممارساتنا التي اقتبست من تراكم الخبرات الماضية لذلك لا يمكن أن نقبل بكل الأفكار الحداثية وأيضا لا يمكننا أن نلغيها كلها.

-امتزاج المفاهيم العصرية بالمنتج المعماري:

ومع كل ذلك التجاذب والتنافر مع الحداثة الغربية، إلا أن هناك بعض المفاهيم العصرية امتزجت مع العمارة وأدت إلى انتقالها إلى الحضارة العربية. وهي كالتالي :

أولا : مفهوم العولمة الكونية وتأثيرها في العمارة:

لا يقتصر مفهوم العولمة الكونية على الانفتاح الاقتصادي العالمي فقط، وإنما يمتد ذلك إلى كثير من مجالات الحياة بناء على أن الاقتصاد هو عصب الحياة. ولم يسلم مجال العمارة والبناء من تلك التأثيرات، فبعد تطور العلم الحديث والانفتاح على العالم من خلال «الانترنت» تغيرت مفاهيم كثيرة، سوف نناقش منها ما يخص التأثير على العملية التصميمية من الناحية السلبية والإيجابية :

١- المشاركة في التصميم :

عادة ما يقوم الاستشاري أو المصمم بالاشتراك مع مصمم آخر (Join venture) عندما يكون هناك نقص في التخصصات الموجودة للكوادر الفنية للاستشاري، فيلجأ للبحث عن مشارك لإتمام العمل الموكل إليه، لذلك يتمُّ تبادل الخبرات الفنية والمشورة، وقد قامت بعض المكاتب الهندسية في المملكة العربية السعودية بتحكيم المشاريع دولياً وأذكر قيام أحد المكاتب بالاشتراك في مسابقة عالمية وتمَّ اختياره كأحد المشاركين

في بقية المشاريع في أمريكا وإستراليا وتمَّ تقييم المشاريع من خلال شبكة الانترنت وعلى إحدى البرامج التي تتيح الرؤية المباشرة لكل مشروع، وحكمت جميع المشاريع بتلك الطريقة الحديثة. وهذه تعتبر ناحية إيجابية للتعاطي مع العولمة العصرية.

٢- الخلفية الثقافية للمعماريين:

تتأثر التصاميم المعمارية وتتشكل بفعل الخلفية المعمارية للمصممين وثقافاتهم، لذلك عند التعاقد مع استشاري دولي يقوم الأخير بوضع تصاميمه من خلال ثقافته وبيئته الخاصة به، مما يؤدي إلى مشكلة تغريب الهوية المعمارية وقد لايتمُّ مراعاة التصميم البيئي المناسب بسبب عدم الإلمام بطبيعة بيئة البلد الذي يتمُّ إعداد تلك التصاميم له. وتقفز تلك المشكلة بسبب عدم تلمس حاجات المستخدمين الفعلية كما حصل في كثير من المشاريع التي تم تصميمها في المكاتب وبعيداً عن زيارة موقع البناء ومعرفة الخلفية الثقافية للساكنين مما أدى إلى عزوف الساكنين عن تلك المباني وهجرها.

لذلك، فإنَّ مسألة التصميم المعماري مسألة دقيقة ترتبط بالجانب النفسي للناس وأستطيع أن أقول إن العمارة تتشكل حسب معطيات العصر، وبالتالي يجب أن نتحرى الدقة في مسألة تعاطي العولمة فيما يخص مجال العمارة والعمران بغض النظر عن مسألة التعاون في مجال البناء والتشييد، والذي هو تحصيل حاصل للعملية التصميمية المعقدة.

ثانيا : مفهوم التنمية المستدامة:

تهتمُّ التنمية المستدامة بالبيئة كأساس للتنمية الاقتصادية، حيث إن الموارد الطبيعية هي أساس كل نشاط اقتصادي، لذلك فإن تخطيط التنمية المستدامة يتطلب الأخذ بالاعتبار الظروف البيئية والاقتصادية. وبما أن

العمارة والعمران جزء من البيئة المبنية لذا كان لزاماً تغطية هذا الجانب من خلال دراسة مدى تأثيره، والبحث في سبل مزج ذلك المفهوم بالعمارة الحديثة.

فالمهتمون بالبيئة والمحافظون عليها يرون أن السبب الرئيسي لتدهور البيئة هي البناء العمراني، وبالتالي انتشرت الأيدلوجيات والأفكار الحديثة التي تنادي بالبناء المستدام (Sustainable Architecture) .

ويعرف «السواط» التنمية المستدامة بأنها «تلبية احتياجات الأجيال الحالية دون الإضرار بقدرة الأجيال القادمة على تلبية احتياجاتها»، وقد اشتمل مفهومها على عدة معطيات منها «التصميم المستدام» و«العمارة الخضراء» و«المباني المستدامة». وهذه المفاهيم ماهي إلا طرق وأساليب للبناء المعاصر الذي يقلل من مشكلة الأثر البيئي، وهي أيضا تخفض من تكاليف الإنشاء والتشغيل والصيانة، إلى جانب أنها توفر بيئة عمرانية مريحة وفعالة.

وتشير بعض التقديرات، يقول «السواط»، إلى أن صناعة البناء على مستوى العالم تستهلك حوالي (٤٠٪) من إجمالي المواد الأولية، حيث يقدر هذا الاستهلاك بحوالي (٣مليارات) من الأطنان سنويا [١٨].

ويذكر المعماري جيمس واينز (James Wines) في كتابه العمارة الخضراء إلى أن المباني تستهلك سدس إمدادات الماء العذب في العالم، وربع إنتاج الخشب، وخمسي الوقود والمواد المصنعة [١٩]. لذلك فان التوجه إلى تبني التنمية العمرانية المستدامة هو مطلب ملح وضروري وليس شكلياً، كما أن تيار العمارة المستدامة هو تيار أو مدرسة تختلف عن باقي مدارس العمارة الأخرى التي تعتمد في مضمونها على الشكل والفلسفة، وذلك بسبب الحاجة الملحة التي استدعتت وجود عمارة وتيار يتبنى المحافظة على الطاقة. فهذا التيار لم يولد بسبب استنفاذ التيارات المعمارية السابقة

لأشكالها وأفكارها وإنما وجد لحل مشكلة قائمة في المباني بهدف الحفاظ على الطاقة المتجددة.

-أمثلة متميزة للبناء المستدام :

أشار «الراشد» إلى قيام ثلاثة معماريين أمريكيين بتصميم بيت صديق للبيئة يتنفس كالبشر، تمَّ بناؤه من شتلات صغيرة ليتحول إلى مسكن يعمل على تدوير المياه وتوفير الطاقة. ويعرف البيت المكون من طابقين باسم (Fab Tree Hab). والبيت مزيج من التقنية القديمة والتقنية الفائقة الحداثة. وليس صديقاً للبيئة فحسب، بل هو بيئة صحية سليمة في حد ذاته.

وعلى الرغم من الشكل الخارجي الغريب للمسكن، فان الشكل الداخلي لن يخالف المعتاد، فالجدران المحشوة بالطين تقي من الأمطار، ومن ثم سيسهل توظيف التكنولوجيا الحديثة. ولكن لازال هناك القليل من الخدع العملية التي من المرتقب إدخالها.

وسيستغرق البيت خمس سنوات على الأقل لكي يكتمل نموه. وبناء على الظروف البيئية. بيد أن المعماريين يتصورون زراعة هياكل المنازل وتعهدها بالرعاية في إحدى المزارع.

ويستطيع العملاء انتقاء منزل شجري كامل النمو، على أن ينقل بناء على طلبهم، وتعاد زراعته في قطعة أرض لاتزيد المسافة بينها وبين المزرعة ١٠٠ميل [٢٠]. (انظر الشكل (١-٢٩) والشكل (١-٣٠)).



شكل (١-٢٩) : منزل شجري صديق للبيئة. المصدر مجلة البيئة والتنمية، العدد (١٣).



شكل (١-٣٠) : مراحل نمو المنزل. المصدر : نفس المصدر السابق.

وهناك مثال آخر محلي بالمملكة العربية السعودية، وهو مبنى وزارة التربية والتعليم في مدينة الرياض، فقد قام مكتب البيئة الاستشاري بتصميم المشروع وهو مكتب معروف بتبني المباني المتوافقة مع البيئة كما يتبنى أسلوب العمارة الخضراء في كثير من تصاميمه.

ويلاحظ في تصميم هذا المبنى استخدام معايير العمارة المستدامة أو الخضراء، إذ كان الهدف هو أن يتلاءم هذا المبنى مع البيئة ويقلل من الأثر البيئي. ولتحقيق ذلك،استخدمت العناصر التالية:

- ملاقف الهواء: استخدمت ملاقف الهواء في الأفنية والساحات لإدخال أكبر كمية ممكنة من الهواء لتبريدها والاستفادة من طاقة الرياح الطبيعية داخل الأفنية والتي قامت جدران المبنى الخارجية بمنعها من الولوج إلى الداخل.

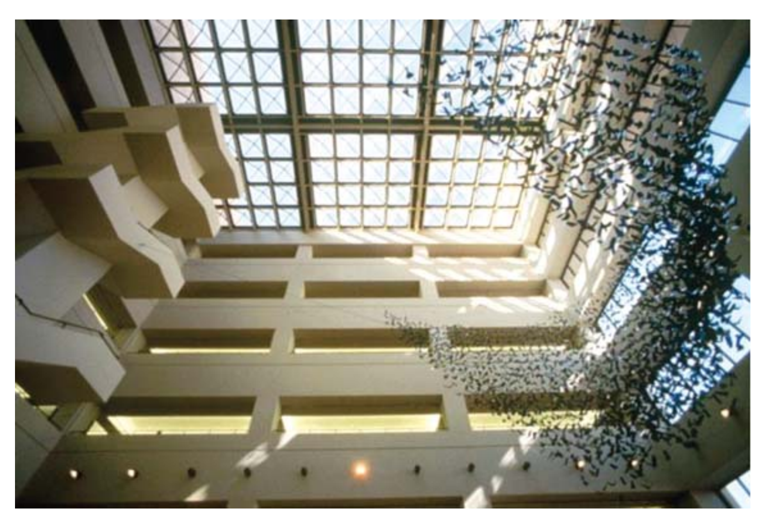
-استخدام خلايا الطاقة الشمسية: أدخلت خلايا الطاقة الشمسية في المبنى بالإضافة إلى وجود الطاقة الكهربائية للتقليل من الاعتماد الكلي على الطاقة الكهربائية، كما أن المبنى يعتبر من المباني الذكية، لأن كل عنصر من عناصر المشروع، وخصوصاً التجهيزات الكهربائية والميكانيكية، مرتبط ببرنامج إدارة المبنى، حيث يحدد الوضع الإضاءة وشدتها حسب تغير اتجاه الشمس.

- نظام تكييف فريد: استخدم نظام تكييف فريد من نوعه، حيث يتم دمج هواء المكيف مع الهواء المأخوذ من الملاقف (هواء خارجي) للحصول على هواء نقي (١٠٠٪) وبالتالي الحصول على بيئة عمل نظيفة، ينعكس أثرها على مستخدمي المبنى ويرفع مستوى العمل.

- إعادة تدوير المياه : استخدمت مياه الصرف الصحي لري المسطحات الخضراء بعد تدويرها وتنقيتها، وذلك لتوفير الطاقة المستهلكة لصرف المياه العذبة.

- زراعة الأسطح : زرعت جميع أسطح مبنى الوزارة لتوفير عزل حراري ممتاز ومنع السقوط المباشر لأشعة الشمس الحارقة على المبنى وبالتالي التقليل من استهلاك التكييف بسبب وجود طبقة العزل الطبيعية الرطبة (النباتات).

- الأفنية الداخلية :استخدمت الأفنية الداخلية لتوفير الإضاءة الطبيعية لجميع المكاتب والفراغات المعمارية والاستغناء عن الإنارة الصناعية قدر الإمكان حيث أنه من المفارقة أن نحتاج لإضاءة صناعية في مباني المكاتب في بيئة كالمملكة العربية السعودية مع وجود الوهج الشمسي الشديد الذي يفوق كل إضاءة على وجه الأرض. وهناك مثال أفضل من مبنى الوزارة وهو فناء مبنى المكتبة المركزية بجامعة الملك سعود حيث تمت معالجة الفناء للحصول على الإنارة فقط فتمَّ تغطية سقف الفناء بالزجاج المزدوج. (انظر الشكل (١-٣١)).



شكل(١-٣١) : الفناء الداخلي المغطى للمكتبة المركزية بجامعة الملك سعود، المصدر : جامعة الملك سعود، بواسطة الدكتور نوبي محمد حسن.

ثالثا : مفهوم الهاي تيك (Hi-Tech) :

برز مفهوم «الهاي تيك» في العمارة في نهايات القرن الماضي، حيث ظهر هذا التيار كأحد تجليات مسار عمارة الحداثة المتأخرة، وينشد هذا التيار عكس رمزية التكنولوجيا المتقدمة في مبانيه. ويوضح الدكتور خالد السلطاني في مقالته (تيارات عمارة مابعد الحداثة : تيار الهاي تيك)،

أن «الهاي تيك» هو توجه لاستيعاب وإدراك جمالية التراكيب المعدنية (الحديدية) مع الألواح الزجاجية. وبالإضافة إلى ذلك فقد أدخل «الهاي تيك» العناصر الخاصة بالخدمات الهندسية مثل أنابيب التهوية ومجاري الخدمات الصحية ووسائط الحركة المتنوعة، بشكل مؤثر في المعالجات التصميمية للمباني التي نفذت وفق طروحاته، ومستنداً على تجارب تكنلوجية صرفة وشائعة في عمارة المنشآت الصناعية الحديثة التي يلجأ عادة فيها إلى تلوين وسائل المنظومات الخدمية بألوان مختلفة، ووظف تيار «الهاي تيك» هذا الأسلوب في منتجه المعماري وجعله يعمل باعتباره عنصرا تكوينيا جماليا. لذلك فإنَّ عمارة «الهاي تيك» تعتمد على تشكيل التراكيب الإنشائية وإيقاعاتها الصناعية لإنتاج جمالية التكوين المعماري.

وقد سعى هذا التيار إلى إيجاد فضاءات داخلية تتسم بالشمولية والعمومية حتى تتجاوب بكفاءة عالية مع تحولات الوظيفة التي تتغير مع مرور الزمن، وقد تبنى هذا الاتجاه «ميس فان ديرو» بعد أن كان يقول بنظرية «الشكل يتبع الوظيفة» في بداية حياته المهنية.

(انظر الشكل (١-٣٢) مبنى مركز بومبيدو للفنون في باريس (١٩٧١م) حيث يرمز إلى عمارة «الهاي تيك»).



شكل(١-٣٢) : بومبيدو سنتر، المصدر : ويكيبيديا، الموسوعة الحرة على الانترنت، هذه الصورة مرخصة للاستخدام الحر من خلال منظمة «المشاع الإبداعي» بواسطة «ليواند».

وفي هذه الأيام أصبح التوجه أكثر لتكامل عمارة الهاي تيك (Hi-Technology) من خلال توفير نظام إدارة المباني أو ما يعرف بـ(B.M.S) نظراً لدخول التقنية في مجالات الحياة ومنها العمارة.

إن المباني الذكية (Intelligent Buildings) تطبق التقنية لتحسن من بيئة المباني والوظيفة للمستخدمين. حيث توفر المباني الذكية :

الأمن (Security).

- مركزية التحكم والسيطرة.
- التقليل من استهلاك الطاقة.
- خيارات لشبكات الاتصالات والانترنت.
- أجهزة استشعار (استشعار الدخان، الغاز، إطفاء الحريق).
- مخارج لتركيب أجهزة أخرى.

وفي هذه الحالة، نستطيع أن نطلق على هذه العمارة عمارة «الهاي تيك» بالفعل حيث عمارة «البومبيدو» خالية من الروح التقنية بل هي عمارة شكلية

أو حلم يطمح له المعماريون لإدخال التقنية في المباني والتي لم تكن لتتوفر إلا في هذه السنوات الأخيرة.

إن موضوع تكامل الأنظمة في مباني «الهاي تيك» يحتاج إلى تضافر الجهود من المعماريين والمهندسين من كافة التخصصات للوصول إلى المنتج المطلوب، كما هو الحال في مبنى «برج الفيصلية» بالرياض والذي صممه المعماري «نورمان فوستر»، فقد توفر فيه نظام (B.M.S) في مبنى برج الفيصلية، حيث كاسرات الشمس الكهربائية تتحرك تبعا لحركة الشمس.

لقد أثرت المفاهيم العصرية في الحركات الفكرية المعمارية المعاصرة، واستمدت العمارة من هذه المفاهيم المنهجية والآلية وترجمتها إلى التكوين المعماري الحديث.

ولا غرو فإن العمارة هي توجه بين الهندسة وبين العلوم الإنسانية والاجتماعية لذلك لا يمكن الفصل بينهما وبين الثقافة.

لابد للمعماري أن يكون ملماً بالمفاهيم الحديثة للحياة العصرية وانعكاساتها على العمارة حتى لا يسيطر الجمود على العمارة. وبالتالي لا تواكب متطلبات العصر.

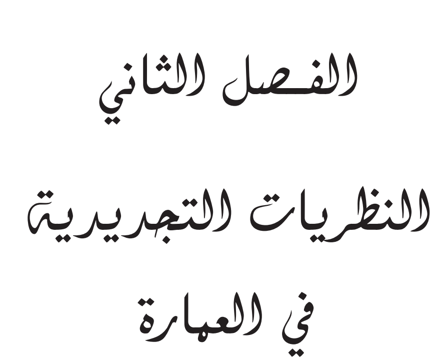
ولكن ماهو الاتجاه أو التيار الذي سيكون معياراً للنهضة والتحديث في العمارة والذي سيساعدنا للحاق بركب الحضارة في المستقبل القريب ؟ علماً بوجود الكثير من الاعتراضات والتي لاحصر لها في المجتمع العربي الإسلامي للحؤول دون تحقيق ثورة ثقافية وعلمية كتلك التي حصلت مع عصر التنوير الغربي آنذاك.

وحتى نستطيع أن نضع حداً لاتساع المفاهيم وارتباطها مع العمارة في ظل هذا التسارع الذي يتغير يوماً بعد يوم.. يرى البعض بأن الرجوع إلى الموروث المعماري وتطويره هو أفضل من مسايرة بعض أفكار الحداثة غير المجدية،

وربطها في مجالات الحياة ومنها العمارة حتى يقرر الناس مصيرهم بأنفسهم.

كما يرى آخرون ضرورة وجود منطقة وسطى بين الموروث المعماري الذي يشكل الدين والمجتمع الجزء الأكبر والمؤثر فيه وبين تطورات العلوم الحديثة.

لذلك، فإن الفكر المعماري المعاصر في العالم العربي بحاجة إلى ثورات فكرية متعاقبة تجدد المناهج وآليات التفكير وفقاً للتحولات التي يعيشها العالم لحظة بلحظة.



الفصل الثاني

النظريات التجريدية في العمارة

النظرية التشكيلية في العمارة :

بدأ الاهتمام بالمظهر العام للمبنى منذ بدايات الحضارة الإنسانية،وانصب التركيز على الوظيفة التي يقوم بها ويؤديها المبنى المراد تشييده، لذلك كانت الوظيفة هي التي تحدد تلك الأشكال البنائية والبيئة المبنية سواء من داخل المبنى أو خارجه، فالمبنى كان عبارة عن وحدة واحدة متناسقة ونتاج تجربة وخبرة، فلا نستغرب مثلاً إذا رأينا بيتاً في منطقة نجد أو الدرعية محاطاً بسور مصمت من الطين يحجب الرؤية عن البناء الذي يقبع بداخله حيث أن ساكنيه ينسجمون معه ويعيشون في أمان وإستقرار في حين لا نرى سوى جدار مصمت بلون التراب الأصفر.

ولا نستغرب أيضاً إذا كنا نتجول في منطقة وسط الأناضول في تركيا ووجدنا الناس تدخل وتخرج من فتحة تحت الأرض تشبه الجحر حيث يعيش السكان تحت الأرض في مبان تلبي المتطلبات، وفي اليمن نلاحظ أن السكان كانوا يفضلون السكن فوق الجبال ويضطرون أحيانا إلى حفر جزء من الجبل لإقامة المنزل. (انظر الأشكال من (٢-١) إلى (٢-٤)).

ثم تلت تلك المرحلة مرحلة أوسع من إشباع المتطلبات لمستخدمي تلك المباني من اللجوء والحماية والسكن، وهي التجاوب والتناغم البيئي.

وهذه مرحلة انتقالية متطورة توضح الخبرة التراكمية البشرية عبر تتابع الأزمنة والسنين، بعدما تحقق متطلب إشباع الرغبة الإيوائية، فنجد على سبيل المثال في منطقة مكة المكرمة معالجات متميزة وحلولا بيئية ثم تطبيقها على المباني هناك ليتمّ التأقلم مع البيئة المحيطة.

ومن المعلوم أن منطقة الحجاز منطقة حارة وذات وهج شمسي عالٍ، لذلك استخدم أهالي المنطقة بعض العناصر المعمارية في المباني لتقليل ذلك الأثر البيئي. (انظر الشكل (٢-٥)).



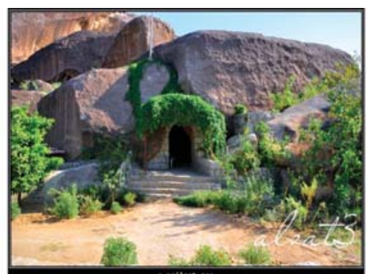
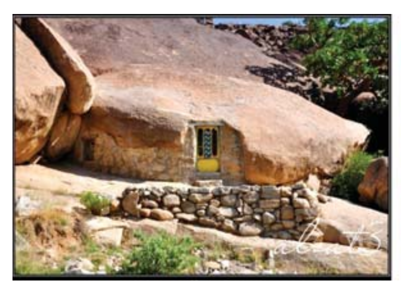
شكل(٢-١) : منازل تحت الأرض وفي الجبال في كابودوسيا - الاناضول بتركيا،
المصدر : شبكة الانترنت بواسطة «ماريو توم».



شكل (٢-٢) : دار الحجر – اليمن – المصدر : ويكيبيديا، الموسوعة الحرة على الانترنت، هذه الصورة مرخصة للاستخدام الحر من خلال منظمة «المشاع الإبداعي» بواسطة « آنتي سالونين».




شكل (٢-٣) : منازل تحت الأرض – مدينة مطماطه بتونس، المصدر : يمين : ويكيبيديا، الموسوعة الحرة على الانترنت، هذه الصورة مرخصة للاستخدام الحر من خلال منظمة «المشاع الإبداعي» بواسطة « آندي كارفن». يسار : نفس المصدر السابق بواسطة « بونيتزور ووتان».

شكل (٢-٤) : منازل تحت الأرض في مدينة الباحه – جنوب المملكة العربية السعوديه، المصدر : صحيفة الباحة اليوم



شكل (٢-٥) : قصر شبرا، جريدة الرياض العدد ١٥٠٤١ بتاريخ ٢٩ أغسطس ٢٠٠٩ م.

فتمَّ استخدام المشربيات التي تعمل كفلاتر للضوء وتقلل الوهج الشمسي،واستخدم الفناء الداخلي لتطيف الأجواء داخل البيت، بالإضافة إلى عامل الخصوصية الذي يندرج ضمن المرحلة التشكيلية الأولى. (انظر الشكل (٢-٦)).



شكل(٢-٦) : مشربية من المنطقة الغربية – المملكة العربية السعودية المصدر : ويكيبيديا، الموسوعة الحرة على الانترنت، هذه الصورة مرخصة للاستخدام الحر من خلال منظمة «المشاع الإبداعي».

وكذلك الحال في المنطقة الشرقية ودولة قطر ودولة الإمارات العربية المتحدة، فقد استخدم (البادجير) أو ملاقف الهواء، واستوردت هذه الفكرة من إيران وذلك لتبريد الهواء وتلطيفه داخل المنازل حيث يعمل كملقط الهواء من أربعة اتجاهات ليسمح بإدخال أكبر قدر ممكن منه داخل المنزل. (انظر الشكل (٢-٧)).



شكل(٢-٧) : ملاقف الهواء أو البادجير – دبي، المصدر : ويكيبيديا، الموسوعة الحرة على الانترنت، هذه الصورة مرخصة للاستخدام الحر من خلال منظمة «المشاع الإبداعي».

وهناك كثير من الأصوات تنادي بالرجوع إلى هذه المرحلة، حيث إنها هي الأساس الذي يجب أن يتم التعامل معه، خصوصاً بعد حاجة الناس إلى العيش بمبانٍ تتأقلم وتوظف طاقات الطبيعية فيها من ضوء ورياح وحرارة، وهذا المنهج،وإن تطورت التقنية واستخدمت وسائل التبريد والإضاءة الصناعية، إلا أن ذلك لا يعني أن نتجاهل هذه السبل من الطاقة المهدرة والمحيطة بنا ولا نعيرها أي اهتمام.

كان للمعماري الراحل حسن فتحي – رحمه الله – مساهمة كبيرة جدا في إحياء هذا المنهج، وبظهر ذلك في تصميمه للعديد من المشاريع باستخدام وبتطبيق عناصر العمارة البيئية كالملاقف والقبب والشبابيك ذات المساحات الضيقة، وكانت عمارته تجسد التناغم مع البيئة، إذ كان يعتبر

أنه يسير على نفس خط المعماري «فرانك لويد رايت» رائد العمارة العضوية الذي كان يرى أن المبنى من الطبيعة وإليها ويتجسد ذلك في مشروعه «فيلا الشلال» في بنسلفانيا.

لقد تعرضت العمارة الحديثة إلى اختلاف وتغير ونشوء آراء واتجاهات وأفكار وتيارات جديدة ينادي البعض منها بالحداثة وبعضها الآخر بالرجوع إلى الموروث والاستفادة من خبراته الماضية وإعادة توظيفه بقالب عصري جديد يحاكي عصر الحداثة وما بعد الحداثة.

ثم تلت هذه المرحلة مرحلة أخرى انتقالية توضح إختلاف التشكيل المعماري عن المراحل السابقة بشكل واضح وصريح وهي مرحلة استخدام مواد البناء العصرية.

عند دخول الخرسانة والحديد والزجاج والتقنية الميكانيكية والكهربائية الحديثة إلى مجال العمارة، أحدث ذلك طفرة عمرانية تشكيلية غير مشهودة سابقاً، فتمَّ الاستفادة من كثير من القواعد الثابتة والخروج عن المألوف بزعم أن هذه التقنيات الحديثة تستطيع أن تعوض عن استخدام تلك الوسائل القديمة، فمثلاً استخدمت الألواح الزجاجية الكبيرة في واجهات المباني عالية الارتفاع في كثير من مدن العالم وأيضا في الشرق الأوسط حتى حطت رحالها في دول العالم العربي، والمفارقة هنا أن كمية الإشعاع الشمسي والحرارة العالية التي تتجاوز الخمسين درجة صيفاً لم تؤخذ بالاعتبار وتمَّ تجاهلها، ونُفذت تلك المباني بحجة أن التكييف يعوض عن الحرارة المكتسبة من الواجهات الزجاجية. وكذلك حصل تلاعب بكتل المباني كما لو كان المبنى قطعة صلصال يتمُّ تشكيلها حسب ذوق المصمم والاتجاه المحلي السائد تماماً كما حصل في اتجاه العمارة التفكيكية والبنيوية.

ولا ننسى أن للحياة الاجتماعية والدين والعادات تأثيراً مباشراً وقوياً في

ظاهرة التشكيل المعماري، وقد أشار «ضاهر» إلى أن المنهجية العامة في العمارة العصرية تتمحور حول ثلاثة معايير أساسية هي كالتالي:

١- المعرفة الوصفية لخصائص الأشياء والظواهر.

٢- المعرفة المعنوية للعلاقات الاجتماعية.

٣- التراتبية الاجتماعية والطقوس الدينية والعادات الاجتماعية.

و يرى الباحث أن للمعماري دوراً أساسياً في تأمين ثلاث حاجات هي كالتالي:

١- الوظيفة النفعية التي تشبع المطلب النفعي.

٢- الوظيفة الرمزية التي تؤمن متطلبات هوية الفرد والجماعة.

٣- الوظيفة الجمالية التي تؤمن المتعة الإدراكية والبصرية [١].

وجميع هذه العناصر التي ذكرها «ضاهر» هي غاية في الأهمية والاعتبار حيث تقوم بدور مهم في تشكيل العمارة، ففي مبنى «قصر طويق» بالرياض يتضح من خلال التصميم تأثير البيئة المحيطة على المبنى حيث اتخذ هذا الشكل الملتوي الذي يشبه الكثبان الرملية ليتماشى مع تضاريس البيئة الصحراوية ومزج عنصر الخيام هنا لحضور المشهد الثقافي الموروث في بيئة الرياض في أسلوب متناغم وجميل. (انظر الشكل (٢-٨)). وسنتكلم عن هذا المبنى بشيء من التفصيل لاحقاً.



شكل(٢-٨) : قصر طويق بالرياض، المصدر : المصدر : مجلة تطوير الصادرة من الهيئة العليا لتطوير مدينة الرياض، العدد ٣٤ الصادر عام ٢٠٠٢م

وفي مبنى دار الأوبرا بسيدني – استراليا، استخدم هذا التشكيل الخاص بالمبنى من البيئة المحيطة (البحر) حيث يشبه المبنى القواقع البحرية كما أن شكل المبنى متناغم تماماً مع فكرة تقليل الصدى الصوتي للموسيقى المعروضة في هذا المبنى. (انظر الشكل (٢-٩)).



شكل(٢-٩) : دار الاوبرا – سيدني استراليا، المصدر : ويكيبيديا، الموسوعة الحرة على الانترنت، هذه الصورة مرخصة للاستخدام الحر من خلال منظمة «المشاع الإبداعي».

وفي تايلاند وبعض دول شرق آسيا، نلاحظ تأثير المعتقد الديني والأساطير في مبنى مكتبي في تايلاند وقد التف حوله التنين الذي يمثل المعتقد السائد لديهم بالحماية والحفظ والقوة. وتمثل هذه الأسطورة لديهم التقديس والاحترام. (انظر الشكل (٢-١٠)).



الشكل (٢-١٠) : مبنى التنين – تايلاند، المصدر : شبكة الانترنت بواسطة «رتشارد بارو».

الشكل بين التأثير الوظيفي والنمط السائد:

مرَّ الشكل في العمارة بمرحلتين أساسيتين، هما مرحلة ما قبل الثورة الصناعية ومرحلة ما بعد الثورة الصناعية، فقد كانت المباني في مرحلة ما قبل الثورة الصناعية تركز على جماليات الشكل الخارجي أكثر من الوظيفة حيث كان ذلك العصر عصر النهضة الأوروبية، واكتست المباني بالزخارف والتماثيل،وانصب التركيز على المظهر الخارجي أكثر من الاهتمام بأن يعكس المبنى الوظيفة الأساسية له. وأستطيع بذلك أن أقول هنا أن الشكل كان يتبع النمط السائد والموضة.

(Form Follows Fashion)

وأما في مرحلة ما بعد الثورة الصناعية، وبالتحديد في أواخر القرن التاسع عشر ظهرت حركة فكرية في العمارة وفي كثير من مجالات التصنيع تنص على أن الشكل يتبع الوظيفة، بمعنى أن الشكل يكون نتيجة للغرض الذي صمم من أجله. وكان هذا المصطلح الذي أطلقه «لويس سوليفان» يسعى إلى إرساء قانون مهم في النظرية الشكلية للمنتج المعماري. فالشكل هنا يتبع الوظيفة.

(Form Follows Function)

ويرى «بهيل» أن تلميذ «سوليفان» المعماري «فرانك لويد رايت» قد عارض المنهج الذي وضعه سوليفان «الشكل يتبع الوظيفة» بشي من التعديل والإضافة، حيث كان يقول :

(Form Follows Precedent)

بمعنى أن الشكل يتبع ما قبله، فقد كان «رايت» يرى مبدأ الحرية في التصميم بدون قيود، والاتزان في الكتل والتناسق بين الأجزاء، بالإضافة إلى استخدامه للحلية والزخارف في تصاميمه. وقد طور «رايت» عدة مبادئ أساسية مقتبسة من تلك الفكرة، منها : استخدام المفردات الطبيعية، والبساطة في التصاميم والراحة، واستثمار مواد البناء الطبيعية، واستعمال الطرق الهندسية في التصميم كالموديول. وبذلك ركز «فرانك لويد رايت» على التكامل بين الوظيفة من جهة والشكل من جهة أخرى، آخذاً في الاعتبار التكامل مابين مواد البناء والتكنولوجيا والتوسع المستقبلي [٢]. ولا ننسى هنا مدرسة «الباوهاوس» في عام ١٩١٠ م، فقد تبنت فكر «الشكل يتبع الوظيفة والحلية جريمة». الأمر الذي جعل الكثير من المعماريين أمثال «فرانك لويد رايت» وغيره يبتعدون عن هذا المنهج الجاف الذي يمكن لمبادئ الاشتراكية في العمارة، ولا يراعي الجوانب الثقافية والاجتماعية للبشر. لذلك كان مبدأ الشكل يتبع الوظيفة منبوذاً لدى الكثيرين الذين

يرون أن القيم الجمالية تنبع من وجود الجمال الشكلي مع توفير الشكل الناتج من الوظيفة، ولعمري فإن ذلك لا يتحقق إلا في مخلوقات الله عز وجل. ولا نستطيع أن نقيس ما يضعه الإنسان بما يصنعه الخالق عز وجل، ولكن المسألة نسبية فما لا يدرك كلُّه لا يترك جلُّه.

بقي علينا أن نستشرف المستقبل حول الشكل المعماري فهل سيظل يتبع الوظيفة مثلاً أم أنه سوف يستقل عن تلك الفكرة، بسبب وجود معايير أخرى تنافس الوظيفة، كوجود تكنولوجيا جديدة لا تحتاج إلى أن تعكس الوظيفة تماماً كما هو الحال في الفراغ المتعدد الاستخدام أو المباني التي تستخدم لفترة مؤقتة وبعد ذلك تستخدم لوظيفة أخرى. أو المباني التي تكون فيها تكنولوجيا معينة مثلما حصل في اليابان عندما قام أحد المبتكرين باختراع وحدة سكنية على أرض مساحتها عشرون متراً مربعاً فقط، فقام بعمل مبنى أشبه بوحدة أدراج ومن خلال ضغطة زر تصعد الغرفة من تحت الأرض إلى الدور الذي يليه صعوداً، حيث يتوفر في هذا المسكن غرفة نوم وغرفة معيشة ومطبخ ودورة مياه. لذلك اعتقد حسب وجهة نظري المتواضعة أن الشكل في المستقبل يتبع التكنولوجيا والاختراع.

(Form Follows Fabrication)

إن مسألة الذوق في العمارة هي عملية لا تخضع فقط للحسابات الهندسية ومتطلبات الوظيفة فقط، بل هي انعكاسات للثقافة والذاكرةالإنسانية وما ارتبط بهما من حب للجمال وغيره من الانطباعات.

وهناك تساؤل مهم نطرحه هنا، وهو لمن نصمم ؟ هل نصمم للإنسان باعتبار أن العمارة قرين الإنسان والمظهر الخارجي لجسده،ونأخذ بذلك اعتبارات الثقافة والدين والتراث والتاريخ، أم نصمم للبيئة باعتبار أن العمارة جزء من البيئة، حيث يحبُّ الكثيرون أن يسموها «البيئة المبنية»، ونأخذ بذلك اعتبارات طبيعة الأرض وطبيعة المناخ والتوجيه ومواد البناء.

ولصعوبة الاختيار اعتقد أن العمارة هي هندسة فنية. فإذا استطاع الإنسان أن يلبي متطلباته ومتطلبات البيئة فهو يكون بذلك قد حقق انجازاً كبيراً.

من أين نبدأ التصميم ؟

قد يسأل سائل هنا ويقول من أين يفترض أن نبدأ مرحلة التصميم المعماري ؟

هل المفروض أن نبدأ من الداخل أم من الخارج ؟

إن التكامل في عملية التصميم المعماري هو أن نبدأ التصميم من الداخل والخارج بحيث نلبي المتطلبات الفراغية الداخلية، ونراعي المؤثرات الخارجية (الموقع، الأثر البيئي، الإعداد الوظيفي، الهيكل الإنشائي) في آن واحد، ثم يلتقيان في نقطة واحدة يتمُّ فيها عملية «تفاوض ذهني «للوصول إلى الشكل المطلوب، حيث إن المشهد المعماري هنا يشبه،إلى حد كبير، المشهد الشعري، فيفكر الشاعر في بداية بيت القصيدة بفكرة أو بصورة شعرية معينة وفي نفس الوقت يفكر كيف سيصل إلى إكمال الصورة من خلال ربطها مع تلك القافية المطلوبة في نهاية البيت.

وجدير بالتنبيه إلى أن العملية التصميمية هي عملية نسبية، فإذا أصلحت شيئاً فقد تلغي شيئاً آخر أو تغيره. لذلك، فعملية التصميم المعماري أمر بين أمرين فلا هي تصميم للبيئة فقط ولا هي تصميم للوظيفة فقط، وإنما هي عملية نسبية تراعي جوانب على حساب جوانب أخرى بهدف اعتبار الأهم ثم المهم، ولا يكون التصميم متبلورا بشكل إبداعي تام إلا في خلق الله سبحانه وتعالى وبديع صنعه.

إذاً نستنتج أن عملية التصميم المعماري هي عملية معالجة التقائية بين المتطلبات الفراغية الداخلية وبين متطلبات المحيط الخارجية. والمتطلبات الداخلية تمثل : الوظيفة، الخصوصية، الراحة، الأمان، الهوية، ومتطلبات

أخرى. أما المتطلبات الخارجية فتمثل : خصائص الموقع البصرية، المؤثرات البيئية وحركة الشمس واتجاه الرياح، حركة السيارات والمشاة حول الموقع، خصوصية الموقع.وقد ظهرت بعض النظريات المعمارية التي تعيد النظر في مسألة التشكيل المعماري، ومنها :

١) – **الشكل يتبع الوظيفة** (Form Follows Function) :

تبنى المعماري «سوليفان «هذه النظرية حيث كان يرى أن وظيفة المبنى تنعكس على الشكل المعماري، لذلك نلاحظ في التصاميم المعمارية للمعماري «لويس سوليفان» اهتمامه في التصميم للوظيفة وللداخل، ويلاحظ ذلك في مشاريعه للمباني الرأسية.

٢) – **الأقل هو الأكثر** (less is more) :

تبنى هذه النظرية المعماري «ميس فان ديروه»، فاهتم بدراسة التفاصيل المعمارية البسيطة التي ليس فيها تكلف، وكان يقول إن المبنى البسيط في شكله يحتاج إلى وقت طويل لدراسته، وابتكر أسلوب البناء بالحديد والزجاج وتلك الواجهات عادة ما تكون بسيطة وبعيدة عن التعقيد والزخارف الكثيرة. ويلاحظ ذلك في مبنى «سيجرام» بنيويورك ومعهد الينوى للتكنولوجيا.

٣) – **الفضاءات الشاملة** (Universal Spaces) :

وقد تبنَّى «ميس فان ديروه» هذه النظرية أيضا، إذ رأى أهمية أن تكون هناك مرونة في الفراغات المعمارية بحيث تستخدم لعدة وظائف بما أنه عادة ما تتغير الوظائف في المبنى مع طول الزمن، لذلك كانت هذه النظرية تؤكد على ضرورة اعتبار الفراغ المتعدد الأغراض، مع إلحاحها على أن يكون ذلك الفراغ كبيراً للحد الذي يمكن أن يستوعب جميع الأنشطة في المبنى مع إمكانية تقسيمه إلى فراغات أصغر. انظر الشكل (٢-١١).



شكل (٢-١١) : معهد الينوى للتكنلوجيا، احد مشاريع ميس فان ديرو – الفضاءات الشاملة، المصدر : ويكيبيديا، الموسوعة الحرة على الانترنت، هذه الصورة مرخصة للاستخدام الحر من خلال منظمة «المشاع الإبداعي».

٤) – المبنى من الطبيعة وإليها :

تبنى هذه النظرية «فرانك لويد رايت»، ومما يلاحظ في كثير من تصاميمه التفاعل مع البيئة المحيطة كما حدث في منزل «إدجار كوفمان» أو فيلا مساقط المياه في بنسلفانيا حيث إستفاد من الشلال المحيط بالمبنى ليمازج البيئة المبنية مع البيئة الطبيعية، ولم يتجاهل ذلك التصميم البيئة ولم يغفلها. صحيح أن «فرانك لويد رايت» نجح في التفاعل مع الطبيعة (في الشكل) خارجياً وداخلياً حيث احتفظ في المشروع السابق بمواد البناء الطبيعية دون إزالة مثل الحجر الذي في صالة المعيشة، لكنه لم يوظف الطاقات الطبيعية لصالح المبنى كما عمل المعماري «حسن فتحي»، وإنما اكتفى بالتأثير الشكلي فقط، وقد حذا حذو المعماري حسن فتحي الكثير من المعماريين المعاصرين.

٥) – قابلية التوسع المستقبلي :

تبنى هذه النظرية «فرانك لويد رايت»، الذي كان يرى من الأهمية وضع هذا المعيار في التصميم المعماري لماله من أهمية فيما بعد، فإذا قام أحدهم

بعمل توسعة للمنازل التي صممها «فرانك لويد رايت» فإنه من السهولة أن يصمم ذلك التوسع المستقبلي دون أن يكون البناء عشوائياً وغير مدروس، كما ساعده على ذلك استخدام الموديول (Module) أو الشبكات التصميمية، والتي تحافظ على مسافات مدروسة محددة بين الفراغات المعمارية.

٦) – توظيف الطاقات الطبيعية والمواد المحلية:

لقد أعاد حسن فتحي صقل هذه النظرية وتأصيلها، واستخدم جميع الطاقات الطبيعية من رياح وشمس ومواد بناء محلية ووظفها داخل المبنى، حيث القبب للتسقيف مع وجود مداخل صغيرة للهواء تمكن الهواء الحار من الخروج، وتتيح دخول الهواء البارد عن طريق ملاقف الهواء، كما استخدم «نظرية فنتوري» لدخول الهواء داخل البيت وانتشار الهواء بداخله بصورة طبيعية من خلال عمل نافذة ذات فتحة صغيرة نحو اتجاه الريح السائد وعمل نافذة ذات فتحة كبيرة للجهة الأخرى من الغرفة ليدور الهواء في جميع زوايا الغرفة. كما استخدم «السلسبيل» وهو عبارة عن نافورة ماء في صالة المعيشة تحت ملقف الهواء لكي يمرَّ الهواء فوق ذلك الماء فيبرد ويبرد الأجواء الداخلية للمنزل، بالإضافة إلى استخدام عناصر فلترة الإضاءة الطبيعية كالمشربيات والكوليسترا. (انظر الشكل (٢-١٢)).



شكل(٢-١٢) : شكل نموذجي للمشربيه في بيت نصيف – جده – المملكة العربية السعودية، المصدر : ويكيبيديا، الموسوعة الحرة على الانترنت، هذه الصورة مرخصة للاستخدام الحر من خلال منظمة «المشاع الإبداعي».

٧) – التأصيل في الشكل:

وتبنى هذه النظرية حسن فتحي وراسم بدران وسامي عنقاوي في العالم العربي حيث يتضح في كثير من تصاميمهم المعمارية الاهتمام بالحفاظ على الموروث العمراني ووضعه في قالب عصري حديث يكسب البنية العمرانية الصفة الموروثة لها عن طريق الحفاظ عليها وإعادة تشكيلها.

ويشير «السلفي - البس «إلى أن محاولات الحفاظ على التراث العمراني وتأصيله أخذت عدة اتجاهات، منها:

أ- تقليد الماضي والنقل الصريح لعمارته وتبسيط عناصره كما حصل في مباني مبنى الهيئة العليا لتطوير مدينة الرياض بالحي الدبلوماسي، فقد

نقل المعماري العمارة التراثية بكل أشكالها ووضعها في تلك المناطق. ويرى الباحثان السابقان أن هذه النظرة هي نظرة سطحية للتراث وغير واقعية. (انظر الشكل (٢-١٣)).





شكل(٢-١٣) : يمين : أحد مباني الحي الدبلوماسي بالرياض والمحيطة بساحة العدل، يسار : جامع الامام تركي بن عبدالله آل سعود في مدينة الرياض، المصدر : الموقع الرسمي للهيئة العليا لتطوير مدينة الرياض على الانترنت.

ب- تأصيل التراث العمراني من خلال التأصيل لروحه وفلسفته، ولا شك أن ذلك يستلزم دراسة معمقة ليس فقط لعناصر ومفردات وملامح الصورة الخارجية للمباني التقليدية القديمة. ولكن بصورة أكثر تركيزا على المتطلبات الوظيفية والإنسانية والاجتماعية التي تحددها قيم وتعاليم الإسلام الحنيف.

ج- محاولة ترميم بعض المباني التقليدية القديمة والحفاظ عليها لتبقى شاهدة على عراقة الماضي وأصالته ولما لها من قيمة تراثية كبيرة.

حيث قام المعماري صالح لمعي مصطفى بدور مهم في ترميم المباني في المملكة العربية السعودية، فقام بترميم «قصر المربع» في الرياض وكذلك قام بترميم قصر للملك عبدالعزيز في منطقة العاذريات [٣]. انظر الشكل (٢-١٤).



شكل (٢-١٤) : قصر المربع بالرياض بعد الترميم. المصدر : جريدة الرياض عدد ١٤١٧٠

٨) – الشكل يعكس الهوية :

سبقت الإشارة إلى أنه كي تعكس العمارة هويتها، فإن عليها أن تتضمن النقاط التالية :

أولا: مقتبسة من البيئة.

ثانيا: متوافقة مع المعتقدات والتعاليم السماوية.

ثالثا: مرتبطة بالثقافة المحلية.

لذلك نرى أن لكل حضارة خصائصها ومميزاتها فارتباط العمارة الإسلامية بهويتها ناشئ من أن ارتباطها الروحي والحضاري أكثر من ارتباطها الشكلي غير المعتد بمبادئ ومقاصد شرعية. وسيتضح ذلك تفصيلاً في الفصل الثالث من هذا الكتاب، إذ الشكل هنا يعكس الرغبات الثقافية ومستلزمات الهوية الملحة للساكن.

٩) – الشكل البيالوجي (المبنى يتمدد وينكمش) :

لوحظ أحياناً بأن الشكل المعماري للمبنى يتغير بتغير الزمن ووظيفته في بعض المباني التي أُخذ في تصميمها بمبدأ عمارة المستقبل كما حدث من قبل الحركة التي أنشأها مجموعة من المعماريين اليابانيين وهي «مجموعة الميتابوليزم»، وهنا يكون الشكل غير ثابت بل متحولا من زمن لآخر وحسب الحاجة.

وأذكر هنا مثالا حياً على الحاجة إلى الشكل البيالوجي في العمارة من خلال ممارستي العملية السابقة في وزارة التربية والتعليم / وكالة المباني – من خلال قيام الوكالة بإيكال تصميم مبنى خدمي تابع لوزارة التربية والتعليم إلى أحد المكاتب الاستشارية المعروفة، وأنجز المكتب المطلوب منه. ومن خلال المخصصات المالية للوكالة، وُجد أن المبلغ المرصود والمخصص لإقامة هذا المبنى الخدمي غير متوفر بالكامل في ذلك العام المحدد للبناء، على أن تخصص بالكامل في العام الذي يليه، والمبلغ المتوافر الحالي كان يقارب الـ ٦٠٪ من التكلفة المطلوبة.ونظراً للحاجة الماسة لإقامة هذا المبنى، طلب مهندسو الوكالة، وبخبرة جيدة، من الاستشاري أن يصمم المبنى على مرحلتين تنفيذيتين بحيث ينفذ الجزء الأول بهذه الميزانية المتوافرة والتي تقارب الـ ٦٠٪ من التكلفة الاصلية للمبنى والجزء الآخر ينفذ في العام التالي أو الذي يليه وحسب توفر الميزانية، وقد طلب من المكتب أن يشتمل الجزء الأول للمبنى على جميع الأنشطة أو معظمها والتي كان من المقرر أن تتواجد في المبنى الكامل وليس في نصفه. وحتى لو كانت الأنشطة تمارس بنصف المساحة المقررة لها وذلك مؤقتاً. لذلك فإن الشكل البيولوجي يتواجد حسب الحاجة وحسب الظروف.

وإذا أخذنا بالاعتبار النقاط السابقة التي ذكرناها حول هذا التصميم فإن ذلك يعطينا مؤشراً على ضرورة ربط تلك النظريات بالفكرة المعمارية الأساسية.

ومن هذا المنطلق أستطيع أن أضع معايير للبدء في الفكرة المعمارية تكون خطوطا أساسية (Guide lines) للتصميم وبعيداً عن العشوائية واتخاذ القرارات التصميمية الخاطئة تحت عنوان الفكرة المعمارية المتكاملة.

الفكرة المعمارية المتكاملة (Universal Architectural Concept) :

تخضع الفكرة المعمارية إلى ستة معايير أساسية، من المفترض أن تدرس كمنهجية علمية في محاولة لتطبيق أكبر قدر ممكن من الأفكار لتكوِّن بذلك الفكرة الأساسية المتكاملة. وهذه المعايير تشمل ما يلي :

١- الكتلة و الشكل (Form & Shape) :

لا تخرج الكتلة المعمارية عن أربعة أشكال أساسية وهي الكتلة الرأسية والكتلة الأفقية و الكتلة المتزنة والكتلة الفنتازية. ولكل كتلة محددات وضوابط لاستخدامها كالتالي :

أ- الكتلة الرأسية :

نشاهد اليوم الكثير من المباني التي تكون رأسية الكتلة وذلك في المباني عالية الارتفاع أو المباني الزجاجية، وكما هو معلوم أن الكتلة الرأسية هي كتلة ذات كلفة مادية أكثر من الكتلة الأفقية بسبب الاضطرار لاستخدام أنظمة تكييف كبيرة وطاقة كهربائية عالية وصيانة دورية وتنظيف زجاج يكاد يكون يومياً وبنية تحتية مكلفة جدا. لذلك فإن استخدام هذه الكتلة كفكرة معمارية إنما هو بسبب منطقي وليس اعتباطياً وهو أن شكل الأرض لا يسمح بالتمدد الأفقي كما أن سعر الأرض عادة ما يكون مكلفاً بسبب وجود الأرض على شارع رئيسي تجاري، وقد يتطلب أحيانا أن يكون ذلك المبنى في موقع ما يسمح باستخدام تلك الكتلة مثل وجود المبنى في مركز المدن التجارية مما يحدو بصاحب العقار إلى أن يقوم ببنائه في تلك المنطقة وبالتالي يكون مبررا كافياً له لاستخدام تلك الكتلة.

وأرى شخصياً بان البناء الرأسي هو أسوأ الحلول المعمارية إلا إذا اضطررنا كما في الحالة السابقة وذلك لأسباب اقتصادية كإمكانية إقامة نفس مسطح البناء المطلوب بأقل بكثير من السعر الأساسي للبناء الرأسي، ولأسباب اجتماعية بسبب قلة الترابط الاجتماعي للساكنين في المباني السكنية عالية الارتفاع بسبب الإحساس باختراق الخصوصية ولأسباب بيئية بسبب عدم الاستغلال الأمثل للموارد البيئية والطبيعية. ويكفيك أن تسأل أحد الساكنين في تلك المباني عن شعوره تجاه السكن في تلك المباني الزجاجية عالية الارتفاع (انظر الشكل (٢-١٥)) وهو «برج خليفة» في دبي حيث إنه أطول برج في العالم بارتفاع ٨٢٨ م، وبلغت تكلفة البرج (١,٥ مليار دولار) بإجمالي مساحة مبنية (٥٢٦٧٦٠م ٢) أي أن سعر المتر المربع (٢٨٤٧دولار) ومن المتوقع أن يشغل هذا المبنى ١٢٠٠٠ شخص فيما يشبه المدينة العمودية.



شكل (٢-١٥) : برج خليفه في دبي أعلى بناء رأسي في العالم، المصدر : ويكيبيديا، الموسوعة الحرة على الانترنت، هذه الصورة مرخصة للاستخدام الحر من خلال منظمة «المشاع الإبداعي» بواسطة «تيتوني توماس».

ب- الكتلة الأفقية :

وعادة ما يستخدم هذا النموذج عندما لا يكون سعر الأرض عائقا أو مكلفا لدرجة أن يؤدي إلى التدخل في التصميم المعماري ليوازن مابين سعر الأرض وبناء المبنى وكثيرا ما نلاحظ استخدام هذه الكتل في المباني التجارية والمستشفيات والمدارس حيث أن هذا النوع من الكتل يستخدم في المشاريع التي تكون الأولوية في فكرة التصميم لها هي الحركة (Circulation) فتواجد الأسواق التجارية في مجمع تجاري قريبة من بعضها البعض هو فكرة تسهل من التنقل بين المحلات والتبضع بسهولة وكذلك إيجاد جو للمنافسة التجارية وكذلك الحال في المستشفيات حيث إن من المفترض أن ينتقل المريض والمراجع للمستشفى بسهولة ويسر وباستخدام (Ramp system) للصعود بدل السلالم، كما أن هناك عدد من الوظائف الأساسية في فراغات المستشفيات تتطلب أن تكون قريبة مع بعضها البعض. لذلك نلاحظ أن معظم التصاميم المعمارية للمستشفيات تتخذ الكتلة الأفقية شكلاً لها. (انظر الشكل (٢-١٦) لمبنى مستشفى نموذجي في المملكة العربية السعودية).



شكل(٢-١٦) : مبنى مستشفى نموذجي – المملكة العربية السعودية.
المصدر : جريدة الرياض عدد ١٣٨٣٥ .

ج- الكتلة المتزنة :

وهي كتلة بين الأفقية والرأسية، وعادة ما نلاحظ هذه الكتلة في المساكن والمنازل حيث توازن هذه الكتلة بين المتطلبات الوظيفية وبين شكل الأرض إلى حد ما. وغالبا ما يكون سعر الأرض لهذا البناء أو الكتلة أو البنية المبنية رخيصاً نسبياً وليس مكلفاً. وقد اتخذت البلديات بعض الضوابط الكفيلة بتحديد خط السماء أو ارتفاعات المباني حسب موقع قطعة الأرض وذلك للحفاظ على المظهر العام للمدينة ولمتطلبات الخصوصية الفردية للساكنين.

ح- الكتلة الفنتازية :

عندما أتحدث عن الفنتازيا في العمارة استطيع أن أقول إن العمارة هي امتداد لجسد الإنسان تتشكل بناء على الرغبات والعواطف والذاكرة. فالرغبات تشمل : الوظائف والتحكم البيئي والشكل المعماري، والعواطف تشمل : الألوان والأشكال والأسلوب، والذاكرة تشمل : الماضي والحاضر والمستقبل.

إذا ماهي علاقة الفنتازيا بالعمارة ؟

إن انتشار الفنتازيا المعمارية في كثير من بلدان العالم ما هو إلا محاولة للتنفيس عن الداخل من شعور وأحاسيس مرتبطة بأسلوب الحياة العصري المليء بالتمرد على كل قديم والافتتان بالجديد وقد يرى البعض أنه تمرد مرتبط بفساد الذوق العام لعدم وجود أي محددات أو ضوابط تسوق إلى نشوء تلك الكتلة المعمارية. كما يستخدم البعض هذا الأسلوب في التصميم للفت الانتباه لشيء ما أو لإثارة المستخدمين والمحيطين بذلك البناء أو لجذب الناس للدخول إليه لاكتشافه ومعرفة وظيفته وما بداخله !

وفي الحقيقة ليس هناك أي محدد لاستخدام هذا الأسلوب في التصميم

إلا إذا كانت الحاجة لذلك لسبب ما ويعطي الأولوية في التصميم، مع تحفظي الشديد على مثل هذا الأسلوب العقيم الذي لا يولد أي أفكار تراكمية منظمة،لأن المعول عليه هو خصوبة الفكرة المعمارية وقابلية توليد الأفكار لها، وليس أفكارا هلامية مهجنة من عدة مجتمعات وثقافات ومعتقدات.

٢- الحركة والفراغ الداخلي :

المعيار الثاني من المعايير التي تخضع لها الفكرة المعمارية المتكاملة هو الحركة والفراغ الداخلي فوظيفة المبنى وسلوك المستخدمين وشكل الأرض هي التي تحدد نوع وشكل الحركة والفراغ الداخلي، كما ذكرنا سابقاً فإن الحركة تنقسم إلى ثلاثة أنواع رئيسة كالتالي:

أ- حركة رأسية.

ب- حركة أفقية.

ج- حركة انحدارية.

وكل نوع من هذه الأنواع الثلاثة من الحركة (Circulation) يخضع،في الواقع، لعدة محددات لاختيار نوع الحركة المطلوبة. فعند دراسة مبنى مستشفى على سبيل المثال فانه يؤخذ في الاعتبار صعوبة تنقل المرضى لعدة أماكن كما يصعب عليهم استخدام السلالم، لذلك يستبعد نظام الحركة الرأسية و تؤخذ بالاعتبار الحركة الأفقية بالإضافة إلى استخدام الحركة الانحدارية بدل السلالم. (انظر الشكل (٢-١٧)) لدرج حلزوني في متحف الفاتيكان بإيطاليا.



شكل (٢-١٧) : درج حلزوني إنحداري في متحف الفاتيكان – ايطاليا،
المصدر : ويكيبيديا، الموسوعة الحرة على الانترنت، هذه الصورة مرخصة للاستخدام الحر من خلال منظمة «المشاع الإبداعي» بواسطة «اندرياس تيل».

وهناك أيضا فكرة مشابهة وهي مشروع «متحف جوجنهايم» الحلزوني في نيويورك والذي صممه المعماري «فرانك لويد رايت» (١٩٤٥م) حيث استطاع المصمم أن يبتكر أسلوباً جديداً في الحركة (الأسلوب الحلزوني) بعد استخدام الحركة الأفقية والرأسية في المباني.

وهو أسلوب ابتكاري رائع حيث تتلخص الفكرة المعمارية لمشروع «متحف جوجنهايم» الحلزوني بأن المبنى عبارة عن فراغات ومساحات واسعة دائرية يتم عرض اللوح والتحف على جدران المتحف. فعندما يأتي الزائر للمتحف سوف يستخدم أولا المصعد للصعود لآخر طابق ثم يشاهد المعروضات والتحف المتواجدة في المتحف وعلى جدرانه في حين يتواجد المنحدر (Ramp) أمام الزائر ويلاحظ الشخص الزائر أنه بدأ ينزل للأدوار السفلية رويداً رويداً مع المنحدر وبفضل هذه الحركة الحلزونية سوف يجد الزائر نفسه خارج المبنى بكل سهولة ويسر. وقد فضل «فرانك لويد رايت» أن يبدأ الزائر في مشاهدة المعروضات والتحف من أعلى دور

نزولا للأسفل بسبب سهولة النزول وصعوبة الصعود، خصوصا مع المنحدر (Ramp) (انظر الشكل (٢-١٨) متحف جوجنهايم الحلزوني).





شكل (٢-١٨) : يمين متحف جوجنهايم الحلزوني بنيويورك، المصدر : ويكيبيديا، الموسوعة الحرة على الانترنت، هذه الصورة مرخصة للاستخدام الحر من خلال منظمة «المشاع الإبداعي». يسار المتحف من الداخل ويتضح المنحدر الحلزوني، المصدر : صحيفة الجارديان البريطانية بتاريخ ١٤ يونيو ٢٠١٠ م .

٣- التفاعل البيئي :

تخضع الفكرة المعمارية أيضا إلى عناصر التفاعل البيئي، وهي عناصر تتكون من النقاط التالية:

أ- طبيعة وشكل الأرض :

إن طبيعة وشكل الأرض من أكثر المحددات تأثيراً في فكرة التصميم المعماري فهناك الأرض المنبسطة والأرض المائلة و الأرض الصخرية والأرض الضعيفة وهناك الأرض ذات الأبعاد المنتظمة والأرض ذات الأضلاع غير المنتظمة في الأبعاد كالأرض التي توجد في مراكز المدن القديمة ولكل نوع من أنواع هذه الأراضي أسلوبه المميز والخاص في التعامل.

وبذلك تكون طبيعة وشكل الأرض هي التي أثرت على الشكل والهيئة العامة للفكرة المعمارية (انظر الشكل (٢-١٩) و (٢-٢٠)).



شكل (٢-١٩) : تصميم خيالي لمكتب mad (شركة صينيه) لمشروع سكني مموج يتماشى مع طبيعة الأرض، المصدر : الموقع الرسمي للمكتب المصمم على الانترنت.



شكل (٢-٢٠) : مقترح مشروع فندق يتماشى وينسجم مع طبيعة الأرض – المصمم مكتب Atkins - شانغهاي الصين، المصدر : الموقع الرسمي للمكتب المصمم على الانترنت.

ب- طبيعة المناخ والطاقات الطبيعية:

يمارس المناخ دوراً كبيراً في تشكل البيئة العمرانية والمعمارية، نلاحظ ذلك واضحاً في بيئة المجتمعات العمرانية القديمة حيث الاستفادة من طاقة الرياح من خلال استخدام ملاقف الهواء أو ما يسمى بالبادجير لإدخال الهواء البارد داخل المنازل بواسطة الأبراج المرتفعة والتي تلتقط الهواء من أعلى. كذلك استخدام الأفنية الداخلية والتي تخرج الهواء الحار إلى أعلى (الخارج) وتدخل الهواء البارد إلى أسفل (الداخل) بسبب كثافة الهواء البارد العالية.

كما نلاحظ في بعض المباني القديمة أنهم انتبهوا إلى أهمية استغلال طاقة الرياح والهواء بإدخالها للمنازل بطرق هندسية كعمل نافذتين في غرفة واحدة الأولى ذات مساحة كبيرة مواجهة لاتجاه الريح السائد والثانية ذات مساحة أصغر، ويكون في الجدار المقابل للنافذة الأولى حيث يؤدي ذلك إلى دوران الهواء بكامل أجزاء الغرفة، وهذا مايسمى «بنظرية فنتوري».

كما لا نغفل أن هناك ممارسات ناجحة لاستغلال المناخ مثل استخدام الرياح في إدارة طواحين الهواء في بعض دول أوروبا مثل هولندا وغيرها. وهذه الطواحين كانت تستخدم لطحن الحبوب قديماً ومن الممكن الآن استخدامها لتوليد الطاقة الكهربائية كأحد عناصر التنمية المستدامة للطاقة في المباني، بالإضافة إلى الاستفادة القصوى من الطاقة الشمسية في توليد الطاقة الكهربائية حديثاً. ومن المفترض أن تؤخذ هذه العناصر في الاعتبار وحسب الأولويات. (انظر الشكل (٢-٢١)).



شكل (٢-٢١) : مركز أبحاث جامعة وُهان في الصين – تم استخدام الواح الطاقة الشمسية في سطح المبنى تصميم شركة جرونفميج الهولندية بالتعاون مع مكتب سويتيرز فان المعماري. المصدر : آركي تايمز على شبكة الانترنت.

ج- الموارد البيئية والطبيعية:

كثيراً ما يتجاهل الإنسان الموارد الطبيعية ويلجأ إلى الموارد المصنعة لعدة أسباب منها جهله بأهمية الاستفادة من موارد البيئة المحلية وعدم الالتفات إلى المردود المادي والنفسي منها، علماً بأن استغلال الموارد البيئية الطبيعية هو أحد أهم ركائز مبدأ التنمية المستدامة. ويعود الاهتمام بهذه النقطة إلى عدة أسباب منها :

١- أنها تتجاوب بيئياً مع الطبيعة.
٢- رخيصة الثمن.
٣- تحقق مبادئ الاستدامة.

تتيح إمكانية إعادة تصنيعها (Recycling).

٤- تعتبر محققة لمبادئ العمارة الإسلامية بسبب بعدها عن البذخ والإسراف.

وأنا أدعو من خلال هذه النقطة إلى استغلال جميع الموارد البيئية

والطبيعة وتطويرها ليصبح استخدامها ممكناً مع الحداثة المعاصرة. وأفضل مثال على ذلك هو تطوير الطين كمادة بناء أساسية لتكون طوباً فخارياً معالجاً بالأفران وهو عازل جيد للحرارة ومثالي للاستخدام. كما يجب أن لا نغفل أن للبناء بالمواد المتوفرة محلياً أثراً نفسياً إيجابياً، وأذكر أنني اطلعت على التجربة اليمنية في البناء بمادة الطين وسمعت أحد كبار السن وهو يعلق على هذه المباني بقوله: عندما أسكن في المباني الحديثة أحسُّ بالاختناق ولكن عندما أعود إلى المباني المبنية بالطين وأجلس فيها أشعر بالراحة النفسية وأنني أستطيع التنفس بارتياح، ولعل ذلك بسبب أن الطين هو نفس المادة التي خلق منها الإنسان.

٤- التفاعل الوظيفي:

من المؤثرات التي تؤثر على الفكرة المعمارية التفاعل الوظيفي، بمعنى أن هناك مجموعة من الوظائف في المبنى تؤثر في الشكل كما قال المعماري «سوليفان» الشكل يتبع الوظيفة (Form Follows Function)، ونلاحظ ذلك عادة في المباني التي تحتوي على صالة محاضرات (Auditorium) وفي مباني المطارات حيث يلاحظ شكل الممر الممتد من صالات الركاب إلى الطائرات مباشرة، وفي أبراج المراقبة.

وقد يفهم البعض مقولة «سوليفان» بشكل خاطئ وسلبي، حيث لم يقصد بقوله «الشكل يتبع الوظيفة» أن المبنى يجب أن يكون على نفس شكل وظيفته كأن نصمم مطعماً على شكل «هامبورغر» أو نصمم معرض سيارات على شكل سيارة. وإنما يستهدف بقوله أن هناك بعض الوظائف تؤثر على شكل المبنى وتتحكم به إلى حد ما كما أشرنا في مثال المباني التي تحتوي على صالات المحاضرات ومباني المطارات وغيرها كثير. فالشكل يتبع الوظيفة وليس الشكل يشبه الوظيفة، فهناك فرق كبير بينهما. وقد أضيف هنا أو أحاول إعادة صياغة جملة (Form Follows Function) إلى جملة أدق

وأوضح والجملة هي : (Form Fits Function) بمعنى أن الشكل يتلاءم مع الوظيفة حيث لا مجال هنا لأن تفهم هذه الجملة بطريقة خاطئة. (لاحظ الشكل (٢-٢٢) و (٢-٢٣)) لإحدى الممارسات الخاطئة لمفهوم الشكل يتبع الوظيفة.



شكل(٢-٢٢) : المقر الرئيسي لشركة إنتاج السلال – أوهايو الولايات المتحدة. مفهوم الشكل يشبه الوظيفه وليس الشكل يتبع الوظيفة. المصدر : شبكة الانترنت، بواسطة «هاسل غلاد».



شكل (٢-٢٣) : مبنى مكتبة كانساس العامة بولاية ميسوري – الولايات المتحدة، مفهوم الشكل يشبه الوظيفة وليس الشكل يتبع الوظيفة. المصدر : ويكيبيديا، الموسوعة الحرة على الانترنت، هذه الصورة مرخصة للاستخدام الحر من خلال منظمة «المشاع الإبداعي» بواسطة «جوناثان كيمبر».

٥- الموروثات الاجتماعية والثقافية:

إن الموروثات الاجتماعية والثقافية هي من ضمن المؤثرات التي تؤثر على الفكرة المعمارية، ويعتبر ابن خلدون من أوائل الباحثين الذين صنفوا الظواهر الاجتماعية على أسس علمية ودعا إلى تحليلها. لذلك يجب عدم تجاهل تلك الموروثات الاجتماعية والثقافية وأخذها بالاعتبار عند البدء في تكوين الفكرة المعمارية.

إن تعمد أو تجاهل حضارة ما من خلال التصميم المعماري له الأثر السلبي الكبير في نفوس أبناء المجتمع، وقد نلاحظ ذلك واضحاً عندما يكون هناك احتلال لدولة ما من قبل دولة أخرى فيقوم الطرف المحتل بإنشاء المباني الخاصة به والتي عادة ما تحمل بصمة الدولة المحتلة مما يترك الأثر السلبي في نفوس الناس والمجتمع.

والموروثات الاجتماعية في الغالب إما أن تكون لها علاقة بالدين والمذهب أو بالأساطير والخرافات أو بالبيئة والطبيعة.

٦- الطابع الشكلي والرمزي المقصود :

أحيانا تخرج الفكرة من كل المعايير الخمسة التي ذكرت سابقاً ولا تتقيد بها أبدا بسبب الحاجة إلى الحصول على شكل رمزي مقصود. وعادة ما تتدخل سياسات الدول في توفير هذا الطابع الشكلي لغرض مقصود ومعين كأن تبرز ذلك بناء معيناً يجسد قيم الاشتراكية مثلاً أو الرأسمالية أو تياراً معيناً أو يجسد فكراً معيناً وقد نأخذ مثالاً على ذلك حيث انتشر استعمال المساقط الأفقية على شكل صليب معقوف والذي يرمز إلى النازية الألمانية في الفترة ما بين الحربين العالمية الأولى والثانية.

وهذه المعايير التي ذكرتها هي معايير لا تتبدل على مرِّ السنين وإنما تتطور بتطور التقنية والثورة العلمية والابتكارات الحديثة. ويحدث أحياناً

أن تتعدد الخيارات في الأفكار ويتطلب اختيار واحد منها، ففي هذه الحالة يتوجب وضع جدول على شكل مصفوفة (Matrix) يحتوي على معايير الفكرة المعمارية ووضع نقاط لها ليتمَّ اختيار أفضل الأفكار والتي تحتوي على أعلى معدل من الدرجات.

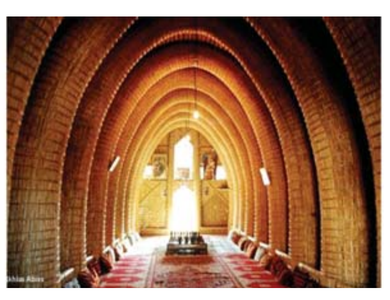
العمارة المتكاملة :

إن مفهوم العمارة المتكاملة (Integrated Architecture)، هو مفهوم تشخيصي لحالة العمارة الناجحة في أي مكان في العالم حيث تكون العمارة مستوفية ومحققة لمعظم أو كل المتطلبات المعمارية الحديثة الاجتماعية والاقتصادية والسيكلوجية.

ولا نستطيع أن نضع معايير موحدة لعمارة عالمية حيث أن لكل موقع خصائصه ومميزاته ولكل مجتمع عاداته وصفاته، كما أن العمارة الناجحة في إيطاليا مثلاً قد لا تكون ناجحة في دول أفريقيا وبعض دول آسيا. لذلك، فإن مفهوم التكامل في العمارة مرتبط بالموقع والمجتمع، إن الشعوب التي تبني حضارتها وعمارتها بنفسها هي شعوب استمرت في التواصل الحضاري الموروث وطورت ذلك الإرث الذي هو ثمرة خبرة ونتاج تراكمي وظيفي وعملي استفاد من المقدرات الموجودة.

لقد تعلم الإنسان منذ فجر التاريخ الأول بالفطرة والمراقبة لمخلوقات الله عز وجل كيف أن الحيوانات متلائمة مع مساكنها، فبعض مخلوقات البحر عليها أصداف لحمايتها من المفترسات وبعض حيوانات البر تبني بيوتها تحت الأرض وهكذا... وقد تعلم الإنسان من ذلك الإبداع فلاحظ،وبشكل عفوي، أن الشعوب التي تعيش في الأرياف تستخدم مواد البناء من نفس تلك البيئة فمثلاً في جنوب العراق يستخدم العراقيون أعواد القصب وسعف النخيل في بناء منازلهم نظرا لكثرة انتشاره هناك، حيث ينبت بكثرة حول الأهوار وبحيرات الماء الموجودة، ويشيد بطريقة رائعة تجعله يصمد لفترة

طويلة من الزمن أمام التقلبات المناخية وهو مناسب جدا لتلك البيئة ووفق الاحتياج المطلوب. لذلك فإن هذه العمارة استفادت الفائدة القصوى من المواد المتاحة لإقامة ذلك البناء النمطي والمنتشر بكثرة، وبالتالي فهي تحقق مالم تحققه الكثير من المباني الحديثة التي لم تتفاعل مع الوسط البيئي المحيط !!. انظر الشكل (٢-٢٤).




شكل (٢-٢٤) : يمين مبنى من القصب من الداخل في جنوب العراق، المصدر: موقع دي دبليو على الانترنت بواسطة «إخلاص عباس». يسار مبنى آخر من الخارج مصنوع من القصب، المصدر : موقع كنول على الانترنت، بواسطة «مهند الشيخلي».

وكما أشرنا، فإن التكامل في العمارة لا يقتصر على التفاعل مع المحيط المكاني أو الفراغي (Spatial Context) وإنما يمتد أيضاً إلى التفاعل الاجتماعي والديموغرافي فقد ولّد الفكر الإسلامي عمارة خلاقة منسجمة مع التوجهات الدينية الإسلامية الخاصة به، فاستفادت الشعوب الإسلامية من النصوص والتشريعات الإسلامية في تكوين فكر خاص بها وبعمارتها سميت فيما بعد بالعمارة الإسلامية (Islamic Architecture) أو عمارة القيم الروحية، وهذا يعني أن مفهوم التكامل أيضا يتكوَّن بفعل إشباع الرغبات الإنسانية بإيجاد عمارة تعكس ما يفكر فيه الناس.

إذاً نستطيع أن نقول إن التكامل المعماري ما هو إلا حالة استجابة فيزيائية تتشكل وفق المعطيات المادية والمعنوية التي تتفاعل مع ذلك التشكيل أو تلك العمارة.

لاحظ هنا أنه مازلنا نحوم حول الشكل والكتلة والفراغ المادي ولم نتطرق إلى التكامل في العمارة من الناحية المعنوية، لكن ماذا يعني ذلك ؟

إن التحكم في السلوك الإنساني (Human Behavior) هو الهدف المستقبلي القادم للعمارة حيث يعكف البعض على دراسة تأثير البيئة المبنية على السلوك الإنساني، وأحياناً حصر السلوك الإنساني وفق منهجية معينة بفعل ذلك التصميم وتلك العمارة.

لذا يجب علينا أن نعي أن العمارة ليست تشكيلاً فراغياً فقط، وإنما هي محط أنظار الدراسات الإنسانية الحديثة كظاهرة متعلقة بالسلوك الإنساني ومؤثرة فيه بشكل أو بآخر ولكن التطور التكنولوجي الحديث والذي دخل في مجال العمارة قد طور كثيراً منها حتى أصبح كل شيء فيها الكترونياً (Automated Architecture) فهل معنى ذلك أن نستغني عن كثير من المعايير المعمارية حيث انتفت الحاجة إليها من خلال استخدام التكنولوجيا ؟

والجواب على هذا السؤال هو : لا تصنع المشكلة وتبحث لها عن حل، لأن ذلك الحل سوف يكون مكلفاً، إن استخدام مواد بناء تتعاكس مع طبيعة المكان كاستخدام الواجهات الزجاجية الكبيرة في موقع ذي مناخ صحراوي حار هو خطيئة مهنية حتى ولو تمَّ استخدام تكييف هواء مركزي لأنه يحتاج إلى ضخ كميات من الهواء أضعاف ما كان ليضخه لو لم يستخدم الزجاج في تلك الواجهات الخارجية.

وقد فقدت العمارة الحديثة في دول العالم المتقدم الكثير من القيم والممارسات الموروثة المتعلقة بها حيث تمرد المجتمع على تلك القيم التي طالما ارتقت بالعمارة للأفضل والأحسن، تحت إسم تيارات حديثه واتجاهات جديدة،البعض منها إيجابي والكثير سلبي، فتولدت نتيجة لذلك مرحلة جديدة من الفصل والانقطاعية بعد الوصل التاريخي المتواصل.

لذلك نحن بحاجة إلى إعادة النظر في العمارة المتكاملة لوضع المعايير الخاصة بها لكل بيئة ولكل مجتمع. وقد علت الأصوات مؤخراً تنادي بدمج الموروث مع الحداثة، وهنا لا أقصد الموروث الشكلي فقط وإنما الضمني والوظيفي والاستفادة من القيم المادية والمعنوية في المباني.

وسأقوم بتمثيل التكامل المعماري من خلال المثال التالي :

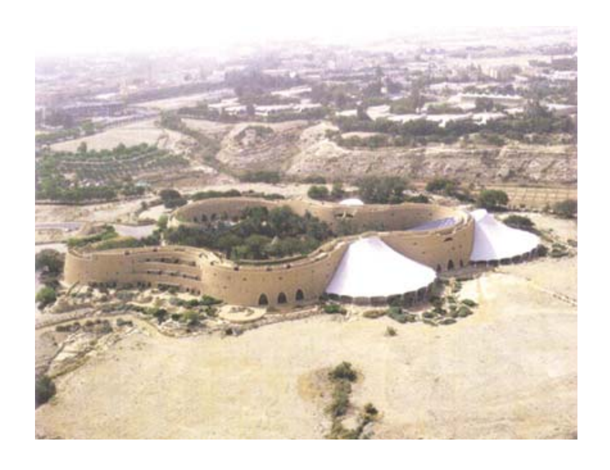
قصر طويق بالرياض:

هو عبارة عن نادٍ ترفيهي ثقافي للساكنين في الحي الدبلوماسي بالرياض – المملكة العربية السعودية، فكرة المشروع هي عبارة عن جدار ملتوٍ يمتد على مدى (٨٠٠ متر) ليحيط بواحة خضراء تحتوي على أشجار النخيل وتطل عليها الصالات والفراغات الأساسية في المبنى.

استطاع المصمم «فري أتو وعمرانية» أن يتفاعل مع المحيط البيئي حيث استفاد من التدرجات الكنتورية الموجودة في الموقع، وجعل المبنى كتلة كأنها جزء من الأرض باستخدام ذلك الشكل الذي يشير إلى طرازين محليين وهما الحصن والخيمة ويضم أيضا الظاهرة الطبيعية للواحات والأشجار البرية كما منح المصمم المبنى ذلك الملمس الخشن المتناغم مع البيئة الصحراوية من خلال استخدام تكسيات الحجر ذات النتوءات الواضحة، واستخدام اللون الرملي على التكسيات الخارجية ليؤكد فكرة التناغم والوحدة مع المحيط حيث يتدرج اللون الرملي بالظل والنور بفعل التواء الجدار «المبنى» ليعطي انطباعاً بأن المبنى جزء لا يتجزأ من الطبيعة المحيطة. كما أن كتلة المبنى مصمتة إلى حد ما، ماعدا وجود بعض الفتحات الصغيرة ذات الأشكال التي تشبه فتحات الكهوف لمنح الإحساس بالانتماء إلى تلك البيئة.

والمبنى هو مقاربة تصميميه رائعة ومحاولة ناجحة، ولا أخفي إعجابي

الشديد به حيث لم تتغير نظرتي له قبل وبعد أن علمت أنه نال جائزة الآغاخان للعمارة الإسلامية. (انظر الشكل (٢-٢٥) و (٢-٢٦)).



شكل (٢-٢٥) : منظر علوي لقصر طويق بالحي الدبلوماسي بالرياض، المصدر: مجلة تطوير الصادرة من الهيئة العليا لتطوير مدينة الرياض، العدد ٣٤ الصادر عام ٢٠٠٢م





شكل (٢-٢٦) : يمين : منطقة إلتقاء الخيام بالمبنى، يسار : صالات تحت الخيام الإنشائية لقصر طويق، المصدر : موقع بانوراميو على الانترنت بواسطة «ناصر الخرجي».

العمارة وعلم النفس البيئي :

يقول بعض المتخصصين في مجال علم النفس البيئي أن البيئة هي السلوك، كما يشير «العيوي» إلى علم النفس البيئي، ويقول إن البعض يرى علم النفس البيئي على أنه فرع من فروع علم النفس مهتم بدراسة العلاقات القائمة بين السلوك والمحتوى البيئي الذي يحدث فيه كما يؤكد على أن السلوك هو الأحداث الظاهرية الخارجية، والأحداث الباطنية المستترة التي تشمل التفكير والتخيل والإدراك والانفعال والتعلم والإبداع والتأمل وكافة الاستجابات [٤].

وللأسف، فإن شريحة كبيرة من المعماريين المعاصرين أغفلوا دور البيئة المحيطة وتأثيرها في السلوك من خلال عدم اعتبار هذا المعيار في التصميم. وقد تقع مشكلات نتيجة تصميم معينللبيئة لم يكن بالإمكان التنبه لها.

وسأعرض لبعض الأمثلة من تلك الاعتبارات المسببة لتفاعل الساكن مع البيئة كالتالي:

١- الازدحام وسوء التخطيط.
٢- كثرة عدد السكان والحالة الاجتماعية.
٣- الضوضاء ودرجة الحرارة والتلوث البيئي وتأثيرها على الإنسان.
٤- مستوى الحالة الاقتصادية(فقر، اكتفاء) والسكن الذي ينتج عن تلك الحالة.
٥- توفر رئةً ومتنفساً من خلال المسطحات الخضراء من عدمه.
٦- توفر أماكن التنزه العامة.
٧- تأثير النظام العمراني على الحركة والانفعال (تخطيط شبكي،Cul de sac) وكذلك تأثير الحواجز البصرية البيئية والطبيعية

وهناك اعتبارات أخرى ولكن هذه أهمها تقريباً.

وعند التعامل مع هذه المعايير كل على حدة، سنجد بالطبع معالجة معمارية مناسبة لها حتى ولو كانت ثانوية.

لذلك يساعد منهج علم النفس البيئي على وضع النظريات المعمارية المناسبة.

كما لا نغفل أن هناك عناصر أخرى مؤثرة في تكوين الصورة الذهنية للبيئة العمرانية ومن ثم للعمارة وهي اختزال الصور في النفس البشرية ومدى تأثيرها على تشكيل العمارة المستقبلية، فعندما نرى مبنى معيناً ونقول إن هيئة هذا المبنى توحي بأنها «محكمه» أو نرى مدرسة ونقول بأن هيئة هذا المبنى توحي بأنها «مدرسة» وهكذا، فإن ذلك يعود إلى أن الصورة الذهنية عن المحكمة والمدرسة قد تشبعت بها مخيلة الناظر لها، وعرفت بتلك الهيئة، وهذا لا يعني بالضرورة ألا نخرج عن ذلك الشكل المألوف. ولكن الصورة الذهنية للعمارة تتشكل حسب المعطيات كالموقع والمناخ والمؤثرات الخارجية والوظيفة ونوع المستخدمين... إلخ.

إن إثارة المتلقي بتشكيل كتل معمارية بطريقة معينة وفي أماكن معينة من شأنه أن يولد رد فعل لذلك المتلقي سلبيا أو إيجابيا، أو باتخاذ سلوكيات معينة نتيجة ذلك الاستفزاز البصري أو الإثارة بتشكيل حواجز إنشائية تغير من السلوك، لذلك فإن مسألة بعد النظر والتنبؤ بحدوث المشاكل مسبقاً في التصميم المعماري هي مسألة غاية في الأهمية، كما ينبغي أن تناقش المشاريع مع مجموعة من المعماريين وشريحة نخبوية من المجتمع في المشاريع التي لها ارتباط وثيق بالمجتمع والسكان حتى يتم التعرف على العقبات المستقبلية التي من الممكن ان تتولد بسبب ذلك التصميم ومدى انعكاسه على المبادئ والقيم والعادات الاجتماعية.

يلاحظ أيضا عند إعادة تصميم وتجديد المباني ذات القيمة التراثية الحفاظ على روح الفكرة القديمة وعدم المساس بها خصوصاً إذا كان

المبنى له قيمة قدسية وروحية وتاريخية، حيث من الممكن أن لا يتقبل من المجتمع وقد لايؤدي دوره كما كان، لأن صورته الذهنية ارتبطت ارتباطاً قوياً مع وظيفة خصوصاً عندما يكون المبنى له تلك الخصوصية الدينية والروحية والتاريخية.

نقل لي أحد الأصدقاء الذين يسكنون بمنطقة مكة المكرمة عدم تقبل البعض لفكرة توسعة الجمرات في المشاعر المقدسة للحج، وعندما بادرته قائلاً إن حرمة دم المسلم أعظم عند الله عز وجل من المشاعر (حيث كان يموت سابقاً الكثير من الحجاج في أول أيام التشريق عند رمي جمرة العقبة الكبرى) نتيجة الزحام وتجمع جميع الحجاج في مكان واحد وزمن واحد، كما أن زيادة عدد الحجاج في كل عام هو نتيجة طبيعية لتلك التوسعة.

عندها أبدى اقتناعه بذلك الرأي، وقد تعامل المعماريون في توسعة الجمرات بطريقة عبقرية وذكية حيث تميزت ببعد النظر، وصممتالجمرات بطريقة تمنع استقبال واستدبار القبلة (لأن البعض يقول باستحبابه) والهدف من ذلك هو توزيع وتفويج الحجاج على جهتي الجمرات بالتساوي وبشكل إجباري ودون تدخل من أحد. والذي أجبرهم على أن يتوزعوا بتلك الطريقة هي تلك البيئة المبنية والتي هي عبارة عن جدار بطول لا يقل عن عشرين متراً. وما يؤكد اهتمام المعماريين بالتأثير النفسي البيئي على الإنسان هنا أنهم قاموا بتركيب الأجزاء الأصلية من الحجر الخاص بالجمرات الثلاث وتوزيعها على الجدار لإضفاء الإحساس بالقدسية وان ذلك المكان لازال يحتفظ بتلك القدسية حسب إفادة أحد المهندسين بالشركة المنفذة لمشروع التوسعة.

انظر الشكل (٢-٢٧).



شكل (٢-٢٧) : الجمرات بعد التوسعة – منى مكة المكرمة، المصدر موقع فليكر على الانترنت

بواسطة «ناصر اوطه باشي».

وكما أشرنا سابقاً، فإن من الضروري الاهتمام بالبعد الاجتماعي عند التصميم ومراعاة مدى انعكاس ذلك المبنى على القيم والعادات الاجتماعية، فقد أشار «سالم «إلى أن إيرلندا الشمالية تعيش صراعاً حاداً بين المسيحيين «البروتوستانت» و «الكاثوليك» حيث قامت الحكومة البريطانية آنذاك في عام ١٩٦٩م بوضع حواجز من أكياس الرمل والأسلاك الشائكة للفصل بين حيين في مدينة بلفاست بايرلندا الشمالية وهما حي «شانكيل» حيث يسكن فيه البروتوستانت، وحي «فالس» الذي يسكن فيه الكاثوليك وذلك للتخفيف من حدة التوتر الطائفي هناك، وكانت تصريحات الحكومة البريطانية تؤكد على أنه خط للسلام فقط، ولكنه مع مرور الوقت تحول من سور شائك إلى أكثر من ثمانين سوراً خرسانياً يفصل عدة أحياء في مدينة بلفاست، ورغم تلك الجدران لم تتوقف الأزمة بل زادت حدة التوتر الطائفي إلى درجة أن جعلت المثقفين يقولون بأن الأحياء المحيطة بالجدران هي أكثر الأحياء خطورة من حيث السلب والنهب وانتشار الجرائم [٥]. وباعتقادي أن

الذي جعل هؤلاء المجرمين يقومون بتلك الجرائم هو استغلال الوضع المتأزم في المنطقة وانغلاق تلك الأحياء على بعضها مما أدى إلى إنعدام الرقابة الأمنية، لذلك كان لتلك الأسوار الدور السلبي في توفير تلك البيئة المريضة. (انظر الشكل (٢-٢٨) و (٢-٢٩)).



شكل (٢-٢٨) : جدار الفصل الطائفي – بلفاست، المصدر : صحيفة الغارديان البريطانية، بتاريخ ٢٩ يوليو ٢٠٠٩ م. بواسطة «كريسبين رودويل».



شكل (٢-٢٩) : عبارات على جدار بلفاست، المصدر : صحيفة الغارديان البريطانية، بتاريخ ٢٩ يوليو ٢٠٠٩ م. بواسطة «ريتشارد جاردنر».

وأذكر هنا سور المدينة المنورة الذي أزيل في مطلع القرن الماضي، فقد ترك أثراً جديراً بالدراسة والملاحظة، حيث كانت المساكن في المدينة المنورة تلتف حول الحرم النبوي، وكانت مساحتها صغيرة وبسبب الخوف من غارات الأعداء آنذاك تم بناء سور حول المدينة المنورة، وبعد فترة ولأهمية المدينة المنورة عند المسلمين، وفد كثير من الناس للسكن بها سواء الذين كانوا يأتون للحج ومن ثم يقيمون إقامة دائمة أو يأتون للسكن من القرى المحيطة إلى المدينة الكبيرة كما يحصل عادة، فلم يجدوا إلا أن يقيموا في الخارج بسبب شح الأراضي في الداخل (داخل السور)، وبسبب الازدياد الطبيعي لعدد السكان، فأصبح سكان المدينة ينقسمون إلى قسمين سكان الداخل الذين يقيمون داخل السور وسكان الخارج الذين يقيمون خارج السور وقد لاحظت خلال زيارتي الأخيرة للمدينة المنورة أن سكان المدينة لازالوا يطلقون هذه التسمية على بعضهم إلى الآن رغم مرور أكثر من قرن على زواله، وأغرب من ذلك هو ما تركه هذا السور من آثار اجتماعية وسلوكية، حيث يتكلم سكان المدينة المنورة لهجتين محليتين هما لهجة سكان الداخل (الأصلية) ولهجة سكان الخارج، وكذلك هناك اختلاف في بعض العادات والمأكولات واللباس.

وبما أنني تطرقت إلى موضوع الأسوار وتأثيرها على الحالة الاجتماعية والنفسية (كحالة من حالات البيئة المبنية)، فان هناك العديد من الحالات المشابهة والتي تحتاج إلى دراسات معمقة كسور الصين العظيم وتأثيره الديموغرافي على الصين وجدار برلين وتأثيره الاقتصادي حيث كان الهدف منه حسب رأي رئيس جمهورية ألمانيا الشرقية آنذاك هو «الفصل بين جنة الطبقة الكادحة بالشرق عن جحيم الامبريالية في الغرب»، وكذلك جدار الفصل العنصري الإسرائيلي وتأثيره على الوضع الاجتماعي والأمني والكثير من الأمثلة المشابهة. لذا أتمنى أن يكون هناك من يقوم بإعداد دراسات إنسانية تبين الآثار الفعلية لتلك الأسوار والحواجز المبنية على الجنس البشري.

البايوجيومتري والطاقة في المباني :

البايوجيومتري : هو علم الأشكال الهندسية الحيوية، و هو اتجاه يستخدم التشكيلات الهندسية بحيث تتفاعل مع الطاقة الموجودة حول جسم الإنسان. وهو امتداد لعلم «الفينج شوي» والذي نشأ قبل ٤٠٠٠ عام.

ويرى «كريم» أن البايوجيومتري هو لغة هندسية خاصة لتنظيم وظائف جسم الإنسان في البيئة التي يعيش فيها، ويذهب إلى أن المنزل هو الغطاء الثاني لجسم الإنسان، لذلك من الضروري ضبط الطاقة في جسم الإنسان الذي يسكنه لإحداث توازن في الأداء الوظيفي لكل أجهزة الجسم.

وآلية عمل هذه الفكرة هي من خلال وجود أشكال هندسية في البيئة المبنية يتم تركيبها لتقوم بتعديل الطاقة للمكان والإنسان وكذلك لامتصاص الطاقة السلبية في البيئة المبنية.

واحد الأمثلة والمشاريع التي قام «كريم» بإنجازها في هذا المجال هو عندما تمَّ تركيب هوائي هاتف حول مدينة هامبورغ بسويسرا فوق برج الكنيسة الكاثوليكية حيث بدأ سكان المدينة في الشكوى من الصداع والدوار والأرق والإجهاد فوضع «كريم» أشكالا خشبية وبلاستيكية وتسمى «أشكال الهندسة الحيوية»،فانتهت المشكلة ولم يعد أحد يشتكي من شيء [٦].

وقد ذكرت «روزماري» ممثلة المشتكين من أهل المدينة بأن الطنين في الرأس كان لا يحتمل وحتى النباتات جفت وذبلت ولكنه بعد ذلك لم يعد أحد يشعر بشيء من ذلك ولعل هذا العلم (Bio-Geometry) يفسر ما قام به الفراعنة القدماء من استخدام أشكال هندسية تحافظ على بقاء قبورهم وجثثهم سليمة ولا تتعفن كاستخدام الشكل الهرمي، حيث ثبت مؤخراً بأن الشكل الهرمي الموجه نحو الجهات الأصلية الأربع هو أنسب شكل هندسي للحفاظ على الأجسام والفواكه واللحوم بداخله دون تعفن بل إنه يقوم بتعديل الطاقة للأفضل داخل جسم الإنسان، فقد قرأت في إحدى

الصحف أن امرأة وضعت مجسما هرميًّا تحت سريرها - تحت منطقة الصدر، وصبغته باللون الأحمر وعندما قامت من النوم أحست بنشاط جسماني ملحوظ وصفاء وتركيز ذهني زائد !!.

ان علم «الفينج شوي»،والذي اعتنى بدراسة طاقة الإنسان وطاقة المكان، قد نشأ قبل ٤٠٠٠ عام الأمر الذي يؤكد اهتمام القدماء بهذا العلم لأهميته وتأثيره على البشر وتنوعت المسميات واختلفت على مرِّ العصور، فقد انتقل علم «الراديستيزيا» Radiesthesia إلى أوروبا عن طريق العرب في عصر الفتوحات الإسلامية والحروب الصليبية. والراديستيزيا هي كلمة أصلها لاتيني وتعني قابلية الإحساس بالإشعاع، ويسمى هذا العلم أيضا بالراديستيزيا الفيزيقية، وكذلك اشتهر علم الطاقة في المباني بالهند باسم «الفوستو»، وحسب اعتقاد الهنود فإن منزل الفوستو يبنى حسب مبادئ تتوافق مع طاقة المكان وتؤثر في أجساد البشر حيث يؤمنون بأن طاقة الأرض هي طاقة تتغلغل في أجساد المخلوقات وتتركز في اتجاهات يستحسن النوم والجلوس ضمن تيارها وليس في وضع معاكس لها.

وكذلك يهتم علم البايوجيومتري بالعمارة من خلال اهتمامه بالعناصر التالية :

أولا : صلاحية الموقع :

وهي الخطوة الأولى لإنشاء المبنى أو المنزل، وأهم وأول شيء يجب التفكير فيه واتخاذ القرار المناسب تجاهه، ومن المعلوم أن للأراضي خصائص كثيرة فالبعض منها يحتوي على غاز الرادون المشع والذي يتواجد في الأراضي ذات الشقوق والانكسارات حيث أن هذا الغاز يصدر من طبقات الأرض السفلى عبر تلك الشقوق، لذلك يعمد بعض المعماريين إلى عمل فراغ تحت الدور الأرضي يسمح لذلك الغاز بالتحرك فيه وعدم الدخول للمنزل ويسمى هذا الفراغ عادة (Crawl Space).

وبعض الأراضي لها ألوان مختلفة وكل لون له مواصفات وخصائص حسب رأي علم «الفينج شوي»،وهناك كثير من التفاصيل حولها لن أذكرها تفادياً للإطالة. وقد اهتم الرومان كثيراً بالمكان المراد إقامة مدينة عليه أو مسكن، فكانوا يتركون الماشية في أماكن متفرقة ثم يذبحونها ويتفحصون أكبادها للتأكد من خلوها من الديدان والفيروسات وبالتالي خلو الموقع من الأمراض. وهذا يفسر إقامة مباني المستشفيات المعاصرة في أطراف المدن حتى يتمَّ ضمان خلو تلك الأراضي من الأوبئة.

ثانيا : مواد البناء المستخدمة :

تحرص مبادئ علم «الفينج شوي» على الابتعاد عن مواد البناء التي تصدر إشعاعات كالجرانيت والحديد، وتؤكد على ضرورة استخدام مواد البناء الطبيعية كالخشب والطين والجبس لاحتوائه على أقل نسبة ممكنة من الإشعاع، والذي يؤثر سلباً على طاقة المكان وبالتالي على طاقة الساكنين سلبياً. كذلك من الأفضل أن يتمَّ البناء باستخدام مواد البناء المأخوذة من نفس الموقع حتى تتفاعل مع التربة بصورة جيدة حسب تلك المبادئ. كما يؤكد هذا العلم أيضا على أن يأكل الإنسان من نفس البيئة التي يسكن فيها أو يحيط بها. ولعل ذلك يكاد يكون مستحيلاً اليوم مع استخدام مواد البناء الحديثة، إلا إذا تمَّ استخدام الأشكال الهندسية التي تعمل على تعديل تردد المكان وطاقته.

ثالثا : كتلة المبنى والفراغات الداخلية :

إن كتلة البناء والفراغات الداخلية تؤثر على انسياب الطاقة والمجال المغناطيسي للأرض داخل المبنى، حيث يختلف تردد الطاقة عندما يكون المبنى مكعباً أو هرمياً أو مضلعا. ويفضل حسب مبادئ علم «الفينج شوي» أن تكون كتلة المبنى منفتحة أكثر على الجزء الجنوبي الغربي ولعل ذلك بهدف دخول أكبر قدر ممكن من أشعة الشمس داخل المنزل، كما يحظر

وضع غرف الخدمات كالحمامات والمطابخ في الجهات الشمالية والشرقية وهذه متعارف عليها عند المعماريين بهدف استغلال الجهات المشرقة والحيوية واستغلالها لغرف النوم وغرف المعيشة ووضع غرف الخدمات في الجهة الغربية وأحيانا الجنوبية. كما يفضل أن يتم توجيه المبنى بحيث يتوافق مع الجهات الأربعة الأصلية حتى يرتفع معدل الطاقة الايجابية في المبنى، وهذا ما تم ملاحظته في بناء الأهرامات في الجيزة حيث وجدت الأهرامات موجهه أضلاعها نحو الجهات الأربعة الأصلية وبكل دقة، كما يفضل إزاحة المبنى ليتوافق مع تلك الجهات إذا كانت قطعة الأرض لا تواجه الجهات الأربعة.

وبالنسبة إلى تصميم الفراغات الداخلية والغرف حسب نظرية علم «الفينج شوي» فان الشكل المستطيل للغرف هو أفضل الأشكال حيث إنه يبعد الرتابة في تردد الطاقة لأنه من الضروري أن يكون التصميم محكوما بنسب تنتمي إلى النسب الطبيعية في الخلق الذي أوجده الخالق عز وجل، لذلك فإن من الأفضل استخدام النسبة الذهبية في تصميم الفراغات الداخلية والخارجية لأن التصميم وفق تلك النسبة المعروفة والتي تساوي (١,٦١٨) هو تصميم مريح للعين ويعطي إحساساً بالراحة والانجذاب له، الأمر الذي جعل الكثير من الشركات تصمم منتجاتها بنفس تلك النسبة الذهبية حتى تضمن أكبر قدر ممكن من الترويج والمبيعات لبضائعها.

والنسبة الذهبية كما هو معروف هو أن يتم ضرب أحد الأضلاع بالرقم أعلاه (١,٦١٨) ثم جمع الناتج مع طول ذلك الضلع ليكون الناتج هو طول الضلع الآخر.

رابعا : التهوية والإضاءة :

كذلك تؤكد مبادئ «الفينج شوي» على ضرورة استخدام الشبابيك بطريقة تسمح بالتهوية الجيدة واستخدام الإضاءة الطبيعية والابتعاد قدر

الإمكان عن مصادر الطاقة السلبية كالاضطرار إلى استخدام الإضاءة الصناعية في أوقات النهار علماً بأنه من الممكن عمل شبابيك كافية تسمح بدخول التهوية والإضاءة الطبيعية بشكل يمنع استخدام الإضاءة الصناعية. وقد نلاحظ أن كل النقاط التي تمَّ ذكرها كان السبب وراءها هو الحفاظ على الصحة الجسدية والنفسية للإنسان، مما يعطينا مؤشراً على ضرورة دراسة تلك المباني التي أقيمت في الصين والهند واهتمت بتطبيق علوم الطاقة حتى نتمكن من وضع معايير لتصميم العمارة وفق هذا المنهج الذي يراعي صحة الإنسان في بيئته.

تأثير الموروث الديني على الشكل المعماري:

إن التجديد يرتبط دائماً بالخلفية الثقافية كما سيتضح في المباحث اللاحقة من هذا الكتاب، ومما لا شك فيه أن الأديان والأساطير والمعتقدات قد أثرت في حياة الناس في كثير من النواحي الاجتماعية والثقافية، وعلى الناحية المعمارية تحديدا، حيث انعكس الكثير من المعتقدات على العمارة والعمران وأصبحت معايير تؤخذ بعين الاعتبار وتمنح الهوية المعمارية لتلك العمارة.

فنجد مثلاً في العمارة الفرعونية أن الفراعنة قاموا بعمل معابد تبعث على الرهبة في نفوس الناس لإعطاء الإحساس بالإله وبالتقديس، كما استخدموا أسلوب الإيحاء بالعظمة والرهبة، فوضعوا تماثيل لآلهتهم داخل غرفة تسمى غرفة قدس الأقداس في معابدهم، وهي عبارة عن فراغ واسع وكبير يبدأ بالتدرج حتى يصغر شيئاً فشيئاً حيث يقل ارتفاع السقف كلما توجهنا إلى داخل المعبد ويرتفع منسوب الأرض بواسطة درج مرتفع حتى يصل الشخص إلى غرفة قدس الأقداس لتقديم القرابين لها.

كما يذكر أحد المؤرخين اليونانيين «هيرودوت» أن اهتمام الفراعنة الكبير بالدين وصل إلى درجة الوسوسة، حيث وصلت المبالغة لديهم إلى أقامة أكبر معابد ومقابر لهم على مرِّ التاريخ.

كما أثر العامل الديني لدى الفراعنة في استخدام عامل التوجيه في البناء. ويتضح ذلك في معبد رمسيس الثاني حيث أنشأ المعبد بطريقة هندسية رائعة وموجه بزاوية معينة بحيث تخترق أشعة الشمس الأروقة والممرات وتدخل لتضيء قاعة (قدس الأقداس) مرتين في العام. المرة الأولى توافق يوم مولد رمسيس الثاني والمرة الثانية توافق يوم جلوسه على عرش الملك.

واستمرَّ الفراعنة في استخدام الذكاء الهندسي وتسخيره للعامل الديني في الكثير في المباني الفرعونية مثل معبد «حتشبسوت» الذي شيدته الملكة «حتشبسوت» حيث يرى «حسن» أن في هذا المعبد تتضح الصلة الوثيقة للمبنى بالطبيعة وأنه كون أول نظريات العمارة العضوية في العصر الحديث، إذ يتضح أن المعبد متداخل مع الجبل وكأنه قطعة واحده، وعند رؤيته من بعيد يخيل لناظره بأنه كتلة مضغوطة تحت الجبل ولكن عندما تقترب منه تجد العكس تماماً، فتتضح كتلة المعبد بذلك البروز الواضح. ويضيف «حسن» بأن هذا الإحساس الغريب قد يكون مقصوداً في ذلك الوقت لنشر الشعور بالعامل الديني [٧].

وكذلك الحال مع «المسلات» التي كانت تستخدم كرمز لآلهة الشمس والتي كانت تكسى قمتها الهرمية بالذهب لتعطي ذلك الإحساس المشرق مع شروق الشمس فوق صفائح الذهب الموضوعة على تلك القمة، حيث ساد الاعتقاد بأن «المسلة» هي رمز آلهة الشمس وسكنها.

كما لا نغفل بأن الفراعنة القدماء اعتقدوا رجوع الأموات إلى الدنيا مرة أخرى، فاهتموا بتخطيط المقابر وبنائها، وتوفير كل ما تحتاجه الطقوس المخصصة للأموات. باعتبار أن تلك المقابر هي السكن الأبدي لهؤلاء الفراعنة والمكان الذي من خلاله يستطيع الأموات الرجوع إليه والعيش فيه، ومن خلال ذلك يتضح سبب دفن الفراعنة أملاكهم وأموالهم معهم لاعتقادهم رجوعهم إلى عالم الدنيا مرة أخرى والبقاء الأبدي في تلك المقبرة.

كل تلك العوامل التي ذكرناها هي عوامل روحية أثرت في أشكال العمارة والبناء واتخذت تلك المنظومة المعمارية أشكالها والتي أثرت بدورها حتى على سلوك الناس آنذاك .

وأما في العمارة الإغريقية أو اليونانية،فقد كانتا من أولى الحضارات التي تهتم بالدقة في التصاميم المعمارية ومراعاة النسب الجمالية في البناء، واعتمدت العقائد الإغريقية على عبادة الأشخاص والظواهر الطبيعية وهوي بذلك تشبه الفلسفة الفرعونية إلا أن الاختلاف بين العمارة الإغريقية والعمارة الفرعونية هو أن العمارة الفرعونية تؤثر على الزوار الداخلين بالرهبة والإحساس بالعظمة وأما العمارة الإغريقية فكانت تؤثر في الزوار عن طريق المظهر الخارجي وليس الداخلي.

تأثرت المعابد الإغريقية بالحضارة الفرعونية والحضارة الفارسية، وتميزت بثلاثة طرز معمارية للمعابد وهي «الدوري، والأيوني، والكورنثي» حيث تتشابه تلك الطرز مع وجود اختلافات بسيطة في شكل أعمدة المعابد.

كما اهتمَّ الإغريق بتشييد المعابد والمباني الدينية، واستخدموها كبيوت للآلهة لتحمي الناس وتسيطر على قوى الطبيعة كالشمس والرياح والمطر الأمر الذي يساندهم في الاعتناء بمحاصيلهم الزراعية، واهتموا بالرياح لتقود سفنهم في البحر وحفظها من الغرق. لذلك كان اهتمام الإغريق منصباً على مساكن الآلهة واحترامها وتسليم الطعام وأرباح التجارة لها يومياً.

وانعكس ذلك على شكل العمارة من خلال التأثير الديني عليها. ويلاحظ في المعابد الإغريقية عمل تفويج للداخلين إليها فهناك جزء عام في المعابد يفتح لعامة الناس، أما الجزء الداخلي فهو مخصص للكهنة ولحضور «الحضرة المقدسة»، ويلاحظ في تلك العمارة بث الإحساس بالهيبة من الخارج، وقد كان هذا مطلوباً آنذاك.

لذلك أصبحت هناك معايير في تصميم العمارة الإغريقية لا تنفك عنها

حيث أثر العامل الديني فيها كثيراً، ومن هذه المعايير :

- بث الإحساس بالهيبة في الخارج.
- استخدام أسلوب التدرج والارتفاع كلما اقتربنا من الحضرة المقدسة.
- استخدام أشكال الرؤوس البشرية والحيوانية حول المعابد كآلهة.

أما في العمارة الرومانية، فقد كانت محصلة للحضارات السابقة كالإغريقية والفرعونية واهتمت بالمباني العامة «الدنيوية» أكثر من المباني الدينية «المعابد» واكتفى الرومان بعمل محراب مقدس في كل بيت. كما أثر الاعتقاد الديني لدى الرومان في تصميم المباني الدينية حيث قاموا بتوجيه المعابد نحو جهة الضوء أو مكان مفتوح بحيث يكون المعبد مبنى ذا جذب بصري واضح للفت الانتباه.

وقد صممت المعابد الرومانية على نوعين، نوع دائري وآخر مستطيل الشكل كما في معبد «فينوس».

ونلاحظ في العمارة الرومانية قلة اهتمامهم بالأمور الدينية لعدة أسباب لا يسعنا ذكرها فلذلك نجد أن تأثير الموروث الديني في العمارة هنا محدود.

وفي العمارة البيزنطية التي بزغت في فجر عصر المسيحية بمدينة القسطنطينية، نلاحظ فيها ابتعادها عن إبراز الأوثان والأصنام بشكل عام واهتمت بإظهار الناحية الجمالية والديمومية للبناء.

وقد يلاحظ كثيرون أن العمارة البيزنطية اتخذت نوعين من البناء لتسقيف مبانيها؛ النوع الأول كان يسقف بواسطة القبب وذلك بسبب تأثير دول الشرق التي كانت تستخدم ذلك النوع من التسقيف عندها، أما النوع الثاني فكان يسقف المباني بنظام المباني البازيليكية.

لقد كان الطراز البيزنطي هو التعبير الرسمي للديانة المسيحية، ولكن بعد الانقسام السياسي بين الشرق والغرب في الإمبراطورية الرومانية، اختلفت

الكنيسة في الشرق عن التي في الغرب، فكانت الكنيسة في الشرق ترى أن (الروح تتقدم وتسير مع الأب فقط) بينما كانت الكنيسة في الغرب ترى أن (الروح تتقدم وتنبع من الأب والابن) ونتيجة لذلك الاختلاف المذهبي بين الكنيسة الشرقية والغربية، غادر البلاد الكثير من المهندسين والفنانين والمهرة وسكنوا في ايطاليا ليزاولوا أعمالهم بحرية وبدون ضغوطات دينية، ولذلك اختلف الشكل العام في البناء في العمارة البيزنطية بين الشرق والغرب حيث إن العمارة البيزنطية في الشرق لا تحتوي على التماثيل والرسومات الجدارية في حين اشتملت عليها العمارة البيزنطية في الغرب.

ويشير «حسن» إلى أن الكنائس لم تأخذ طابعاً خاصاً إلا بعد فترة طويلة من انتشار الدين المسيحي كما ظهرت الحاجة إلى بناء الكنائس للتعبير عن الدين المسيحي الجديد خصوصاً بعدما اعتنق «قسطنطين» الديانة المسيحية. ونتيجة لذلك تعددت أشكال المساقط الأفقية للكنائس فاتخذ بعضها شكل الصليب المغطى بقبب واتخذ بعضها الشكل المثمن وبعضها دائري والأخير ذو شكل يشبه البازليكا المغطاة بالقباب [٨].

وأخيراً، نلاحظ أن العمارة الإسلامية قد تأثرت كثيراً بالفكر الإسلامي ومنهج السنة النبوية، حيث أن عمارة الأرض في الإسلام يعتبر عملاً تعبدياً لأنها استمدت فكرها ومنهجها من القيم الإسلامية للمجتمع المسلم. ويشير «جرادات» إلى أنه «بالرغم من تنوع الأنماط المعمارية عند المسلمين إلا أن العمارة لم تغفل عن إعطاء البيئة والمحيط الحضري القدر الكافي من التميز حيث أصبح النسيج الحضري بحد ذاته للمدينة الإسلامية بعدا جديدا اشتق من معاني التكافل والوحدة بتلقائية وسلاسة مما أتاح المزيد من التجسد الفعلي لمعاني الإسلام حتى على مستوى الحفاظ على البيئة فتشكلت بيئة المسلم من مجموع معطيات حياته الاجتماعية والثقافية والسياسية مما انعكس على العمران لمدينته ونسيجها الحضاري. فكانت

الحدائق والأسواق والأبنية العامة والخاصة والقصور والتكايا والأسبلة والبيمارستانات وغيرها من العناصر المكملة للبيئة الحضارية الحديثة والتي استطاعت التميز والديمومة، وسعت الحضارات الأخرى إلىتقليدها لما لها من أهمية إنسانية وبيئية واجتماعية»[٩].

وتطرق «إبراهيم» إلى أن الإسلام اهتم بتشريعات العمارة والعمران من خلال وضع عدة معايير، منها: توفير الخصوصية الفردية للساكنين، من خلال قوله تعالى ﴿وَٱللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّنۢ بُيُوتِكُمۡ سَكَنًا﴾ سورة النحل آية (٨٠)، وهذه الخصوصية لها عدة مستويات. فهناك خصوصية للحفاظ على العورات من خلال انغلاق الوحدات السكنية عن الخارج واستبدال الانفتاح الخارجي بوجود أفنية داخلية لممارسة الحياة الطبيعية بداخلها، والمستوى الثاني للخصوصية هي خصوصية داخل الوحدة السكنية من خلال عزل غرف الأولاد عن البنات وعزل فراغ الحرملك عن باقي أجزاء الوحدة السكنية، وتوفير غرفة لاستقبال الضيوف الرجال وأخرى للنساء.

ومن ضمن تلك المعايير عدم التعدي على حقوق المجاورين والآخرين، سواء كان ذلك بالتطاول في البنيان لكشف خصوصية الآخرين أو لحجب الريح عنه أو للتطاول والتفاخر على الآخرين. قال النبي ﷺ: (لا تقوم الساعة حتى يتطاول الناس في البنيان) وقال أيضا عليه الصلاة والسلام:(لا تستطيل عليه بالبنيان فتحجب عنه الريح إلا بإذنه)، وقال تعالى: ﴿قُل لِّلۡمُؤۡمِنِينَ يَغُضُّواْ مِنۡ أَبۡصَٰرِهِمۡ﴾ سورة النور آية (٣٠)، وقال عز وجل: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَدۡخُلُواْ بُيُوتًا غَيۡرَ بُيُوتِكُمۡ حَتَّىٰ تَسۡتَأۡنِسُواْ وَتُسَلِّمُواْ عَلَىٰٓ أَهۡلِهَاۚ ذَٰلِكُمۡ خَيۡرٞ لَّكُمۡ لَعَلَّكُمۡ تَذَكَّرُونَ ﴿٢٧﴾ فَإِن لَّمۡ تَجِدُواْ فِيهَآ أَحَدٗا فَلَا تَدۡخُلُوهَا حَتَّىٰ يُؤۡذَنَ لَكُمۡۖ وَإِن قِيلَ لَكُمُ ٱرۡجِعُواْ فَٱرۡجِعُواْۖ هُوَ أَزۡكَىٰ لَكُمۡۚ وَٱللَّهُ بِمَا تَعۡمَلُونَ عَلِيمٞ﴾ سورة النور آية (٢٧-٢٨).

ومن ضمن تلك المعايير أيضا احترام الطريق والمرافق في البيئة المعمارية الإسلامية سواءً كان ذلك بغض البصر أو إماطة الأذى عن الطريق. قال النبي ﷺ: (إياكم والجلوس في الطرقات فإذا أبيتم إلا المجلس فأعطوا الطريق حقه.

فقالوا : و ماحق الطريق يا رسول الله ؟ فقال : غض البصر، وكف الأذى، ورد السلام، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.

وقال أيضا عليه الصلاة والسلام : (الإيمان بضع وستون أو سبعون شعبة أدناها إماطة الأذى عن الطريق وأرفعها لا إله إلا الله) [١٠].

وفي الفصل الثالث من هذا الكتاب سنعرض للعمارة الإسلامية بشيء من التفصيل بإذن الله تعالى.

تأثير النظم الاقتصادية على التجديد المعماري :

يرتبط الاقتصاد بالمجتمع ويؤثر على أوجه النشاط في المجتمعات، وينعكس على المجتمع وعلى عمارته، وهو بذلك يترجم و يجسد مبادئه واتجاهاته. وفي بدايات القرن العشرين بدأت تتشكل الأفكار المعمارية الجديدة ومشاريع الإسكان المرتبطة بالأنظمة الاقتصادية الحديثة كالنظام الاشتراكي والرأسمالي والإسلامي، وبدت واضحة للعيان لعدة أسباب قد يكون أهمها هو وضوح مبادئ تلك الأنظمة وتسللها إلى مختلف مجالات الحياة ومنها العمارة والبناء. وقد خضعت العمارة الإسلامية إلى تهجين غير مقصود من قبل النظام الاشتراكي والرأسمالي حيث عاشت معظم الدول العربية وبالذات منطقة الخليج العربي ما يسمى بعصر الطفرة وكثافة الطلب على البناء والتشييد الأمر الذي أدى إلى التعاقد مع شركاء أجانب من الاتجاه الشرقي «الاشتراكي» والاتجاه الغربي «الرأسمالي «الأمر الذي سبب لها فقدان للهوية العربية الإسلامية في فترة السبعينات من القرن الماضي.

وقد يلاحظ البعض تأثير المدارس المعمارية الشرقية في ألمانيا وغيرها على فكر المعماريين العرب الذين ابتعثوا للدراسة هناك حيث رجع معظمهم محملاً بالفكر الاشتراكي وأنماط الحياة العمرانية في تلك المجتمعات.

تأثير النظام الاقتصادي الاشتراكي :

يتميز النظام الاقتصادي الاشتراكي بتملك الدولة لكل عوامل الإنتاج وأدواته كالمصانع والأراضي والعقار والآلات، وقد أثر هذا النظام الاقتصادي على مجال العمارة حيث كانت بصمته واضحة عليها.

يشير «الجوهري - المدني» إلى أن النظام الاشتراكي أثر في العمارة من خلال استخدام أسلوب النمطية أو ما يسمى (Proto type) وكذلك الاهتمام بـ «الكم» على حساب «الكيف»، وقد نشاهد ذلك واضحا في مشاريع الإسكان التي كانت تبنى في روسيا وألمانيا حيث تتكون الوحدات السكنية من غرفتين مع منافعهما على شكل مجمعات سكنية متراصة لا تراعي الجوانب الإنسانية في الإسكان ولا تأخذ في الاعتبار الحد الأدنى من رفاهية المعيشة فيها. فالكل مشتركون في كل شيء وهي ملك للدولة، والفرد لا يملك شيئاً!!

وعندما وصل النازيون إلى السلطة بألمانيا، حاولوا بكل الوسائل إدخال النزعة الاشتراكية في مختلف مجالات الحياة ومنها المساكن والبناء، فأعطوا صورة جديدة للمباني في ألمانيا كي يستبدلوا النموذج القديم بآخر مصنع وجاهز لا يتعاطى مع فكر التراث والهوية [١١].

وقد كان المعماري الألماني «ميزفان ديرو» من المعماريين الألمان الأوائل الذين إتبعوا هذا الفكر الاشتراكي من خلال إقامة معرض للسكن الحديث في مدينة شتوتغارت عام ١٩٢٧م بالاشتراك مع مجموعة مهندسين ألمان، بالإضافة إلى المعماري السويسري «لوكوربوزييه» الذي كان يحمل التوجهات نفسها حيث لوحظ في ذلك المشروع السكني أنه مشروع لا يراعي الجوانب

النفسية في السكن المريح وأنه ألغى كل عناصر الهوية الألمانية من المشروع.

تأثير النظام الاقتصادي الرأسمالي :

يتميز النظام الاقتصادي الرأسمالي بالملكية الفردية لعناصر الإنتاج والحرية الاقتصادية للأفراد في إدارة النشاط الاقتصادي بهدف تحقيق المكسب المادي.

وقد انتشرت بعض المفاهيم الرأسمالية المعروفة مثل «دع ما لقيصر لقيصر ومالله لله» وأيضاً «الغاية تبرر الوسيلة».

ومن خلال هذه المبادئ، فان العمارة في النظام الاقتصادي الرأسمالي هي عمارة لا تراعي قواعد مبدأ الجوار والقصد والاعتدال وأصولها، حيث نلاحظ في كثير من الدول التي تنتهج هذا النظام أن البناء هناك يكون على حساب المجتمع فأصبحنا نرى تلك القصور والفلل الفخمة قد بنيت على أنقاض بيوت فقيرة دون مراعاة لمشاعر الساكنين في تلك المجاورة السكنية ودون الاهتمام بحفظ التراث والآثار، وقد أدى ذلك الى زيادة التفاوت الاجتماعي والتميز الطبقي بين سكان المدينة. كما نلاحظ اليوم انتشار المجتمعات السكنية عالية التكلفة والتي لا يستطيع أي شخص أن يتملكها.

تأثير النظام الاقتصادي الإسلامي :

يُعرف النظام الاقتصادي الإسلامي بأنه مجموعة القواعد والنظم والأحكام المنبثقة من الشريعة الإسلامية المتعلقة بمختلف مراحل ومستويات الفعاليات الاقتصادية الفردية والجماعية ومستوياتها. ويشير «شحاته» إلى أن النظام الإسلامي يتمثل من حيث المقصد في إشباع الحاجات وتوفير حد الكفاية ليحيا الناس حياة طيبة، ومن حيث المنهج، فإنه يقوم على التكافل والتعاون الاجتماعي، ومن حيث التشريع فإن هذا النظام الاقتصادي

هو مستنبط من القرآن والسنة ويعمل على حفظ الدين والعقل والنفس والعرض والمال [١٢].

وفي مجال العمارة والعمران فإننا نلاحظ تأثير هذا النظام الاقتصادي واضحاً على العمارة والعمران في المجاورة السكنية في المجتمعات الإسلامية والمجتمعات التي تطبق ذلك المبدأ. حيث انعكست مبادئ هذا النظام الاقتصادي على البيئة العمرانية الإسلامية من خلال القصد والاعتدال في شكل المسكن، فلم يكن هناك منازل أفخم من غيره بل الجميع سواسية وقد نلاحظ ذلك في البيئة الإسلامية العمرانية فاللون واحد والشكل متشابه وكذلك ارتفاع المساكن لم يكن متفاوتاً بل كان في معظم الأحيان موحداً وذلك بسبب احترام الجوار وتوفير الخصوصية له. بالإضافة إلى أن النظام الاقتصادي الإسلامي يتبنى فكر المصلحة الجماعية، وهذا ما انعكس بالفعل على العمارة في المجتمعات الإسلامية حيث حددت تلك المجتمعات والمجاورات السكنية حدود حيازة المسؤولية والمسؤولية المشتركة لما له من مصلحة عامة. وبذلك يكون النظام الاقتصادي الإسلامي قد عكس مبادئه وقيمه على تلك البيئة.

تأثير السياسة والاستعمار ونقل الثقافة :

مارست العمارة دوراً واضحاً في مسألة الاستعمار والقرار السياسي حيث تم توظيف العمارة لأغراض سياسية في أماكن ومناطق لتحقيق مبادئ معينة ومقصودة. ويشير «وزيري» إلى أن أول و أهم المؤثرات التي ساهمت في تكوّن العمارة والفنون الإسلامية هي البواعث الدينية والنظم السياسية والتشريعية والتعاليم الدينية. وتتشكل العمارة التي تخضع لظروف سياسية معينة بحسب المعطيات الموجودة فتأخذ أحيانا طابع المحتل لتغير النظرة الثقافية للاحتلال وتأخذ أحيانا طابع التكتلات المنغلقة لتغيير التركيبة الديموغرافية وتأخذ أحيانا طابع الحداثة الغربية لطمس معالم الهوية المحلية وإخفائها [١٣].

ولعلنا نستشهد على ذلك ببعض الأمثلة، حيث تذكر «شيا» أن مدينة تشينغداو الصينية تعرضت لاحتلال من قبل ألمانيا واليابان، وانتشرت فيها العديد من المباني القديمة ذات الأنماط المعمارية التي تحمل مفردات معمارية أجنبية مستوردة كالمساكن العامة والمباني الخدمية، ولازالت هذه المباني موجودة «إلا أن هذه البنايات بطرازها الأجنبي تثير في نفوس الصينيين ذكريات المهانة والذل الذي تعرضوا له في هذه المدينة وقت احتلالها»، و تستطرد الكاتبة قائلة بعد أن استعمر الألمان المدينة أعادوا بناء مدينة تشينغداو على الشكل الذي يلبي احتياجاتهم ومتطلباتهم، بالإضافة إلى ذلك، هدموا البنايات المحلية والتقليدية الصينية، وطمسوا ملامح العمارة المحلية الصينية، وأحلوا مكانها طرزا معمارية أوربية حديثة، حيث تغيرت الصورة الذهنية للمدينة وأسلوبها المعماري بعد حوالي ١٧ سنة من الاحتلال الألماني لها. ومن هذه المباني،التي لازالت شاهدة على الاحتلال الألماني، المكتب الرسمي للحاكم العام الألماني ومكتب إدارة الشرطة ومنزل الحاكم العام ومحطة القطار وكنيسة يسوع وكاتدرائية القديس ميكائيل وفلل باداقوان [١٤].

(انظر الشكل (٢-٣٠)).





شكل(٢-٣٠) : أحد المباني ذات الطابع الاوروبي في تشينغداو، المصدر : صحيفة الشعب اليومية اونلاين - الصين، بتاريخ ١٠ يوليو ٢٠٠٨ م.

ولدينا مثال آخر يشير إليه «القديمي» يتعلق بالاستعمار النمساوي للبوسنة بعد تراجع السيطرة العثمانية، فقد قامت الحكومة النمساوية بتنفيذ خطة عمرانية متكاملة لطمس الهوية العثمانية وإحلال الهوية النمساوية لإثبات وجودها وقوتها في سراييفو، ودبرت قوات الاحتلال إحداث حريق هائل عام ١٨٧٩م بهدف «إحلال الطراز المعماري الأوربي محل الطراز العثماني الذي لم ينل إعجاب النمساويين» [١٥]. (انظر الشكل (٢-٣١) القصر الرئاسي أول مرفق حكومي في الحي النمساوي ١٨٧٩م)



شكل (٢-٣١) : القصر الرئاسي أول مرفق حكومي في الحي النمساوي بني سنة ١٨٧٩

المصدر : موقع قناة الجزيرة على الانترنت.

وكذلك الحال في ماليزيا حيث التباين والاختلاف الواضح في أشكال المباني و المساجد خاصة وذلك بسبب الاستعمار والثقافة العرقية واختلاف البيئة والتوجهات السياسية، حيث خضعت ماليزيا للاحتلال البرتغالي مابين الفترة (١٥١١- ١٦٤١م) والهولندي ما بين الفترة (١٦٤١-١٧٩٥م) والبريطاني ما بين الفترة (١٧٩٥-١٩٥٧م) ومع ذلك لا يزال الكثير من المباني شاهدة على ذلك الاحتلال المتعاقب عليها، فقد وثق «الغفار» في

كتابة «الهندسة المعمارية للمستعمرة البريطانية في ماليزيا» تلك المباني وصنفها، وأظهر تشابه طابعها مع العمارة المحلية في بريطانيا [١٦].

وفي فلسطين وظفت العمارة لخدمة المشروع الصهيوني، فعلى مستوى الهوية العمرانية يذكر «حداد» أن القادمين إلى فلسطين روجوا لفكرة «الشعب بلا أرض الآتي إلى أرض بلا شعب»!!

فركزوا على العمارة وطوعوها لعكس الهوية الخاصة بهم وإبراز ادعاءهم حقا في أرض فلسطين، وشكلوا منظمة تعرف باسم «شاغ تل ابيب» من معماريين قادمين من بعض دول أوروبا، وكانت مهمتهم تطوير مفهوم الوطن الجديد ليحل محل الوطن الاغترابي ويعطي طابع الدولة اليهودية [١٧].

وأما على مستوى التغيير الديموغرافي، فان الحكومة الصهيونية جندت معمارييها نحو التوجه الاستيطاني حيث يذكر «وايزمان – سيغال» أن الحكومة الإسرائيلية تهدف إلى ترسيم الحدود من خلال أماكن تواجد المستوطنات، كما أن هناك وظيفتين للمستوطنات وظيفة مدنية وأخرى عسكرية فالمدنية توفير المستوطنات والوحدات السكنية لليهود المهاجرين إلى فلسطين، وأما العسكرية فتوفير وترسيم الحدود الإسرائيلية.

بالإضافة إلى ذلك أن هذه المستوطنات تستهدف تقطيع أوصال الأراضي الفلسطينية بهدف عزل المدن والمناطق الفلسطينية عن بعضها البعض وتغيير التركيبة الديموغرافية للسكان الفلسطينيين. ويذكر المصدر السابق أنه أجرى حواراً مع مصمم مستوطنة «معالية ادوميم» الموجودة على مشارف مدينة القدس، حيث أكد المصمم أنه ارتكز تصميم هذه المستوطنة على مبدأ السيطرة على المناطق المجاورة وعلى الطريق المؤدي من القدس إلى أريحا من دون الأخذ بالاعتبار المعايير العمرانية في اختيار مواقع المدن والمجاورات السكنية.

وقد ارتكزت المعايير التي استخدمها المصمم في تهيئته لمستوطنة «معالية ادوميم» على النقاط التالية:

١- الاستيلاء على أكبر قدر ممكن من الأراضي الفلسطينية.
٢- إقامة المستوطنة على تلال مشرفة على المدن والقرى المحيطة للتمكن من السيطرة على ما جاورها عسكرياً واستراتيجياً.
٣- قابلية المستوطنة للتوسع المستقبلي لاستيعاب أكبر عدد ممكن من اليهود المهاجرين إليها ولمنافسة مدينة القدس من ناحية السكان والموقع الاستراتيجي والسياسي.
٤- تصريف مياه المجاري والصرف الصحي للمستوطنة باتجاه مدينة القدس.

ويشير الكتاب إلى أن سياسات العمارة الإسرائيلية تقوم على بناء نظام السور والبرج في المستوطنات التي تبنيها حيث يحمي السور المستوطنة من الأعداء حسب وجهة نظرهم، ويقوم البرج بالمراقبة لتوفير الحماية لسكان المستوطنات. بالإضافة إلى كل ما تم ذكره، فإن العمارة الإسرائيلية اتخذت من أساليب وطرز المدارس الحديثة ملاذاً لها لمحو الهوية المحلية الفلسطينية وترسيخ الاتجاه الجديد للعمارة بهدف الحصول على هوية جديدة ليس لها امتداد أو جذور في فلسطين[١٨].

الاستشراق في العمارة :

اهتمَّ المستشرقون من كتاب وأدباء وفنانين ومعماريين بدراسة ثقافة شعوب الشرق وحضارتهم وطبائعهم وعلومهم ولهجاتهم ومعتقداتهم وتوثيق ذلك ليكون مرجعاً لمن بعدهم حول تلك الشعوب.

لم يكن الغرض من تلك الدراسات واحداً وإنما تعددت الأهداف ما بين التوثيق لنقل المعرفة والتهميش والتجسس بهدف نقل المعلومات والإحصاءات العسكرية والدراسات الديموغرافية وهكذا.

ويكفينا أن ننقل مثالاً واحداً يبين أهمية الاستشراق بالنسبة للأوروبيين حيث يقول «قطب» «كتب الفنان الألماني كارل هاج عام ١٨٥٨م قائلا: ليعلم هؤلاء الذين يبحثون عن مادة مثيرة يرسمونها أن يتوجهوا إلى القاهرة وليعلموا أن هناك قاهرة واحدة فقط، وعلى الفنانين أن يروها. فإني واثق من الحصيلة الرائعة التي سيعودون بها. إن كنوز الإلهام تكمن هناك على ضفاف نيلها وبين قلاعها ومساجدها، وفي شوارعها، وأزقتها ذات الطابع الشعبي العربي الأصيل.. الخ. هناك سيختلط خيال الفنان بهذا الواقع المثير حقاً ليجعل تلك الصور النابضة بالحياة أسطورةً فنيةً شرقيةً خالدةً»[١٩].

وحقيقة ما قاله «كارل هاج» هو الصواب حيث استمر توافد المستشرقين على مصر وسوريا والعراق والمغرب وتونس وبعض الدول العربية كالجزيرة العربية وما جاورها إلى وقت قريب.

إلا أن بعض المستشرقين مثال «كريسويل» و«لين بول» و«ديتز» و«روسوه» وغيرهم كثيراً ما تعصبوا لدراساتهم الاستشراقية المعمارية والأثرية حيث كان هدفهم تجريد العرب والمسلمين من كل تراث ثقافي ومادي ونسبته إلى غيرهم. في حين ينقل «الصاوي» عن «بريجز» في كتابه «العمارة المحمدية» قوله إن أولئك الذين يجحدون فضل العرب في تاريخ العمارة يعتبرون أن العرب كانوا مجردين من أي تعبير فني وأن مبانيهم أقيمت على أيدي العمال الأقباط أو البيزنطيين أو الفرس، وإن أقوى حجة ضد هؤلاء الكتاب هي أنهم لم يتفقوا إلا على تجريد العرب من كل فضل لهم، ولكنهم أنفسهم اختلفوا أشد الاختلاف في منابع الإيحاء المشترك، وبينما يحدد «جاييه «هذا المنبع في مصر القبطية يحدده «ديو لافيا» في بلاد فارس وشمال الجزيرة ويحدده «هافل» في الهند ويحدده «ريفويرا» في روما وكل هؤلاء العلماء مقتنعون تماما بسخافة آراء الآخرين»[٢٠]. لا مجال للشك هنا أن الهدف كان واضحاً وهو تجريد العرب من كل فضل وثقافة!

كما يذكر «الصاوي» في بحثه السابق عناصر عديدة توضح مدى غيظ المستشرقين على العرب المسلمين من خلال دراساتهم، وتمثل ذلك في انتقاء بعض الدراسات وتأويلها حسب أهوائهم كنظرية الفراغ العربي بمعنى أن الجزيرة العربية كانت خالية من أي مظاهر معمارية أو فنية، وبتأويلهم لأقـوال ابـن خلدون مؤسس علم الاجتماع العمراني لما فيه مصلحتهم، وبانتقائهم للروايات التاريخية التي تخدم مشروعهم الاستشراقي مشيرين إلى أن المعماريين كانوا من غير العرب، حيث يذكر الباحث أن «كريسويل «يرى أن الذي بنى الكعبة هو شخص حبشي اسمه «باقوم» وفق روايات عربية غير محققة !! وأن بناء المسجد النبوي لم يكن في عهد النبي ﷺ حتى سنة ٥٤هـ / ٦٧٤ م، كما أثار المستشرقون بعض المغالطات التاريخية والثقافية مثل كون أصول المساجد أصولا كنسية، وأن العرب اقتبسوا بعض المفردات المعمارية من الفرس والأقباط كالمنبر والمحراب والمقصورة والمئذنة والمثلث الكروي والعقود [٢١].

ولم يكتف المستشرقون بذلك، بل ذهبوا إلى أن أول من نظَّر للعمارة هو الروماني «فيتروفيوس» ٨٥ ق.م، وفي الحقيقة أن نبي اللّه إدريس «أخنوخ» هو أول من علم المصريين القدماء تخطيط المدن والحساب وعلم الفلك حيث أيد اللّه عز وجل النبي إدريس بمعجزة العلم والمعرفة، وذلك قبل ٦٠٠٠ سنة حسب بعض الروايات التاريخية، ومن بعد ذلك استخدم الفراعنة تلك المباني «الأهرامات» كمقابر لدفن موتاهم،والدليل على ذلك الحفريات الأخيرة في الأهرامات التي توضح رسومات أُناس راكعين وساجدين للّه تعالى ويرفعون أيديهم إلى السماء كهيئة الذي يدعو بعد الصلاة، كما أن بناء «أبو الهول» كان بعد بناء الأهرامات ولم يبن معها بدليل عدم احتوائه على نفس الرسومات التي كانت موجودة في تلك الأهرامات.

كما يشير «ثويني» إلى أن من أطلق تسمية العمارة الإسلامية حتى القرن

التاسع عشر هم المستشرقون الغربيون، ولم يكن مفهوما واضحا في ذلك الحين حيث لم يعرف هل كان ذلك المفهوم بمعنى أنه جزء من التراث للشعوب الإسلامية أم أن العمارة الإسلامية هي عمارة تعكس مبادئ الإسلام.

وتجنى آخرون على العمارة الإسلامية بأن لها أصولاً رومانية ويونانية وبأنها محرفة من دول شرق آسيا، ويذكر المصدر السابق أن المستشرقين أسموها عدة أسماء للدلالة على مفهوم تلك العمارة مثل العمارة الساراسينية في مصر التي استعملها «لان بول» عام ١٨٨٦م، للدلالة على أهل البادية، والعمارة المحمدية التي استعملها «مارتين بريكس» عام ١٨٨٢م، والعمارة العربية، و العمارة الإسلامية، و العمارة الأمورية التي أطلقها الإسبان على المغاربة و هكذا. كما يشير المصدر السابق إلى آراء مختلفة حول مفهوم العمارة الإسلامية كرأي المعماري رفعت الجادرجي حيث يقول «إن إصلاح العمارة الإسلامية هو من الصيغ الثقافية أكثر من كونها دينية». في حين ينفي «سبيرو كرستوف» وجود عمارة ترتبط بالدين الإسلامي ويعتبرها ناتجاً للتلاقح الثقافي والفني للدول التي عاصرت الدولة الإسلامية [٢٢].

ولابد أن يختلف الدارس مع المستشرقين غير المنصفين، فمعلوم أن العمارة الإسلامية هي مجموعة مفاهيم أو أفكار روحية لا شكلية تقتبس من العقيدة الإسلامية مبادئها وتطبيقها حتى يتم الحصول على ذلك التصميم المعماري المطلوب، كما أنه من الممكن أن تتخذ العمارة الإسلامية عدة أنماط وأشكال مختلفة حسب موقعها وثقافة المجتمع التي توجد به. ومن هذه المفاهيم توفير الخصوصية الفردية للساكنين والضيوف واحترام حقوق الجوار ودفع الضرر وتحديد حدود الحيازة والمسؤولية والنهي عن البذخ والإسراف والتعالي في البنيان وتحريم تصوير ذوات الأرواح وتجسيمها والمحافظة على البيئة والنهي عن اتخاذ الطرقات مجالس وغيرها كثير.

وهو ما سنتطرق له في الفصل الثالث إن شاء الله تعالى.

فهي بذلك عمارة مرنة تتشكل بالطابع العصري دون أن تمس مبادئه المقتبسة من الدين. ثم أقول لهؤلاء الذين يتحججون بل ويتبجحون على أن عمارة المسلمين هي عمارة لا ترتبط بالإسلام.. أقول لهم: إن العمارة البيزنطية المسيحية وعمارة الكنائس لا تقتبس مبادئها من الدين المسيحي حيث أن من مبادئ الدين المسيحي الزهد والتقشف والرهبانية ومع ذلك نجد كنائسهم كبيرة وبارزة وفيها كثير من التكلف والبذخ والإسراف الأمر الذي لا ينطبق مع المبادئ التي ذكرتها كالزهد والتقشف والرهبانية.

وبالنسبة إلى المفردات المعمارية التي ارتبطت بالعمارة الإسلامية كالقبة والأقواس والزخارف والزجاج الملون والسلسبيل والفناء الداخلي والأرابيسك والخزف والسجاد الإسلامي، ما هو إلا نتاج ثقافي وفكري اشتهر به المسلمون وعرفوا به بغض النظر عمن طورها وأوجدها في الأصل لأن المعرفة الإنسانية كانت تنتقل حسب الحاجة والاهتمام،ولكن بعض المستشرقين حاولوا تسييس تلك الابتكارات بسبب تحيزهم ضد الشرق.

ويجب أن لا نغفل بأن المسلمين طوروا الكثير من الفنون الموروثة ولا أرى فيما ورثه المسلمون عيباً سواءً كانت تلك المفردات المعمارية من إبداع المسلمين أم أنهم طوروها وأضافوها إلى العمارة والبناء.

العمارة وحفظ الأمن القومي :

إن أول من استخدم النظام الشبكي في التخطيط العمراني هم الرومان وذلك لأسباب أمنية، حيث كان الهدف من هذا النظام هو السيطرة السريعة للجنود عند قيام السكان بمحاولة لقلب نظام الحكم أو التمرد على الحاكم. كما سبق وأن استعرضنا في هذا الكتاب استخدام الأسوار في الفصل بين الجماعات والطوائف والمذاهب لتقليل الاحتقان الطائفي

في بلفاست وغيرها كثير كجدار برلين الذي أنشئ بسب اختلاف النظام الاقتصادي بين ألمانيا الشرقية والغربية، لذلك استخدمت العمارة على مرِّ العصور لوظيفة السكن وحفظ الأمن إذا تطلب ذلك.

ويشير «باهمام» إلى أن الجريمة ترتبط ارتباطاً مباشراً بطبيعة الحياة في المدن، وناقش المعايير التصميمية التي تساهم في خفض فرص حدوث الجريمة في الأحياء السكنية وهي كالتالي :

١ - وضوح مداخل الحي كالبوابات بهدف التمكن من السيطرة عليه للداخل والخارج.

٢ - استخدام الشوارع ذات النهايات المسدودة مثل (cul-de-sacs) أو الساحات أو الشوارع بالنظام الحلقي، وذلك للحدِّ من دخول العابرين وصعوبة اختراق تلك المجاورة السكنية غير النافذة إلى الخارج.

٣ - استخدام شبكة للطرق تحدُّ من سرعة السيارات.

٤ - تمكين السكان من المراقبة داخل المجاورة السكنية وملاحظة الأنشطة المشبوهة.

٥ - تحديد حدود الحيازة المشتركة للفراغات في المجاورة السكنية، مما يُمكِّن السكان من تقوية بتقوية العلاقات الاجتماعية وتميز الغرباء بسهولة.

٦ - تنسيق الأحياء وتوفير المرافق والمحلات والإضاءة والتشجير، لتشجيع السكان على الخروج من الوحدات السكنية والتحرك داخل تلك الفراغات الجميلة.

٧ - إلغاء جميع المناطق التي يمكن استخدامها بطريقة سلبية والتي قد تُمكِّن الغرباء أو المجرمين من الاختباء فيها.

وخلص الباحث السابق في بحثه الذي قارن فيه بين عدة أحياء في مدينة الرياض إلى أن نسبة (١٦,٧٪) تحققت في المعايير السابقة في الأحياء ذات النظام الشبكي، في حين بلغت المعايير السابقة نسبة (٩٠,٦٪) في حي السفارات الذي يطبق معايير الحي التقليدي من الطرق ذات النهايات المسدودة إلى توفير العناصر اللازمة للمنشأة كتوفير التشجير والمناطق المظللة والنوافير والساحات المفتوحة والحدائق. كما تحققت نسبة (٨٤,٤٪) في حي إسكان وزارة الخارجية [٢٣].

ويشير» النعيم» إلى ضرورة تبني فكرة النقد التخطيطي كجزء من النقد المعماري، ويدعو إلى فهم آلية إنتاج المبنى، كما دعا الباحث إلى أن يصمم المخططون المدن بالمشاركة مع فئات المجتمع المختلفة لا أن يخططها العقاريون، حيث ينصب تفكير العقاريين على استغلال كل شبر وكل متر مربع داخل المجاورة السكنية على حساب الراحة النفسية للساكنين وعلى حساب وجود فراغات وأماكن منسقه لممارسة الأنشطة والهوايات ويترتب على ذلك عدم الاهتمام باستخدام أنظمة تخطيطية تراعي الحفاظ على الجوانب الأمنية داخل المجاورة السكنية [٢٤].

تأثير المجتمع على التجديد المعماري :

إن العمارة هي التي تحدد مدى رقي المجتمع وحضارته، حيث نشأت وتطورت العمارة من خلال المجتمعات، والتاريخ يحدثنا عن بعض الحضارات القديمة كالحضارة الفرعونية التي انعكس مستوى العلوم والرياضيات والفلك لديهم على عمارتهم فتشكلت على نفس تلك الشاكلة وورثت عمارتهم حضارة ذلك المجتمع. وكذلك الحال في عمارة المسلمين حيث استطاعت تلك العمارة مواكبة ثقافة المجتمع والحفاظ على البيئة وتطبيق المعايير الإسلامية التي تخص البناء، لذلك فإن دور المجتمع هو دور أساسي في إدارة العملية المعمارية وبناء المجتمعات السكنية.

يشير «الناجم – الشريف» إلى أن العمارة المحلية في المملكة أو الخليج تجاوزت معايير النمو للخلفية الثقافية والاقتصادية والبيئية، ومن هذه المظاهر التعدي الاجتماعي، حيث يؤكد الباحثان إلى أن تعدد الوظائف والاستعمالات في تخطيط المدن يحصل فيه تجاهل للتركيبة السكانية وقيمها وعاداتها الاجتماعية. ويستدل الباحثات على ذلك بما يحصل في مدينة الرياض حيث ترهل الأحياء السكنية واختناقها أدى إلى هجرتها للبحث عن أحياء أكثر هدوءاً، بالإضافة إلى تغير استخدام الأراضي من سكني إلى تجاري وما يصاحبه من ضجيج وعمالة وافدة الأمر الذي يكسب هذا الحي صفة الحي التجاري وليس حياً سكنياً. وقد عرض الباحثان لمثالين من أجل توضيح تأثير البعد الاجتماعي، المثال الأول من مدينة دبي والآخر من المملكة العربية السعودية، أما ما يحصل في دبي فإنه قد بلغ عدد سكانها مليوناً وربع نسمة، عدد المواطنين بينهم هو (١٥٠) ألفا فقط (إحصائية عام ٢٠٠٤م) الأمر الذي يوضح حجم المعاناة من اختفاء لنموذج الهوية المحلية وإيجاد مجموعات (Clusters) من عدة مجتمعات متنوعة ومتنافرة من مختلف دول العالم و دياناته ومذاهبه.

وأما المثال الآخر فهو في المملكة العربية السعودية وتحديدا بالمنطقة الشرقية حيث حدد المخطط الهيكلي للمنطقة الشرقية الخطوط العريضة لعملية التنمية العمرانية والمستقبلية، وعند تقويمه اتضح أن هناك تأثيرات اجتماعية بسبب تبين فكرة ردم الشواطئ السياحية والترفيهية وذلك يؤثر على الحياة الاجتماعية في تلك المدن بسبب المشاكل الاقتصادية التي تكون مصاحبة لعملية الردم [٢٥].

لذلك فان دور المجتمع هو دور رئيسي في صناعة البيئة المبنية. ومن هذا المنطلق، نشأت «مؤسسة الجادرجي من أجل العمارة والمجتمع»، في بيروت – بفعل اقتناع المؤسسيين بحاجة المجتمع إلى حركة فكرية وحسية تهتمّ بقضايا البيئة المعمرة، بحيث تشمل العمارة وتداخلها مع معيشة المجتمع

وأفراده»، وذلك لأن العمارة هي ضرورة حضارية تعبر عن تماسك اجتماعي متوافق مع أفراد المجتمع ومتضمن لأنظمة وسلوكيات المجتمع المدني.

كما يشير المؤسسون في مسودة الأهداف الخاصة بهذه المؤسسة الى أن العمارة الجيدة لا تقتصر على النخب المقتدرة فقط، وإنما هي «ضرورة سيكولوجية حيوية لأنها وليدة حاجة مركبة تؤثر بشكل دائم وفعال بكافة سلوكيات الإنسان فهو يعيش فيها وبقربها وحولها، ويكون في غالب معاشه اليومي بين جدرانها أو في شوارعها».

وقد شكلت نواة هذه المؤسسة إعادة التفكير في دور المجتمعات الإنسانية في تشكيل البيئة المعمارية والعمرانية ككل، فتمَّ تشكيل المجالس البلدية في المملكة العربية السعودية لتقريب الفجوة بين أفراد المجتمع ونقل آراء المجتمع إلى أصحاب القرار في البلديات ومشاركتهم في الآراء التنموية للمدن.

رغم تحفظي على أداء بعض المجالس إلا أنها تعدُّ من الممارسات المجتمعية الراقية حيث الشفافية وتبادل الآراء وكنت أتمنى مشاركة القطاع الخاص في تلك المجالس بالإضافة إلى مستشارين أكاديميين ليكتمل نصاب المجلس، مع إعطائه صلاحيات أوسع لاتخاذ القرارات بالمشاركة مع البلديات ضمن صلاحيات محددة وبالمشاركة مع الإدارة العليا للبلديات.

العولمة الكونية :

يعرف «موس – مايكل» العولمة بأنها «زيادة التفاعل والاندماج بين أنشطة المجتمعات الإنسانية وبخاصة الأنشطة الاقتصادية في مختلف أنحاء العالم [٢٦]. وتشير «آل سعود» إلى أن العولمة هي نظام أمريكي يريد فرض سلوكياته وثقافته على الآخرين لأنها تستولي على القوة الإعلامية، وتؤكد على أن من أهداف العولمة وأثارها الهيمنة على اقتصاديات العالم من قبل الولايات المتحدة الأمريكية، إذ تسعى الولايات المتحدة إلى السيطرة على الشركات الأمريكية الكبرى للتحكم في اقتصاد الدولة، وإلغاء النسيج

الحضاري والاجتماعي، وتدمير الهويات القومية والثقافية للشعوب [٢٧].

إن نشوء العولمة مرتبط ببعض التغيرات الإلكترونية كالاعتماد على الانترنت في كثير من المجالات ومنها التبضع والشراء والبيع، حيث تعتبر سوق العمارة ومواد البناء والتصاميم الهندسية والتقنيات الهندسية الحديثة في مقدمتها.

ويشير «ضاهر» إلى أن «العولمة نظام اقتصادي وسياسي وثقافي قد يؤدي إلى تفكيك الهويات المحلية التي تقف في طريقه في ظل العولمة» كما يؤكد الباحث على أن الحداثة التي يعيشها الغرب ماهي إلا نتاج لتطوره الاقتصادي و الثقافي والاجتماعي والسياسي، وأن أي اقتباس لتلك المفاهيم من قبل مجتمعات أخرى سوف يؤدي بها إلى التغريب وليس إلى الحداثة [٢٨].

ويرى «النعيم – السواط» أن المنافسة بين الشركات العالمية المتطورة في ظل اتفاقية التجارة الدولية (GATT) ستؤدي إلى تخفيض أسعار السلع وزيادة جودة المنتجات، كما أن دور منظمة التجارة الدولية لن يقتصر على تجارة السلع والمنتجات فقط بل سيتعدى ذلك إلى قطاع الخدمات ومن ضمنها الخدمات الهندسية والاستشارية كما أكد الباحثان على ضرورة اندماج المكاتب المعمارية الصغيرة وتأسيس شركات كبيرة لتستطيع مواجهة الشركات العالمية والتنافس معها. ولفتا النظر إلىبعض العوائق والعقبات منها عدم وجود إطار قانوني لدمج تلك المكاتب الهندسية في المملكة. وهذا دور الهيئات الهندسية والجمعيات المهنية [٢٩].

ونحن إذ نشجع على مثل هذه الفكرة،نرى أن العولمة هي شر لابد منه، لذلك فإن الاندماج الأمثل إنما يكون على مراحل منها: اندماج المكاتب الهندسية في المملكة مع بعضها البعض أو حتى مع دول الخليج لتأسيس شركات كبرى، بمعنى أن يكون هناك «تكتل اقتصادي مشترك» لدول الخليج ، وذلك راجع لعدة أسباب منها أن تضمن أن لايقل الطلب على

الخدمات الهندسية وبالتالي نتجنب البطالة التي ستحصل لو أننا استمررنا على الوضع الحالي.

إن العولمة الاقتصادية لا تراعي مبادئ الاقتصاديات النامية حيث لا مكان للضعيف وهذا يتنافى مع مبدأ العدالة الإنسانية من خلال مبدأ «لا ضرر ولا ضرار» وكذلك يتنافى مع مبدأ وقاعدة «درء الضرر مقدم على جلب المنفعة». لذلك نحن بحاجة إلى التكتل ثم المنافسة من أجل البقاء في ظل هذه التكتلات الكبرى.

التعددية وتفاعل الثقافات :

تشير «الرحموني» إلى أن هناك عدة أمور أدت إلى إعادة بسط قضايا الهوية والخصوصية والحوار بين الثقافات والأديان كانهيار الحواجز الجغرافية بسبب العولمة الاقتصادية وانفتاح الأسواق. وانطلاقاً من ذلك المبدأ، ترى الباحثة أن الحوار يشكل جسراً للتفاعل والتشاور بين مختلف شعوب العالم، ويعزز القدرة على التعامل والتعاطي مع الآخر في مجالات الثقافة والدين والاجتماع والسياسة والاقتصاد، كما ترى أن تشكل التعددية الثقافية في المجتمعات العربية يؤدي إلى الرغبة في التعايش السلمي والعيش المشترك بين هويات ثقافية متعددة و متنوعة في نطاق احترام حقوق الإنسان وكرامته، حيث أدركت الدول أهمية حوار الأديان والثقافات لأنه ضامن للتعايش السلمي كما أنه يعبر عن رفض كل أشكال النزاع والعنف والتهميش لثقافة أو فئة أو عرق[٣٠].

و لا يكون الحوار الديني مجدياً إلا إذا عايش القضايا الراهنة وطبق حقوق الإنسان في سبيل الوصول إلى أيدلوجية ديمقراطية لضمان حقوق الشعوب وحفظ كرامتهم.

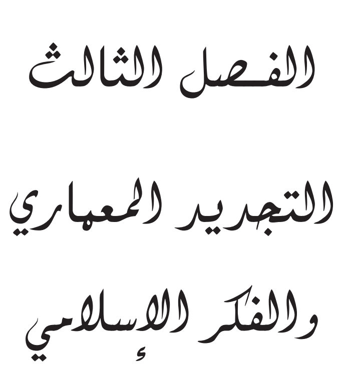
وقد نلاحظ دور العمارة هنا واضحاً في التأثير على ثقافة الشعوب من خلال المباني الدينية وبعبارة أوضح مباني المساجد، حيث اختلفت قرارات

المسؤولين في ألمانيا لنتائج الاستبيان الذي تمَّ إعداده في سويسرا عن إقامة مآذن المساجد في أوروبا، فكانت النتيجة أن الغالبية ضد بناء مآذن المساجد (٧٥٪ ضد ٤٣٪) وهذه النتيجة المتوقعة كانت بسبب الخوف من انتشار الإسلام في ألمانيا وأوروبا عموما كما اعترض كثير من المشتركين في الاستبيان على نتيجة الاستفتاء لأن ذلك ينافي مبدأ حقوق الإنسان، علماً بأنه يوجد في ألمانيا وحدها أكثر من ألفي مسجد وقد نجد أكثر من ذلك في النمسا،حيث يحاول المختصون في إقليم «الكيرنتن» بالنمسا استصدار قوانين جديدة لتحافظ على شخصية المكان المعمارية بهدف منع بناء المساجد حسب ما ذكر «سالمون كورن- نائب رئيس المجلس المركزي لليهود في ألمانيا» في مقابلة أجريت معه، حيث يذكر أن اليهود في ألمانيا كانوا يعلنون انتماءهم لألمانيا وفي نفس الوقت كانوا يعرضون أنفسهم للنقد من خلال تشييدهم لمعابد يهودية كانت تحمل الهوية والطراز الإسلامي بهدف التأكيد على أن أصول اليهودية هي أصول شرقية فأقحموا أنفسهم في عمارة غريبة على ذلك المجتمع ومختلفة بصرياً عن النسق العام للعمارة السائدة في ألمانيا آنذاك، لذلك تعرض اليهود للتهميش بحجة أنهم ليسوا ألمانا ولا ينظر إليهم بعين المساواة.ولعل «سالمون» كان متحيزاً هنا إلى حد ما إلى يهوديته، لأن العمارة هي جزء من المجتمع فلا نستطيع أن نحمل هذا التحيز ضد اليهود من خلال اختلاف النمط المعماري السائد للعمارة وتضادها مع المحيط.

ولعلنا نلاحظ أيضاً في مجتمعاتنا العربية الإسلامية تفسير كل شكل هندسي متقاطع على أنه «صليب» في المباني كما أشيع عن مصمم فندق برج العرب – دبي، على أن مصممه كان يقصد من التصميم تشييد أكبر صليب على وجه الأرض دون الاهتمام والالتفات إلى أن ذلك الشكل فكرة معمارية للمشروع بأكمله وهي فكرة الشراع والسارية، لذلك لاقت تلك الفكرة رواجاً عند البعض، بينما رفض العديد من العرب ذلك التصميم.

إن العمارة جزء من منظومة متكاملة للتفاعل مع الثقافات والحضارات ولا تنفصل عنها بأي حال من الأحوال، فبالإضافة إلى وظيفتها الأساسية، فإنها تعكس الهوية والدين والطائفة والعرق والحداثة وغيرها كثير.




الفصل الثالث
التجريد المعماري
والفكر الإسلامي

لقد وجدت نظرية التجديد في الفكر الإسلامي لمواجهة التيارات الفكرية المنحرفة، بسبب غياب المنهج الفكري الإسلامي عن المشهد العالمي، ولإزالة الركام الهائل من المفاهيم الخاطئة في الثقافة الإسلامية. كما أن التحولات الفكرية السريعة في المجتمعات الإسلامية أدت إلى ظهور أنماط جديدة من الانحرافات الفكرية التي تتستر بلباس التجديد والحداثة وهي بعيدة كل البعد عن ذلك [١].

إن العمارة الإسلامية باعتبارها رافدا من روافد الثقافة الإسلامية المعاصرة تحتاج إلى التجديد كما هو الحال في المنهج الثقافي و الفكري الإسلامي فالتجديد في العمارة الإسلامية إنما يرتبط ارتباطاً ثقافياً مع الإسلام لأنه يقتبس مبادئه منه،فالتجديد في العمارة الإسلامية هو امتداد لما سبق وليس رفضاً للماضي، والخروج عن السياق وعن المألوف ليس تجديداً بل هو تنكر للماضي وقطع للعلاقة به لأن التجديد يرد بمعنى التأصيل والإضافة وليس بمعنى الانعزال عن الماضي، فالارتباط بالمبادئ هو جزء من عملية التجديد في العمارة الإسلامية.

وحتى الرسالات السماوية أخذت مبادئها من الاعتراف بالماضي والإقرار بمشروعيتها ولم تأت رسالة سماوية بهدف التصحيح والهدم وتهميش الآخر حيث كانت كل الديانات السماوية ممهدة للدين الخاتم وهو الإسلام لأنها تحمل مضامين ومبادئ متشابهة في الكليات.

إذا ما هي المسوغات التي تدعونا إلى استخدام الأسلوب التجديدي في العمارة ولماذا يجب علينا أن نجدد العمارة أو نتبنى فكر العمارة الإسلامية.

لقد صيغت عناصر عديدة تؤيد ضرورة التجديد في العمارة، وتؤكد أهميتها، وهي كالتالي :

١- مواجهة التيارات المعمارية المعاصرة البعيدة عن المنهج الإسلامي:

تعرضت العمارة التي توجد في المجتمعات الإسلامية في القرن الماضي إلى كثير من المواجهات والأفكار السلبية التي تسئ إلى مفهوم العمارة الإسلامية كمنهج روحي ينعكس على المنهج الشكلي ليؤدي وظيفة معينة، فها نحن اليوم نشهد تيارات معاصرة تدعو إلى إلغاء الماضي والبحث عن الجديد كما هو الحال في الأسلوب التفكيكي في العمارة ولا أستطيع أن أسميها «المدرسة التفكيكية» كما يدعيه البعض لأن المدرسة تكون ذات منهج واضح وله أسس وقواعد قابلة للتجديد والتحديث وفق منهجها وأسلوبها. إن الأسلوب التفكيكي في العمارة هو تمرد على كل ماهو مكتسب من علوم ومعارف بحيث تكون البداية من الصفر، فلا احترام للمقياس الإنساني في الأسلوب التفكيكي ولا مراعاة لقواعد التصميم المتعارف عليها كاحترام المحيط والتوجيه الصحيح للمبنى وتوفير الفراغ الوظيفي، بل هو فراغ في الغالب بعيد عن الوظيفة فهو لايتبع الوظيفة أو لاينبثق من وظيفته كما أنه لا يعكس مفهوم الهوية المحلية، فهو أسلوب بلا هوية ولا وظيفة،إنما هو تجريد لبعض الأشكال الفلسفية على حساب الوظيفة والهوية والمعايير المعمارية المتعارف عليها. قد يدافع البعض عن أسلوب العمارة التفكيكية بحجة أن الهوية في عصرنا الحالي غير مهمة فهي عمارة عابرة للحدود وعمارة عالمية تنسجم مع أسلوب حداثة العولمة، وأقول له: ماذا عن باقي المعايير التي ذكرتها هل هي ثانوية ؟ أم أنها أهم من عامل الهوية ؟ كما يجب أن لانغفل أن الإنسان بطبعه يحب الانتماء إلى هوية وإلى مجتمع حسب ما أكده كثير من علماء الاجتماع الذين أشرنا إليهم سابقا.

إضافة إلى الأسلوب التفكيكي، هناك أسلوب آخر غزا المجتمعات العربية بالتحديد أو بمعنى آخر غزا المجتمعات ذات البيئة الصحراوية والتي يمثل الوطن العربي جزءاً كبيراً منها، وهو استخدام المباني الزجاجية في تلك البيئات الصحراوية !!

وهو الأمر الذي يتنافى منطقياً ويمنع من أقامتها في تلك البيئات لأن وجودها في بيئتنا يعتبر خطيئة مهنية مولودة من أب غربي، وحتى وإن وجدت التقنيات الكافية لمنع دخول الحرارة - كاستخدام ألواح زجاجية مزدوجة و استخدام أنظمة تكييف متطورة فان ذلك ليس مسوغاً كافياً لاستخدام ذلك الأسلوب . فالمعماري الناقد لا ينظر إلى تلك العمارة كشكل خارجي جميل فقط بل ينظر إليها بشمولية بحيث يستطيع معرفة ملاءمتها بيئياً ووظيفياً وعكسها للهوية واحترامها لثقافة المجتمع وليس ذلك فقط بل يقوم بتحليليها حتى بعد الاستخدام ليرى مدى ملاءمتها للمستخدمين ويقيس أيضا تكلفتها الفعلية وتكلفة ما بعد الاستخدام وتكلفة الصيانة وتكلفة استرجاع قيمتها إذا كان المبنى استثمارياً على سبيل المثال.

لقد شهدت مدينة الرياض في الفترة القريبة الماضية تشييد برجين مكتبيين وهما برج الفيصلية وبرج المملكة، حيث شكلا نقطة بصرية واضحة في مدينة الرياض لاختلاف أسلوبهما عن المتعارف عليه والموجود في حينه،حيث نلاحظ كلا المبنيين استخدم فيهما الزجاج بكثرة خصوصا في برج المملكة الأمر الذي لا ينسجم مع بيئة مدينة الرياض الصحراوية الجافة والحارة. (انظر الشكل (٣-١) و (٣-٢)).



شكل(٣-١) : برج الفيصلية – الرياض، المصدر : ويكيبيديا، الموسوعة الحرة على الانترنت، هذه الصورة مرخصة للاستخدام الحر من خلال منظمة «المشاع الإبداعي» بواسطة «مونفيل».



شكل(٣-٢) : برج المملكة – الرياض، المصدر : ويكيبيديا، الموسوعة الحرة على الانترنت، هذه الصورة مرخصة للاستخدام الحر من خلال منظمة «المشاع الإبداعي» بواسطة «كنج اليوت».

٢-الدعوة إلى التأكيد على القيم الإنسانية في العمارة ومراعاة الجانب الإنساني فيها :

ويكون ذلك ابتداء من الوحدة السكنية وانتهاء بالمنظومة السكنية المتكاملة، فلو أخذنا عاملاً واحداً من العوامل أو القيم الإنسانية التي غيرت مجرى العمارة المعاصرة وأزاحته عن المتعارف والمألوف كعامل الخصوصية مثلا لوجدنا كم أثر هذا العامل في عمارتنا، فالحاجة إلى مبدأ الخصوصية يتمثل في الوحدات السكنية ذات الخصوصية الشخصية من الداخل حيث يتمُّ فصل قسم الضيوف سواءً للرجال أو النساء عن باقي فراغات الوحدة السكنية للحفاظ على خصوصية الزائر ولكي ينسجم مع حركة أصحاب المنزل بكل راحة فنرى أن الرجال يأخذون راحتهم في الجلوس والاستمتاع بالحديث دون حرج لخصوصية المنزل الداخلية وكذلك الحال مع الزائرين من النساء فلا يستطيع من هم في المنزل من الذكور الاطلاع على النساء، فلذلك وفرت تلك الخصوصية حرية للزائرين حتى ولو ظهر شعر النساء كعورة فهن لايزلن في منطقة «الحرملك» وهو الجزء الخاص بهن وكذلك لا يستطيع الرجال الزائرون الاطلاع والتكشف على النساء في المنزل. وكذلك الحال مع استخدام الفناء الداخلي أو الانفتاح على الداخل لتوفير الخصوصية الداخلية وممارسة الأنشطة المختلفة وفق ضوابط شرعية وقيم إنسانية حيث بدأت تختفي هذه المظاهر المعمارية واستبدلت بأفنية خارجية، وكثيراً ما يضع أصحابها السواتر المعدنية عليها من كل الجهات وتقوم تلك السواتر بخنق المجاورين لها وسد منافذ الهواء عنهم ومنع الرؤية المباشرة للخارج في سبيل توفير الخصوصية له. (انظر الشكل (٣-٣)).

هذا بالنسبة إلى الخصوصية الداخلية، وأما ما يتعلق بالخصوصية الخارجية فقد وظفت العمارة الإسلامية العديد من المفردات المعمارية لذلك، مثل استخدام الرواشين والمشربيات على الشبابيك الخارجية لمنع

الرؤية المباشرة من الخارج إلى الداخل، وقد لاحظت حديثاً أن العديد من الساكنين في مدينة الرياض شرعوا في استخدام الشرائح المعدنية المتحركة في الشبابيك المطلة على الشوارع والجوار لتأمين الخصوصية لهم.



شكل (٣-٣) : إستخدام السواتر المعدنية بهدف حفظ الخصوصية. المصدر : جريدة الشرق الأوسط، العدد ١٠٨٣٦

أما بالنسبة إلى الخصوصية على مستوى المجاورة السكنية فإننا نلاحظ أن الأنظمة التخطيطية في العمران الحديث تستخدم أسلوب النظام الشبكي أو ما شابهه الأمر الذي يؤدي إلى اختراق الخصوصية من قبل الزائرين خصوصاً مع توفر وسائل الحركة الحديثة.

إن الدعوة إلى التجديد في العمارة ماهو إلا تأكيد على الحاجة إلى تلك المبادئ التي فقدت من عمارتنا المعاصرة وفقدت بالتالي عمارتنا رونقها ونضارتها.

٣- الحد من تدمير البيئة وتغير خصائصها :

سلكت العمارة المعاصرة مسلكاً في اتجاه تدمير البيئة المحلية من أجل إنشاء أكبر قدر ممكن من المجمعات السكنية، فأدى ذلك إلى ردم البحار وإزالة الأشجار وتغير مجاري السيول واستخدام التقنيات الميكانيكية في المباني والتي تؤدي إلى تدمير طبقة الأوزون وكذلك سوء استخدام الطاقة وتقليل النفايات والتلوث والتدهور البيئي. إن التعامل السيئ والمجحف في حق البيئة لهو جريمة تعاقب عليها الحكومات في دول العالم الأول المتقدم، إذ برزت نتيجة لذلك عدة جمعيات ومنظمات تدعو إلى الحفاظ على البيئة كجمعية السلام الأخضر (Green peace) وهي منظمة عالمية مستقلة تعنى بشؤون البيئة في «كندا»، وتهدف إلى الدفاع عن البحار وحماية الغابات والأشجار وإيقاف كل ما يغير من البيئة ويحدُّ من سلوكها الطبيعي وكذلك منظمة (LEED) والتي وضعت معايير للعمارة المستدامة أو العمارة الخضراء ومنظمة (BREEAM) في بريطانيا ومنظمة (Green Star) في استراليا، وأخيراً منظمة (QSAS) في دولة قطر الشقيقة والتي أنشئت عام (٢٠٠٨م) حيث كانت أبرز أهدافها تشجيع إقامة البناء الأخضر وتكريمه والمحافظة عليه و العمل على إزالة الحواجز التي تمنع من تبني أسلوب البناء المستدام وتقديم برامج لعضوية البناء الأخضر وإطلاق برنامج إعلامي للتأكيد على تقنيات البناء الأخضر، وكذلك لوضع نظام تصنيف المباني الخضراء على نفس الأسس المستخدمة من قبل منظمة (LEED) وأخيراً من أجل إنجاز برامج وجوائز تشجيعية للشركات والمؤسسات التي تتبنى هذا الفكر المستدام في مجال العمارة المعاصرة.

ومن أجل أن نكون منصفين، يجب ألا ننسى دور منظمة المدن العربية في الحفاظ على البيئة وعدم تدميرها حيث أنشأت المنظمة جائزة السلامة البيئية في مجالات النظافة العامة والسيطرة على الملوثات البيئية والضجيج،

وكذلك جائزة تخضير وتجميل المدن بهدف توسيع الرقعة الخضراء وإظهار الطابع الجمالي للحدائق والمتنزهات.

ينقل «المهندس» تقريراً عن الأمم المتحدة لعام (٢٠٠٧م) يشير فيه إلى أن الاستمرار في تدمير بيئة الإنسان ينعكس بصورة سلبية على صحة حياة الإنسان ونوعيتها، وأن معظم العادات الشعبية في مجالات البيئة هو أساليب غير جيدة وتؤدي إلى تدهور البيئة وزيادة نسبة التصحر ونقص كمية المياه الصالحة للشرب على حساب المساحات الخضراء مما يؤدي أيضاً إلى زيادة معدلات الفقر، وان هذا التلوث ماهو إلا نتيجة لتطور نمط حياة الإنسان وزيادة الكثافة السكانية وزيادة النفايات والفضلات مما يؤدي بالناس إلى الاتجاه نحو توليد الطاقة النووية مستقبلاً [٢].

ولما كانت المباني تستهلك، كما أشرنا سابقا في الفصل الأول،، ربع إنتاج الخشب وسدس إمدادات الماء العذب في العالم وخمسي الوقود، حيث تستهلك صناعة البناء في العالم ٤٠٪ من إجمالي المواد الأولية على مستوى العالم، فقد أصبح لزاما على المعماريين أن يعيدوا التفكير في أسلوب البناء الحديث في سبيل الحفاظ على تلك البيئة المسخرة للإنسان، والمهددة من قبل سلوكه غير الموزون.

٤- توظيف التقنيات الحديثة وتبني المفاهيم الحديثة في العمارة :

إن ديننا يدعونا إلى التعاطي مع الآخر والتعامل معه وفق أسس الحوار الحضارات بعيدا عن الصراع والإقصاء. قال تعالى: ﴿وَجَـٰدِلْهُم بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ﴾ سورة النحل آية ١٢٥.

وحتى نتعاطى مع الآخر، يتعين علينا استيحاء بعض المفاهيم الايجابية في مجال العمارة وتجسيدها في عمارتنا بقوالب عصرية حديثة لإبراز مرونة المنهج الإسلامي وقيمه المستوعبة لمختلف مناحي الحياة، وحتى لا يظن

البعض أننا ندعو إلى عمارة ماضية لا توظف التقنيات المدنية فيها، وإنما إلى عمل ما هو مناسب وليس نسخاً من الغرب دون تحري لنقاط الاختلاف البيئي والاجتماعي والثقافي والاقتصادي والسياسي.

تبني المفاهيم الدينية في العمارة الإسلامية :

لقد استمدت العمارة الإسلامية مبادئها من المفاهيم الإسلامية حيث أنها مجموعة متطلبات اجتماعية وإنسانية ووظيفية اجتمعت لتعطي مفهوماً ودلالةً لمعنى العمارة الإسلامية، وقد استوحت مصادرها من عدة روافد حضارية تبلورت لتعكس القيم الإسلامية لذلك المجتمع الذي نشأت فيه، وهذه القيم مستمدة من كتاب الله وسنة رسوله الكريم، فهما المصدران الأساسيان، وقد أُلفت العديد من الكتب المعمارية بوصفها أموراً تتعلق بالفقه والأحكام الشرعية، ومنها على سبيل المثال كتاب «الإعلان بأحكام البنيان» لابن الرومي وكتاب «إعلام الساجد في أحكام المساجد» لمحمد إبراهيم الزركشي، وامتد الفكر المعماري أيضاً إلى مقياس أكبر وهو مقياس تخطيط المدن فكانت هناك الكثير من الكتب في الفقه والأحكام ككتاب «تاريخ مكة «للأزرقي «وتاريخ دمشق» لإبن عساكر «وتاريخ بغداد» للخطيب البغدادي وكتاب «المواعظ والاعتبار» للمقريزي، ويعدُّ كتاب المقريزي أهم مرجع لعلم التخطيط ووصف مدينة القاهرة وصفا شاملا للبيمارستانات والحدائق والحمامات.

لقد عكس الفكر الإسلامي المستوى الحضاري للعمارة والعمران، كما أثرت الأحكام الفقهية التي تعنى بالبناء في تخطيط المدن وتصميم الشوارع وفي علاقة المباني مع بعضها البعض بما يتناسب مع رقي السلوك الاجتماعي في المجتمع المسلم.

وأشارت «الحارثي» بشمولية إلى آراء المصادر الفقهية في العمران، حيث ذكرت الباحثة تسع نقاط. أذكرها لأهميتها وهي:

١- تأصيل كتب الفقه أسس العمارة بما احتوتها من أحكام البناء التي تخضع للسياسة الشرعية.
٢- التعريف بالبناء وأدلة مشروعيته.
٣- تحديد ماليته من حيث هو عقار أو منقول مع التعريفات لكل منها.
٤- أحكام الأبنية من حيث نوعها : مساجد أو أربطة أو حصون أو أسوار أو قناطر وغيرها.
٥- أحكام الأبنية من حيث ما يتعلق بتخطيطها وإنشاء الوحدات المعمارية كالميضآت وغيرها وما يتصل بالزخارف الجدارية عليها.
٦- صلاحيات البناء من حيث مواصفات البناء والمقاييس المعتبرة سواءً من حيث المادة المستخدمة أو الطول أو العرض.
٧- توجيه عمال البناء بإتقان صنعتهم.
٨- الشروط الأربعة الأساسية الواجب توافرها في البناء وهي : المتانة، المنفعة، الجمال، والاقتصاد.
٩- ضوابط عدم الإضرار بالآخرين مثل عدم ارتفاع البناء على الجيران وحقوق الجار وحق المرور وحقوق البيع والشراء وإحياء الأرض الموات [٣].

كما أن كتاب «عمارة الأرض في الإسلام» لجميل أكبر، هو من ضمن الكتب المعمارية التي قارنت الشريعة الإسلامية بأنظمة العمران المعاصرة، وألقت الضوء على البيئة التقليدية، وأكد الكاتب على تشابه العناصر الإسلامية في العديد من الدول مع اختلاف أماكنها، وهو ما أوردناه سابقا حين أكدنا على أن العمارة الإسلامية هي عمارة روحية وليست شكلية، كما تعرض الباحث في كتابه الى مفهوم السيطرة والملكية والحفاظ على البيئة من خلال الأنظمة و الأعراف مع أفراد المجتمع لتوضيح حدود المسؤولية حسب الأعراف المتبعة. وتكلم الباحث عن إحياء الأراضي والارتفاق. والارتفاق بمعنى أن أجزاء بعض المباني يشترك في الاستفادة من مرافقها أكثر من

فريق. وتكلم أيضا عن الحيازة وتغير الأنظمة والتشريعات، وعن حدود الحرية والضرر،مع الالتفات إلى الأحكام الفقهية في البناء[٤].

ولا ننسى أن الغربيين أنفسهم أشـادوا بالفكر المعماري في العمارة الإسلامية وما توصل إليه المسلمون من علوم أثرت في مسيرة العمارة إلى وقتنا الحاضر،يقول «بيترلو» من جامعة هارفارد في مقابلة أجريت معه في قناة البي بي سي :«إن الأمر مذهل جدا، فقد استخدم المسلمون قرميدا يعكس فهماً حسابياً من التعقيد بحيث لم نسبر أغـواره إلا في السنوات العشرين إلى الثلاثين الماضية». والحقيقة أن تلك التصاميم المضلعة المتقابلة تشكل هندسة أشباه البلورات، فهي يمكن أن تكون نماذج تمتد حتى مالا نهاية. وقد كان الاعتقاد السائد قبل ذلك لدى الغربيين أن تلك الأشكال المضلعة والنجمية التي تكون في التصاميم المعمارية الإسلامية إنما يتم رسمها يدوياً وبدون الاستعانة بحسابات الرسم الهندسي.

ولا ننسى أيضا أن الحكام الغربيين قد أبدوا إعجابهم بالعمارة الإسلامية، وتأثروا بأساليب البناء بالزخرفة والفنون في المباني، وكان ذلك عندما انفتح العالم الغربي على الشرق الإسلامي في عصور متأخرة بهدف التعلم والسفر إلى المقدسات المسيحية التي كانت موجودة في فلسطين.

وقد ظلت تلك التأثيرات شامخة إلى يومنا هذا في كثير من دول أوروبا كشاهد على عظمة العمارة الإسلامية وجمالها وذكاء المسلمين وإبداعهم في مختلف الفنون والعمارة. وقد اسقرت بشكل واضح في إسبانيا وجنوب إيطاليا وجنوب فرنسا وكثير من الدول الأخرى.

مبادئ العمارة الإسلامية :

أشرنا سابقا إلى أن العمارة الإسلامية عمارة روحية وليست شكلية، بمعنى أنها تعكس المفاهيم الإسلامية وقيمه بغض النظر عن اختلاف الشكل الخارجي لها بسبب تشكلها في أماكن متباعدة ضمن رقعة الدولة

الإسلامية، وبالتالي، فهي أكبر من القبة والأقواس والزخارف والزجاج الملون، ولا بأس من اشتمال العمارة الإسلامية على تلك المفردات المعمارية حيث أنها تشكل ما يسمى بمفهوم الهوية الشكلية.

ولكن ماهي القيم الروحية التي تعطي العمارة الإسلامية هويتها وتكسبها ذلك المسمى، لقد اجتهدت في وضع ثلاثة عشر معيارا تشكل مبادئ للعمارة الإسلامية، وهي :

١- توفير الخصوصية الفردية للساكنين والزوار :

حثَّ الإسلام على ضرورة غض البصر عن الحرمات واحترام حرمة الخصوصية الفردية، الأمر الذي انعكس على الثقافة المعمارية للمسلمين حيث قسم المسكن إلى قسم عام لاستخدام العائلة «الحرملك»، وقسم خاص لاستخدام الضيوف وذلك من أجل أن يشعروا براحة وانبساط الضيوف راحتهم في البيت بدون مس لحرمة المنزل، فالضيوف من الرجال يكون لديهم مجلس لاستقبالهم مفصول عن منطقة الحرملك فيما يكون الضيوف من النساء ضمن المكان المخصص لهن بمعزل عن الرجال.

كما احتوت بعض البيوت في البيئة التقليدية في المجتمعات الإسلامية على مدخل إضافي للمسكن وهو مخصص للضيوف من النساء لعزلهن عن الرجال كنوع من أنواع احترام خصوصية المرأة وغض البصر كما انعكست الخصوصية على الثقافة المعمارية من خلال فصل غرف نوم الأبناء عن البنات وذلك بسبب حث القيم الإسلامية على الفصل بين الجنسين في مرحلة البلوغ، فكان للأبناء غرف نوم خاصة بهم فيما كان للبنات غرف نوم خاصة بهن أيضاً.

كما استخدمت المشربيات والرواشين حول الشبابيك في البيئة التقليدية للمجتمعات الإسلامية بهدف منع الرؤية المباشرة من الخارج إلى الداخل

وحماية الساكنين من اختراق الخصوصية للساكنين من المتطفلين، كما كان للمشربيات والرواشن وظيفة أخرى وهي فلترة الضوء الداخل إلى المسكن.

كما لا ننسى استخدام المدخل المنكسر والذي كان من ضمن التصميم الداخلي للبيئة التقليدية للمجتمعات الإسلامية وذلك بهدف منع الرؤية المباشرة ومنع اختراق الخصوصية من الشارع إلى داخل البيت، كما امتدت خصوصية العمارة الإسلامية إلى خارج المسكن وإلى المجاورة السكنية حيث يلاحظ استخدام التدرج في الخصوصية من المنزل إلى الشارع ذي النهاية المغلقة (Cul de sac) إلى المجاورة السكنية والتي كانت عبارة عن نسيج عمراني متحد يصعب على الغرباء اختراق خصوصيته.

٢- الانفتاح على الداخل (الجمال جمال الروح) :

تميزت العمارة الإسلامية بالانفتاح على الداخل من خلال الأفنية الداخلية (Court yards) حيث صممت الأفنية الداخلية لتكون متنفسا للساكنين في الوحدة السكنية، فيحسُّ الساكن في ذلك الفراغ بإحساس الحرية والمحافظة وممارسة الأنشطة داخل الوحدة السكنية لاحتوائها على معظم العناصر الخارجية. فالأشجار موجودة، والنور الطبيعي منتشر بسبب الانفتاح على السماء، والماء متوفر بفضل نوافيره، وهذا الأسلوب الذي يركز على الانفتاح على الداخل هو فكر إسلامي يدعو إلى الحفاظ والستر والاطمئنان، ولذلك انعكست هذه القيم على العمارة الإسلامية فكانت هذه الحلول المثالية.

وظهرت الفراغات المعمارية الجميلة حول منطقة الفناء الداخلي حيث يفتح الإيوان على الفناء الداخلي من خلال أروقة تفصل الأول عن الثاني. والإيوان هو صالة تطل على الفناء الداخلي وتفتح عليه مباشرة باتساع الجدار المطل على الفناء، كما تنتشر الأروقة حول الفناء الداخلي وتطل عليه بعقود جميلة وفوانيس تضيء ذلك الفراغ ليلاً. إن العمارة الإسلامية

هي عمارة غنية بالمفردات المعمارية والزخارف في حين لا يعكس الشكل الخارجي شيئاً من ذلك، وهذا المبدأ يؤكد أن الجمال جمال الروح وليس جمال المظهر الخارجي. (انظر الشكل (٣-٤) إلى (٣-٧)).



شكل (٣-٤) : إيوان مطل على فناء داخلي في أحد البيوت الشامية (البيت العربي ذو الصحن والإيوان). المصدر : جريدة الدار الكويتية، بتاريخ ٢٥ فبراير ٢٠١١ م.



شكل (٣-٥) : فناء داخلي (صحن) في أحد الفنادق الشامية. لاحظ الإتزان في الكتل. المصدر : موقع «معماري» على شبكة الانترنت.



شكل (٣-٦) : فناء داخلي لمنزل في المغرب، حيث يلاحظ التشابه في المفردات المعمارية العربية من الشرق إلى الغرب. المصدر : جريدة الشرق الأوسط، العدد ١٠٣٩٩ بتاريخ ١٩ مايو ٢٠٠٧ م.



شكل (٣-٧) : فناء داخلي في مساكن البستكية التاريخية في دبي، المصدر : شبكة الانترنت بواسطة «هاوبت ويندر».

سألني أحدهم قائلاً : ولكنك تجد العمارة الحديثة المكسوة بالزجاج عادة ما تكون جميلة ورشيقة وفيها جماليات أكثر من العمارة الإسلامية التي لا تكاد تطلع على جمالياتها إلا من الداخل، فقلت له سأضرب لك مثلا حتى أقرب لك الصورة وتتضح لديك الرؤية. إن العمارة الحديثة والعمارة الإسلامية التي تجمع بين الأصالة و المعاصرة إنما مثلها كمثل الجمال في المرأة المحجبة والجمال في المرأة المتبرجة فجمال المرأة المحجبة يعكس القيم والسلوك والرؤية الخاصة بها والتي تنبثق من قيم الإسلام، لأن المرأة المحجبة تعكس القيم الإسلامية فهي عمارة تغض البصر حيث تجد المشربيات والرواشين والكوليسترا تقوم بدور غض البصر، وعمارة تتستر عن الآخرين فهي تنفتح على الداخل وتنغلق على الخارج لأن المرأة المسلمة متبرجة مع زوجها ومتسترة مع غيره، وعمارة تهذيب السلوك الداخلي فهي تفصل بين الفراغات الداخلية، بين مضاجع الأبناء والبنات وبين مجالس

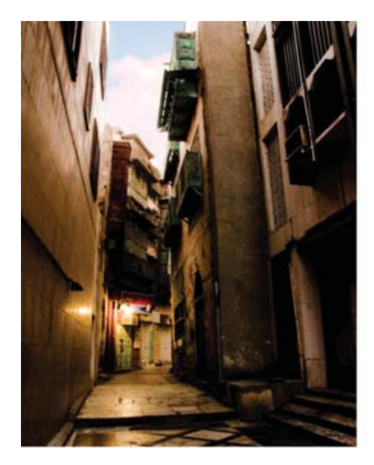
الرجال ومجالس النساء في محاولة لتهذيب السلوك، وعمارة تكفُّ الأذى فهي غير مضرة بالبيئة وتراعي حقوق الجوار ولا تتضاد مع البيئة المحيطة. في حين أن العمارة الحديثة أو العمارة «المتبرجة» كما شبهناها هنا لا ترتبط بأي مبادئ روحية سوى الوظيفة وبعض المفاهيم الحديثة المادية فقط، وتعتمد بشكل كبير على لفت النظر من خلال تصميم رشيق وشفاف كما حصل في المسابقة المعمارية لتصميم مبنى شقق سكنية مكون من خمسين طابقاً في مدينة اونتارتو في كندا، حيث فاز مكتب Mad Architectural) (Design Studio في بكين بالتصميم الذي كان مستوحى من شكل جسد امرأة مثير، وتم تسميته مبنى مارلين مونرو لأنه يعكس ذلك التصور. (نظر الشكل (٣-٨)).



شكل (٣-٨) : مبنى مارلين مونرو – من تصميم مكتب mad - والمعماري ياسونغ ما، المصدر : الموقع الرسمي لمكتب mad.

٣- مشجعة على الترابط الاجتماعي والمشاركة بالارتفاق :

حث الإسلام على احترام الجار والاهتمام بإعطائه حقوقه كاملة، قال تعالى : ﴿ وَٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ وَلَا تُشۡرِكُواْ بِهِۦ شَيۡـٔٗاۖ وَبِٱلۡوَٰلِدَيۡنِ إِحۡسَٰنٗا وَبِذِي ٱلۡقُرۡبَىٰ وَٱلۡيَتَٰمَىٰ وَٱلۡمَسَٰكِينِ وَٱلۡجَارِ ذِي ٱلۡقُرۡبَىٰ وَٱلۡجَارِ ٱلۡجُنُبِ ﴾ سورة النساء اية ٣٦. وقال الرسول الكريم ﷺ (مازال جبريل يوصيني بالجار حتى ظننت أنه سيورثه). وفي حديث آخر عنه ﷺ قال : (من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليكرم جاره). والتراث الإسلامي زاخر بكثير من الأمور التي تؤكد أهمية الجوار ومعاملة الجيران بما يرضي الله. وانعكس ذلك المبدأ على العمارة الإسلامية من خلال توحيد ارتفاع المباني لمنع كشف حرمة الجار ولعدم التكبر والاستعلاء عليه، وأن يدق الجار مسمارا في جداره المشترك مع جدار جاره إلا بإذنه، وكتب الفقه توضح كثيراً من هذه الأمور وتبرز أيضا حدود المشاركة بالارتفاق، بمعنى أن أجزاء بعض المباني يشترك في الاستفادة من مرافقها أكثر من فريق، فحددت الشريعة الإسلامية حدود الاشتراك وحدود حيازة كل مرفق من المرافق الموجودة والتي يشترك فيها الجيران كنوافير الماء الخارجية والمقاعد الخارجية وثمار الأشجار والمدخل المشترك في الشوارع ذات النهاية المسدودة (Cul de sac)، وقد لاحظنا في البيت الدمشقي أيضا وجود شباك صغير يفتح على جدار المتجاورين لكي يتبادل نساء الجيران الطعام بينهم كنوع من أنواع إطعام الجار واحترامه، وما سمي الحي قديماً بالحي إلا لأنه يعكس معنى الحياة والتفاعل بين أبناء المجتمع، لذلك يجب علينا أن نصمم العلاقات السلوكية للمجتمع في الحي من خلال التصميم المعماري وبواسطة دراسة وفهم العلاقات الاجتماعية للمجتمع بواسطة الرجوع إلى العلاقات في الحي القديم وإنجاز دراسات لاستشراف العلاقات الاجتماعية وكيف سوف يحدث التغير المتوقع لتلك البنية المبنية الجديدة ولصالح الساكنين . (انظر الشكل (٣-٩)).

شكل(٣-٩) : حواري جدة القديمة، المصدر : يمين : صحيفة نون الالكترونية، بتاريخ ١٥ مايو ٢٠١٠ م. المصدر : يسار : شبكة الانترنت، بواسطة «عبدالله شمندور».

٤- النهي عن البذخ والإسراف :

حث الإسلام على التواضع والوسطية والابتعاد عن الإسراف والبذخ والتبذير وصرف أكثر مما ينبغي، كحالة وسطية بين طرفي الإفراط والتفريط وهما التبذير والزهد ، وانعكس هذا المفهوم على عمارة المسلمين الأوائل، كما اعتبر القرآن الكريم المبذرين في مقام إخوان الشياطين .

وأشار «ثويني» إلى أن «ابن قتيبة» هو من دعا إلى وصف الدار بالقميص، لأن القميص يخاط بحسب مقاس صاحبه فلا زيادة ولا نقصان في ذلك ،وهو يكون بذلك حسب رأي ثويني أول من تحدث عن المقياس الإنساني في العمارة الإسلامية (٥). وهذا الأسلوب أدى إلى امتعاض الغربيين حيث ذهبوا إلى أن العمارة الإسلامية كانت بسيطة بسبب بيئتها الصحراوية التي وجدت فيها وليس بسبب اقتباسها من المبادئ الإسلامية، في حين أغفل الكثيرون فهم الموروث الديني والتاريخي الذي يحث على الاقتصاد منهجاً شاملاً للحياة في المجتمعات الإسلامية قال تعالى : ﴿ وَلَوۡلَآ أَن

يَكُونَ ٱلنَّاسُ أُمَّةً وَٰحِدَةً لَّجَعَلْنَا لِمَن يَكْفُرُ بِٱلرَّحْمَٰنِ لِبُيُوتِهِمْ سُقُفًا مِّن فِضَّةٍ وَمَعَارِجَ عَلَيْهَا يَظْهَرُونَ ﴿٣٣﴾ وَلِبُيُوتِهِمْ أَبْوَٰبًا وَسُرُرًا عَلَيْهَا يَتَّكِـُٔونَ ﴿٣٤﴾ وَزُخْرُفًا ۚ وَإِن كُلُّ ذَٰلِكَ لَمَّا مَتَٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۚ وَٱلْءَاخِرَةُ عِندَ رَبِّكَ لِلْمُتَّقِينَ ﴾ سورة الزخرف آية ٣٣.

إن المنهج الإسلامي منهج شامل للحياة يدعو إلى الوسطية والاعتدال باعتبارها الخطوط العريضة في إدارة الاقتصاد و المجتمعات الإنسانية، ولقد أدرك الغربيون في أوائل القرن الماضي جماليات العمارة الإسلامية «الأصلية وليست المتكلفة» وتبنوا بعض الأفكار الخاصة بها حيث أشار المصدر السابق إلى نشوء تيار يسمى تيار النقائيين (Purists) والذي كان يتبنى فكرة نقاء المبنى بمعنى البعد عن الزخرفة والتكلف، وكان المعماري «أدولف لوس»، أحد أعضاء هذا التيار، قد نقد حالة الزخارف في المباني العامة في عام ١٩٠٨م، من خلال مقال كتبه بعنوان «الزخرف والجريمة» حيث اعتبر ذلك «من علامات الهمجية أو التردي الآثم أو متنفسا للكبت». كما ظهر العديد من المعماريين الذين تبنوا الأسلوب نفسه فيما بعد مثل «ميس فان ديرو» و«لوكوربوزييه» حيث قال «لوكوربوزييه» مقالته المشهورة (Less is more) بمعنى أن القليل يعطي تعبيراً أكثر من الكثرة نفسها.

إن هذا الزهد في العمارة الغربية الذي دعا له «لوكوربوزييه» ما هو إلا اقتباس عن الفكر الإسلامي ولكنه اقتباس ناقص !! إذ أن الروح الإسلامية مبدأ متكامل يتآزر فيه الداخل مع الخارج والظاهر مع الباطن، في حين أن هؤلاء الغربيين قد اقتبسوا مبدأ الزهد المعماري من الخارج فقط ونسوا أو تناسوا مبدأ التكامل فكانت تلك المباني لا تعبر عن مضمونها الداخلي فهي تكتسي بثوب العابد الزاهد تحت قناع من البذخ والإسراف في الفراغات الداخلية الضخمة واستخدام مواد البناء عالية الكلفة.

إن العمارة المعاصرة بدأت تتجه نحو الانحدار الفكري حيث أصبح

معيار الجمال في المباني هو غلاء تكلفتها وعلو ارتفاعها بدون مسوغات في الأغلب، الأمر الذي انعكس على مستوى الذوق العام مما جعل النظرة إلى جماليات العمارة الإسلامية بأنها رجعية، وهذا التصور الخاطئ نتيجة الممارسات الخاطئة في تصميم العمارة الإسلامية، لأن الإسلام يحث على الابتكار واستخدام التقنية وكل ما هو مفيد للإنسان، لذلك أدعو من خلال هذا الموضوع إلى تبني فكرة تصميم العمارة الإسلامية العصرية وبقالب عصري حديث من خلال إقامة مسابقات معمارية أو حتى إدراجها كمقرر تصميم معماري في استوديوهات التصميم كنوع من أنواع المشاركة الفاعلة لإحياء مفهوم العمارة الإسلامية الحديثة، ولا ننسى هنا دور جائزة الآغاخان للعمارة الإسلامية حيث ترشح المشاريع من خلال تكامل التكنولوجيا فيها مع مواد وطرق الإنشاء للعمارة الإسلامية والحفاظ على الموروث الثقافي والهوية، وقد استبعدت الهيئة المسؤولة عن الجائزة العديد من المباني التي تستخدم الزخرفة الإسلامية فقط كوسيلة لعكس شكل العمارة الإسلامية دون التركيز على الروح الداخلي لتلك العمارة. ولا ننسى كذلك دور جائزة الملك فهد للتصميم والبحث في العمارة الإسلامية والتي أقيمت في العام ١٤٠٦هـ، حيث طالب المختصون بأن تنظم الجائزة كل ثلاث سنوات.

٦- عمارة توجيهية معالجة للسلوك :

يقول السير وينستون تشرشل «رئيس وزراء بريطانيا الأسبق» وهو سياسي ومؤلف وخطيب مفوه: نحن نشكل مبانينا ومن ثم هي تقوم بتشكيل سلوكنا :

“we shape our buildings : thereafter they shape us” وهذه النظرية تؤكد ضرورة الاهتمام بدراسة تأثير البيئة المبنية على السلوك الإنساني ، وقد ظهرت دراسات حول ذلك في وقت مبكر من القرن الماضي، وظهرت أيضا مدرسة «الجشطالت» الألمانية والتي اهتمت بدراسة تأثير علم

النفس من خلال تأثير البيئة على السلوك.

وبرز العديد من العلماء في أوائل السبعينيات من القرن الماضي، وقد أطلقوا على أنفسهم علماء النفس والسلوك البيئي من خلال اهتمامهم بدراسة السلوك الإنساني الناتج من اختلاط الإنسان بالبيئة المبنية. والسلوك الإنساني في تلك البيئة المبنية يشمل الانفعال والاستجابة والتعلم والتصور والتخيل وكثير من السلوكيات الإنسانية. إن الدين الإسلامي العظيم هو دين مقوِّم للسلوك الإنساني ومصلح له، فلذلك كان لزاماً أن تعكس العمارة الإسلامية السلوك الايجابي في البيئة المبنية في عمارة المسلمين، وللتدليل على ذلك، فقد قمت باختيار ثلاثة نماذج من المباني والتعليق عليها بشكل مختصر لدراسة مدى تأثيرها على السلوك الإنساني،هي:

أولا : مباني السجون والمؤسسات العقابية :

يختلف كثير من المتخصصين في علم الاجتماع الإنساني حول مفهوم السجن، هل هو إصلاح أم عقوبة ؟ إذ إن لكل مفهوم آليات لتطبيقه بما فيه البيئة التي يعيش فيها المساجين، لذلك فإن عدم فهم وظائف تلك البيئة بالشكل الصحيح قد يؤدي إلى عواقب سلبية تؤثر سلباً على السلوك الإنساني. لقد سجلت السجون الفرنسية أعلى معدلات الانتحار في أوروبا، إذ أظهرت إحصاءات للاتحاد الأوروبي صدرت في العام ٢٠٠٦م أن معدل الانتحار في فرنسا يبلغ ١٦ حالة من كل عشرة آلاف سجين، وفي عام ٢٠٠٨م ارتفع المعدل إلى ١٧ ضعفاً حيث وصف الرئيس الفرنسي نيكولا ساركوزي بأن «سجون فرنسا عار على الجمهورية» [٦]، وقام بعض الخبراء للمساهمة في حلِّ تلك المشكلة في فرنسا ،فأكدوا بأنهم يريدون سجوناً أصغر حجما من السجون الحالية بحيث يستطيع نزلاء السجن من إمكانية الاتصال بذويهم وأسرهم في جو هادئ، وأيضا تدريبهم وإعدادهم مهنياً ليكونوا أفراداً صالحين عندما يختلطون بالعالم الخارجي، كما أوصى الخبراء بضرورة

استحداث بدائل للمرضى النفسيين والبالغ عددهم ثلاثة وستين ألف نزيل. وقد قال «البران» وهو أحد الناشطين الحقوقيين لوزارة العدل الفرنسية «نحن بحاجة لمفهوم جديد للسجن بدلاً من استنتساخ هذه السجون المقامة وفقا لنموذج سجون العصور الوسطى تحت الأرض».

والمتأمل اليوم في وضع السجون والمؤسسات العقابية في البلاد العربية يلاحظ أنها بحاجة إلى تصنيف الجرائم بحيث يكون للجرائم والجنح عنابر خاصة بها مقسمة بناء على نوع الجريمة.

إن الفهم الجيد للدور الإصلاحي في السجون يؤدي إلى فهم الوظيفة لتلك البيئة المبنية وبالتالي يتمُّ تصميم المبنى ليحدَّ من السلوكيات السيئة وينمي السلوكيات الجيدة مثل استغلال أوقات الفراغ في القراءة وممارسة الرياضة والقيام ببعض الأعمال اليدوية والاعتماد على النفس وهذه الأنشطة تحتاج إلى أن تترجم على الواقع من خلال وضع برنامج معماري لدراسة الفراغات المعمارية التي ينتظر منها أن تعالج السلوك بالإضافة إلى البرنامج الاجتماعي والذي يقوم به مختصون في علم الاجتماع وعلم النفس.

ثانيا : المباني التعليمية والمدارس :

إن المدارس والبيئات التعليمية تعتبر من الموجهات السلوكية للإنسان، لذلك تبنت الكثير من الدول الأوروبية فكرة «مدرسة بلا أسوار «لكسر حاجز الملل والإحساس بالبيئة المنغلقة لدى الطلاب ولإعطائهم شعوراً مشابهاً بالعيش في بيئة منفتحة وفيها نوع من الحرية. وعلى النقيض من ذلك ما نشهده اليوم في بلداننا العربية حيث تقبع المباني المدرسية داخل أسوار حصينة أشبه ما تكون بالقلاع، ومع ذلك نلاحظ ازدياد حالات الهروب والتسرب من المدارس، كما أن هذه الأسوار تشعر الطلاب وكأنهم سجناء داخل مبنى المدرسة، ويكون فكره منشغلاً خارج المبنى بسبب الانغلاق على

الخارج مع عدم وجود بيئة مثالية في الداخل تعوض ولو قليلاً عن الحرمان من النظر إلى الخارج والإحساس بالمجتمع والحياة.

كما أن هناك عدة معايير أخرى تؤثر على السلوك الإنساني في البيئة التعليمية غير الأسوار، فمثلاً كيف نجعل الطلاب يتعلمون تلقائيا وبدون الضغط عليهم؟ إن توفير البيئة الداخلية للطالب وتهيئتها بالصورة المناسبة كفيل بأن يحبب المدرسة للطالب وأن يجعله يفتخر بانتمائه لذلك المكان. إن تصميم الفصول الدراسية لاستيعاب أكبر عدد ممكن من الطلبة هو مفهوم خاطئ ويقلل من مستوى أداء المعلم والطالب داخل الفصل، كما أنه من الضروري أن يمارس الطالب هواياته داخل المدرسة بأن تحتوي المدرسة على مصادر للتعليم ومركز للهوايات والأنشطة وساحة مغطاة ومكيفة لأن معظم البلدان العربية ذات مناخ حار جاف «مناخ صحراوي»، كما تحتاج البيئة المدرسية إلى عنصر الخضرة والتشجير والذي يسهم بشكل كبير في تلطيف الجو وترطيبه، وإيجاد الظل و توفير الراحة النفسية.

ثالثا : مباني دور رعاية الأيتام :

أنشئت دور رعاية الأيتام كنوع من أنواع التكافل الاجتماعي في المجتمعات الإسلامية بحيث يعيش الأطفال ويتربون تحت إشراف تلك الدور المتخصصة، وهذه المباني لها عناية خاصة لكونها مباني أنشئت لأطفال فقدوا آباءهم بحيث تشتمل تلك المباني على كل العناصر التي تحسس الأيتام بأنهم في بيئتهم ويعيشون بين ذويهم.

قد يكون تصميم الفراغ الجماعي فكرة سيئة في مثل هذه الدور لأن الطبيعة الإنسانية لا تنسجم مع الأعداد الهائلة من الأفراد في أماكن واحدة ومنغلقة، كما أن إفساح المجال للمعماريين هنا ضروري لإعطاء رأيهم حول تلك الأمور، إذ بالإمكان فصل الفراغات المعمارية عن بعضها البعض لتقليل عدد المستخدمين ولإعطاء الإحساس بالانتماء لذلك المكان الذي يشكل

البيت للأيتام. ووصل الفراغات في آن واحد. وهنا يتدخل المعماريون لتوفير تلك الحلول.

إنه من الضروري عند أقامة مباني الخدمات الاجتماعية ودور رعاية الأيتام أن تتضافر جهود المختصين مع المعماريين كجزء من المنظومة الفكرية لاتخاذ القرارات حول تلك البيئات المبنية وما تسببه من سلوك إيجابي أو سلبي عدواني.

ليست هذه النماذج الثلاثة من المباني التي ذكرتها هي فقط التي تؤثر على السلوك الإنساني وإنما هناك العديد من المباني، والذي يقوم بدراسة مسحية سيلاحظ سلوكيات كثيرة وغريبة للناس سببتها تلك الفراغات في المباني، ويعجبني كثيرا «متحف جوجنهام» في نيويورك حيث تكمن فكرته المعمارية في أن الزائر للمتحف يصعد بالمصعد إلى الدور الأخير ثم يبدأ بمشاهدة المعروضات علماً بأن الزائر للمتحف يبدأ بالدوران على جميع المعروضات وينزل بشكل حلزوني مما يجبر الزائر على أن يرى جميع المعروضات إلى أن ينتهي ويجد نفسه خارج المتحف.

وبذلك تكون المباني أثرت في السلوك البشري، وقد إستخدمتُ هنا عبارة جديدة تؤكد هذه الفكرة مكونة من ثلاث كلمات وتبدأ بالحرف نفسه ليسهل حفظها وهي :

"buildings bounds behavior" بمعنى أن المباني تقيد السلوك وتحكمه.

٧- استغلال مواد البناء المحلية و الطاقة البديلة :

لقد أعطانا التراث الإسلامي دروساً عظيمة في مجال توظيف الطاقات واستغلال الإمكانات المتاحة، وفي السيرة النبوية مظاهر جليلة من حرص النبي الكريم ﷺ على إقامة مجتمع مسلم يستغل كل الإمكانات المتاحة

ويوظفها لمصلحة الأمة، وقد تكلمت كتب السيرة النبوية عن كثير من الأمور التي تحث على الاعتماد على الذات أيضاً ولا ننسى أن الله عزَّ و جلَّ قد أنعم على المنطقة العربية بثروة هائلة من الطاقات المتجددة بالإضافة إلى موارد الطاقة والنفط، من هذه الثروات الطاقة الشمسية حيث يبلغ مقدار الإشعاع الشمسي على سطح الأرض ١٠٠ واط/ متر مربع في بلدان الوطن العربي ذي المناخ الصحراوي، كما لا نغفل أيضاً طاقة الرياح والتي تبلغ سرعتها في بعض الدول العربية من ٨ إلى ١١ متراً/ الثانية. ويذهب «اليوسفي – غولي» إلى أن هناك موارد اقتصادية أخرى غير طاقة الرياح و الطاقة الشمسية، ومن هذه الموارد الوقود الناتج من النفايات والمخلفات الزراعية والبلدية وفضلات الصناعات الغذائية، وكذلك توليد الطاقة الكهرومائية باعتباره مصدرا متجددا يعتمد على دورة الماء الطبيعية التي تشمل التبخر والتكثف وجريان الماء. وقد كانت هناك بعض التجارب الناجحة في استغلال الطاقات المائية من خلال عمل سدود لها و«توربينات» تدير مولدات تنتج الطاقة الكهربائية وهي مصدر متجدد غير قابل للنضوب كما يشير الباحثان السابقان إلى أنواع أخرى من الموارد الطبيعية مثل طاقة جوف الأرض حيث تحتوي قشرة الأرض على طاقة حرارية هائلة كطاقة البراكين. وعلى الرغم من وفرة تلك الموارد الاقتصادية في الوطن العربي إلا أنه لم يتم استغلالها بالصورة المطلوبة (٧).

إن البيئة العمرانية معنية بشكل كبير بالتنمية المستدامة، ويعتبر النشاط الصناعي المصاحب للنشاط العمراني مستهلكاً هاما للطاقة ومسبباً أساسياً للتلوث البيئي، لذلك يجب إعادة النظر في استخدام الطاقة المتجددة بدلاً من الطاقة الناضبة، وقد كان المعماري حسن فتحي من رواد التنمية المستدامة في البناء والعمران، إذ سعى إلى استغلال مواد البناء المحلية واستخدام بعض العناصر المعمارية في توليد الطاقات الطبيعية، وما كتابه «الطاقات الطبيعية والعمارة التقليدية» إلا تجربة حية على

ممارسته في مجال البناء المستدام واستغلال الطاقات الطبيعية، في حين أن البعض يسيء لهذه الطاقات الطبيعية ويتجاهلها كأن يتم إستخدام الواجهات الزجاجية في المباني عالية الارتفاع، مع أن معظم تلك الواجهات الزجاجية لا تفتح، فهي ليست شبابيك للتهوية، الأمر الذي يؤدي الى توفير إشعاع شمسي وحرارة شديدة حول تلك المباني وبالتالي لم توظف الطاقات الطبيعية كما ينبغي.

إن الأصوات التي تدعو إلى استغلال الطاقات الطبيعية ليست من أجل الترف الفكري أو الدعوة إلى الرجوع إلى الماضي بكل إيجابيته وسلبياته، ولكن بسبب نضوب الموارد المتاحة وبسبب التلوث الناتج عن عملية التصنيع لمواد البناء والبناء نفسه. ويشير «السيوي» إلى أن «إجمالي الطاقة التي يستهلكها المبنى تساوي الطاقة المختزنة للمبنى والتي تشمل الطاقة المستهلكة لتوريد وتصنيع مواد البناء، وكذلك الطاقة اللازمة لإنشاء المبنى».

وقسم مواد البناء إلى ثلاث مجموعات وفقاً لطاقتها المخزنة كالتالي:

أ- مواد تحتوي على طاقة تصنيع قليلة : كالطين والرمل والحصى والأخشاب والخرسانة والطوب الرملي والحجري والخرسانة الخفيفة، حيث تحتاج إلى (١-ك.و ساعة / كجم) لتصنيعها.

ب- مواد تحتوي على طاقة تصنيع متوسطة : مثل ألواح الجبس والطوب المحروق والجير والإسمنت ومواد العزل الليفية والزجاج والبورسلين، حيث تحتاج إلى (١-١٠ ك.و ساعة / كجم) لتصنيعها.

ج- مواد تحتوي على طاقة تصنيع كبيرة: مثل اللدائن والصلب والرصاص والزنك والنحاس و الألومنيوم، حيث تحتاج إلى (١٠ ك.و ساعة / كجم) لتصنيعها أو أكثر من ذلك [٨].

لذلك يجب وضع مواصفات ومعايير لاستخدام مواد البناء، مع الأخذ

بالاعتبار الطاقات المختزنة لها والتلوث الناجم عن تصنيعها. كما يجب أن لا نغفل عن الطاقة اللازمة لتشغيل المبنى، مثل الإنارة والتكييف والآلات الميكانيكية اللازمة لتوفير المياه.

ويشير «السيوي» إلى أن إجمالي الطاقة التشغيلية للمباني هي (١٠٪) من إجمالي الطاقة المستهلكة للإنشاء والبالغة (٩٠٪) من إجمالي الطاقة التي يستنفذها المبنى. وشهدت التجارب المعمارية المبكرة في المجتمعات التقليدية بعض الحلول للتوافق البيئي واستغلال البيئة وطاقاتها وتوظيفها في عمارتها المحلية كإدخال الهواء داخل المنازل باستخدام الملاقف الهوائية، واستثمار الأفنية الداخلية لتلطيف درجة حرارة المسكن. (انظر الشكل (٣-١٠) و(٣-١١)).



شكل (٣-١٠) : إستخدام الفناء الداخلي في البيت الخليجي لتلطيف الجو – بيت البدر، الكويت. المصدر : جريدة الدار الكويتية، العدد ١٠٣٠ بتاريخ ١١ يونيو ٢٠١١ م.



شكل (٣-١١) : إستخدام ملاقف الهواء لتبريد الجو في منطقة البستكية التراثية في دبي، المصدر : مجلة مجتمع بناة الالكترونية، بتاريخ ٣١ مارس ٢٠١١م

٨- تتخذ من المساجد مراكز لها :

من ضمن المبادئ العامة للعمارة الإسلامية هو أن تتخذ من المساجد مراكز لها للتأكيد على الهوية الإسلامية من خلال فهم الغايات الشرعية للمساجد وإدراج المساجد ضمن النسيج العمراني للبيئة العمرانية الإسلامية. لقد أشار القرآن الكريم إلى الوظيفة الأساسية للمساجد فقال تعالى : ﴿ فِي بُيُوتٍ أَذِنَ ٱللَّهُ أَن تُرۡفَعَ وَيُذۡكَرَ فِيهَا ٱسۡمُهُۥ يُسَبِّحُ لَهُۥ فِيهَا بِٱلۡغُدُوِّ وَٱلۡأٓصَالِ ٣٦ رِجَالٞ لَّا تُلۡهِيهِمۡ تِجَٰرَةٞ وَلَا بَيۡعٌ عَن ذِكۡرِ ٱللَّهِ وَإِقَامِ ٱلصَّلَوٰةِ وَإِيتَآءِ ٱلزَّكَوٰةِ يَخَافُونَ يَوۡمٗا تَتَقَلَّبُ فِيهِ ٱلۡقُلُوبُ وَٱلۡأَبۡصَٰرُ ﴾ النور: ٣٥ – ٣٧

كما حثَّ الإسلام على صلاة الجماعة، ففي الحديث عن الرسول الكريم ﷺ أنه قال «صلاة الرجل في الجماعة تضعف على صلاته في بيته وفي سوقه خمساً وعشرين ضعفاً»، لذلك أكدت التعاليم الإسلامية على صلاة

الجماعة وليس ذلك فقط بل الحثّ على المشي وكثرة الخطى لأداء الصلاة.

وأشار «الحريقي» إلى دور المسجد في تشكيل النسيج العمراني للمدينة المنورة حيث كانت هذه المدينة في نهاية عهد النبي الكريم تتكون من جزئيين رئيسيين وهما: الكتلة العمرانية والضواحي.

وكانت الكتلة العمرانية تتكون من تسعة أحياء سكنية، في حين كانت تتكون الضواحي من عدة بيوت تحيط بالكتلة العمرانية وتحيط بها المزارع، كما أكد الباحث أن المسجد النبوي كان هو مركز الكتلة العمرانية الرئيسية ونواة التجمع العمراني للمدينة المنورة، كما كان المسجد النبوي نقطة التقاء الطرق الرئيسية الثلاث التي ربطت الأحياء السكنية بالمركز(٩).

إن المسجد هو العنصر الأساسي والرئيسي والنواة للمدينة الإسلامية ولقد كان المسجد أول بناء في المدينة الإسلامية، وهو مركز للإشعاع الثقافي والديني والنشاط الاجتماعي حيث لم يقتصر دوره على أداء الصلوات فقط، بل امتد دوره ليكون أساساً للدعوة الإسلامية وموجهاً للدور التربوي من خلال الخطب التي تلقى فيه والدروس العلمية والمكتبات، وكذلك كان المسجد يؤدي قديماً دورا في إسكان الغريب، و قد كان ذلك شائعا في الماضي، حيث كان الغريب عندما يصل إلى المدينة يذهب إلى المسجد أولا، وقد اهتم السلاطين والحكام المسلمين آنذاك بتوفير دور للإيواء والسكن في المساجد لإغاثة الملهوفين والغرباء، ولم يقتصر دور المسجد على ذلك، بل كان مكاناً للعلاج والتطبيب وداراً للقضاء والشورى ومكاناً لاستقبال الضيوف والوفود ثم تطورت تلك الوظائف المساندة للمسجد في مختلف عصور الدولة الإسلامية و أصبحت منشآت مستقلة، كالأربطة التي كانت عبارة عن أماكن لربط الدواب و للتزود بالماء للإنسان والحيوان وعابري السبيل والمسافرين، وانتشرت الأربطة داخل المدن وعلى طرق السفر والتجارة، كما أنشأت مؤسسات لرعاية النساء والأرامل والمطلقات ممن لا عائل لهن، ووفر لهن المأكل والمشرب والملبس لضمان حياة كريمة

لهن في ظل غياب الزوج والعائل.. وهذه المباني تعتبر من المباني التي كانت ضمن أدوار المسجد في الماضي.

وفي العصر الحالي، وضعت معايير لبناء المساجد، فقد قامت أمانة محافظة جدة بتحديد اشتراطات تصميم وبناء المساجد في المدن والقرى، حيث تمَّ تقسيم المساجد إلى ثلاثة أنواع كالتالي:

أ- المساجد المحلية : وهي تعتبر نواة التجمعات السكنية وتعمل على توفير الخدمات الدينية لها، كما يوصى بأن تكون المسافة المخصصة للمبنى إلى المسجد المحلي من ١٥٠ إلى ٢٠٠ متر.

ب- المساجد الجامعة : وهي تقع داخل مركز الخدمات للمجاورة السكنية، وعادة ما يكون المسجد هنا هو العنصر البارز في مركز الخدمات، كما يوصى بأن تكون مسافة المشي إلى المسجد الجامع بين ٢٥٠ إلى ٣٠٠ متر.

ج- مسجد العيد : ولا يشترط أن يكون ضمن مسافة مشي محددة، حيث أنه يقع على أطراف المدينة، ويمكن استخدام المساجد الجامعة بديلة عنه في حالات إذا مازاد عدد سكان المدينة عن ١٠٠,٠٠٠ نسمة.

كما تمَّ تحديد عدد المصلين لكل مستوى، فالمسجد المحلي يستوعب ٢٠٠ مصل على الأقل والمسجد الجامع يستوعب كافة المصلين الموجودين داخل نطاق خدمته وأما مسجد العيد فيستوعب ٤٠,٠٠٠ مصلٍ على الأقل.

٩- متوافقة مع البيئة ولا تغير طبيعة الأرض:

إن عملية التوافق البيئي هي محاولة لإيجاد توازن بين البيئة المبنية والطبيعة، بحيث تنسجم البيئة المبنية مع البيئة المحيطة من خلال شكل الكتلة وألوان المبنى ومواد البناء وكأنها مقطوعة موسيقية أو سيمفونية تعزف بشكل متكامل ومتناسق. لقد حرص الكثير من رواد التوافق البيئي مع البيئة المبنية أو رواد «العمارة العضوية» على إيجاد الانسجام التام

بين العمارة والبيئة من خلال تطبيق عدة معايير كاستخدام مواد البناء المتوافرة في الموقع لتشييد المباني وتصميم الفتحات الخارجية لتتناسب مع طبيعة البيئة المحلية، ويمتد ذلك أيضاً إلى العمارة الداخلية والأثاث في محاولة لتركيب بيئة متزنة غير شاذة، تعبر عن المكان الذي ولدت فيه مما يكسبها صفة الهوية المحلية.

إن البيئة التي خلقها البارئ عزَّ وجلَّ مليئه بالأمثلة والتصاميم الطبيعية التي لا حصر لها حيث أنها تثري من الأفكار الإبداعية لدى المعماري فهي بمثابة معرض أو متحف طبيعي فني مفتوح.

وتحقيق التجانس البيئي مع المحيط العمراني إنما هو إبرز أهداف «العمارة العضوية»، وقد استطاع المعماري «فرانك لويد رايت» من خلال كتابة (An organic Architecture) أن يطبق تلك الأفكار من خلال «بيت الشلال»، حيث راعى فيه التوافق البيئي مع بيئة الغابة والشلالات، واستخدم نفس الصخور الموجودة في الموقع، فصار المبنى كأنه كتلة واحدة مع الطبيعة وجزءاً منها، وهناك بعض المحاولات الجادة في المملكة العربية السعودية لتطبيق ذلك الأسلوب في مبنى «قصر طويق» بالحي الدبلوماسي والذي أشرنا إليه سابقاً. إن أحد أهم عناصر التوافق البيئي اليوم هو أن لا يتمَّ التغيير من طبقة الأرض بحيث تطوّع البيئة للمباني بل إن العكس هو الصحيح فيجب أن نطوع المباني لكي تتوافق مع البيئة، فعلى سبيل المثال نلاحظ أن الاستغلال المفرط للرمال الجديدة يؤثر على الغطاء النباتي سلباً وينعكس على البيئة حيث لاحظ سكان «الجديّدة» في المغرب العربي أن كثرة استغلال الرمال الجديدة من خلال المقالع الموجودة هناك أدت إلى درجة أن مياه البحر أصبحت قريبة من الأراضي المزروعة وهذا يؤثر على طبيعة التربة وزيادة ملوحتها مما يجعلها أرضاً غير صالحة للزراعة.

لذلك فان احترام الطبيعة والتعامل معها هو أسلوب ذكي، وقد حثنا

الإسلام على الاقتصار والاكتفاء بالموجود وعدم الإساءة للبيئة بل المحافظة عليها ما أمكن، و نهانا عن عدم قلع الأشجار المثمرة أو التبول تحتها أو على المياه الجارية والأنهار، كما أمرنا رسولنا الكريم ﷺ بتعاهد الحفاظ على البيئة و الزراعة فقال ﷺ : «إن قامت الساعة وبيد أحدكم فسيلة، فاستطاع ألا تقوم حتى يغرسها، فليغرسها فله بذلك أجرٌ».

١٠- تخضع لنظام الوقف الإسلامي :

عرف الفقهاء الوقف بأنه «إعطاء عين لمن يستوفي منافعها والانتفاع بها، أو الانتفاع بها فقط على وجه التأبيد، وقد يكون على وجه التوقيت»، وعرفه أبو حنيفة بأنه «حبس العين على ملك الواقف والتصدق بمنفعتها على وجه من جهات البر في الحال أو المال».

وقد وردت نصوص في الكتاب والسنة تحثُّ على التصدق ووقف المال والعين، قال عز وجل ﴿ لَن تَنَالُوا۟ ٱلْبِرَّ حَتَّىٰ تُنفِقُوا۟ مِمَّا تُحِبُّونَ ۚ وَمَا تُنفِقُوا۟ مِن شَىْءٍ فَإِنَّ ٱللَّهَ بِهِۦ عَلِيمٌ ﴾ آل عمران : ٩١ – ٩٢

وقال تعالى : ﴿وَأَن تَصَدَّقُوا۟ خَيْرٌ لَّكُمْ ۖ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴾البقرة آية ٢٨٠. وقال ﷺ (إذا مات ابن آدم انقطع عمله إلا من ثلاث : صدقة جارية، أو علم ينتفع به، أو ولد صالح يدعو له).

إن استمرار الوقف في الإسلام يضمن تدفق عوائد المشاريع الخيرية لمكافحة الفقر والجهل والمرض، كما انه يضمن للفرد والمجتمع حياة مستقرة وآمنة، وفي التاريخ الإسلامي روي عن أنس بن مالك رضي الله عنه أنه قال : لما قدم رسول الله ﷺ المدينة، أمر بالمسجد وقال : يا بني النجار ثامنوني بحائطكم هذا فقالوا : لا والله لا نطلب ثمنه إلا إلى الله تعالى.

فهم بذلك قد أوقفوا الحائط أو البستان بهدف إقامة المسجد، كما يذكر لنا التاريخ الإسلامي الكثير من الأوقاف في مختلف بلدان الدول الإسلامية

فكان المسجد هو أول مبنى يوقف للصلاة إضافة إلى وظائفه الأخرى، مثل: إيواء الغريب والتعليم والقضاء، كما أوقفت مباني أخرى مثل الأربطة ودور رعاية وإسكان النساء من الأرامل والمطلقات ممن لا عائل لهن، والبيمارستانات و أماكن العلاج وغيرها كثير، كما ازدهر الوقف في عواصم الدول الإسلامية المختلفة،ففي مدينة القاهرة على سبيل المثال ازدهر الوقف إبان العصر المملوكي فاشتملت تقريباً على كل شيء كالأراضي الزراعية والدور والمباني وإلجاء الأيتام والمرابط والخوانق والوكالات والخانات والسبل ومعاصر الزيت والحمامات ومخازن الغلال وغيرها، وكذلك كان الحال في العصر العثماني.

يذكر «عثمان» أن من العوامل الأساسية التي أدت إلى انتشار المباني الدينية في العصر المملوكي هي تلك الأوقاف التي كانت توقف حتى تستمر في أداء رسالتها [١٠].

ويؤكد «حسن» على ضرورة إنشاء مجموعة من الصناديق الوقفية والتي تخدم مكونات العمارة كالتالي :

أ- الصندوق الوقفي لإنشاء المباني الخدمية العامة، حيث يكون هدف هذا الصندوق هو جمع التبرعات الوقفية لإنشاء مباني الخدمات العامة، واقترح الباحث أن تتفرع منها صناديق أخرى كإنشاء صندوق وقفي لإقامة المستشفيات والمراكز الصحية وصندوق آخر لإنشاء وصيانة المباني التعليمية وصندوق لإنشاء وتجهيز مباني الخدمات الاجتماعية.

ب-الصندوق الوقفي للحفاظ على التراث العمراني، ويهدف هذا الصندوق إلى جمع التبرعات التي تقوم بالحفاظ على التراث العمراني.

ج- الصندوق الوقفي للرعاية الاجتماعية، ويهدف هذا الصندوق إلى جمع التبرعات للمحتاجين من الأيتام والفقراء ونحو ذلك [١١].

وقد انتشرت الكثير من المباني الوقفية في العصر الحالي، ففي المملكة العربية السعودية، توجد مؤسسة الملك عبد الله بن عبد العزيز لوالديه للإسكان التنموي، ويتمثل هدفها في توفير السكن التنموي في المناطق الأكثر احتياجاً ولذوي الدخل المنخفض والمحدود فيها، استناداً إلى دراسات للاحتياجات، ووفق سلم موضوعي للأولويات، وإنشاء وحدات إسكانية منخفضة التكاليف، والإشراف على صيانتها، وتوفير الخدمات التطويرية اللازمة لمساعدة سكان المجمعات الإسكانية على تحسين مستوياتهم التعليمية والمهنية والمعيشية بجهودهم الذاتية، وبلوغ أقصى درجات الفاعلية والكفاءة في ذلك بالتعاون مع فئات المجتمع المدني. وكانت من ضمن مشاريع المؤسسة هي مشاريع الاسكان التنموي العاجل في مختلف مدن المملكة، حيث تمَّ تصميم وتنفيذ خمسة نماذج من الوحدات السكنية لتعكس احتياجات السكان وتتوافق مع أسلوب حياتهم المعيشية. والوحدات السكنية عبارة عن نماذج للسكن الريفي والجبلي والبلدي والحضري. (انظر الشكل (٣-١٢) إلى (٣-١٧)).



شكل(٣-١٢) : النموذج الريفي (أ) - مؤسسة الملك عبدالله بن عبدالعزيز لوالديه للإسكان التنموي.



شكل(٣-١٢) : النموذج الريفي (أ) - مؤسسة الملك عبدالله بن عبدالعزيز لوالديه للإسكان التنموي.



شكل(٣-١٤) : النموذج الجبلي - مؤسسة الملك عبدالله بن عبدالعزيز لوالديه للإسكان التنموي.



شكل(٣-١٥) : الوحدة البلدية - مؤسسة الملك عبدالله بن عبدالعزيز لوالديه للإسكان التنموي.



شكل (٣-١٦) : النموذج الحضري – مسقط الدور الأرضي - مؤسسة الملك عبدالله بن عبدالعزيز لوالديه للإسكان التنموي.



شكل (٣-١٧) : النموذج الحضري – مسقط الدور الأول - مؤسسة الملك عبدالله بن عبدالعزيز لوالديه للإسكان التنموي.

١١- تخضع لنظام الإرث وانتقال الملكية :

تميز الإسلام عن باقي الديانات السماوية بتحديد كامل وشامل لعملية الإرث ليخالف بذلك ما كان يعمله العرب قبل الإسلام وفي عصر الجاهلية حيث كانوا يورثون الرجال دون النساء، والكبار دون الصغار ولتحديد الموروث هناك قوانين وأسس واضحة يتم من خلالها تحديد المستفيدين من الإرث والمقدار المالي لكل فرد. وذلك واضح من الآيات المفصلة لطبيعة الإرث وجهاته، مثل آيات سورة النساء.

ولا يختلف الميراث وقوانينه باختلاف عين الموروث فالأموال والدور والممتلكات تورث لذلك تميزت العمارة الإسلامية بخضوعها لنظام الإرث الإسلامي وانتقال الملكية إلا أن يوصي الميت بأن يوقف جزءاً من أمواله أو ممتلكاته وقفاً في سبيل الله.

إن الميراث في الإسلام يقوم على تنظيم العلاقات الأسرية حيث أن له أهدافاً اقتصادية تساعد على لمِّ شمل الأسرة وتقوية الرابطة بين أفرادها، ويساعد على الموازنة وضبط التوزيع المالي، فهو بذلك مخالف للرأسمالية لأنه يكافح الفقر ولا يحصر الأموال في جهة واحدة فقط، وهو أيضا مخالف للاشتراكية أيضا لان مبدأ الاشتراكية لا تؤمن بالميراث إطلاقا فكل شيء للدولة.

لقد تميز الإسلام بالمساواة بين أفراد المجتمع، من خلال توزيع الميراث بين أقرباء الميت سواء كانوا رجالاً أو نساءً، وبذلك تتحقق العدالة الإلهية في خلقه بأفضل صورها وأروعها.

كما تميز الإسلام عن باقي الديانات السماوية الأخرى بنظام التوريث، فمثلاً في الديانة المسيحية لم تضع الكنيسة نظاماً محدداً للميراث حيث يخضع الورث في بعض الدول الغربية مثل «فرنسا» على سبيل المثال لنظام وضعي يقوم على أساس أن لا ترث الزوجة زوجها ولا يرث الزوج زوجته ولا يرث الأب والأم شيئاً من تركة ابنهما بوجود ولد أو بنت للمتوفي. فيتقاسم الأبناء والبنات الإرث بينهم للأنثى مثل حظ الذكر. وفي الديانة اليهودية، لا ترث النساء شيئا مع وجود الورثة من الرجال، حتى ولو كانت أُم المتوفى وأخواته على قيد الحياة.

إن فهمنا وإدراكنا للنظام الإسلامي في الميراث كأحد الأنظمة الاقتصادية في الإسلام، يجعلنا نعطي للعمارة الإسلامية ميزة وقيمة متميزة تكمن في إمكانية توريثها وقابلية العقار للانتقال. خصوصا إذا كان العقار ذا مردود مالي كبير أو قيمة تراثية معمارية، تستوجب الحفاظ عليها واستمرار بقائها.

١٢- تحرم تصوير ذوات الأرواح وتجسيمها :

لقد تميزت العمارة الإسلامية عن العمارة المسيحية الغربية والعمارة الوثنية بعدم احتوائها على ذوات الأرواح كمجسمات لها قدسية معينة أو حتى لو كانت ليست بذات قدسية كتجسيم الحيوانات وسائر المخلوقات الأخرى.

يشير «السامرائي» إلى أن الفن العربي توقف عند حدود صارمة للتجسيم، وذلك بسبب الخوف من الانزلاق إلى الوثنية وأصبح فناً مجرداً يسمى «الرقش»، و يشير المعنى الفلسفي للأرابيسك والزخارف المتكررة إلى تكرار التراتيل والتسبيح التي ترمز إلى العنصر والفكر والروح وبذلك ارتقى الفنان المسلم إلى قمة الذائقة التجريدية القائمة على الجمع بين المجرد والحركة التكرارية [١٢]. في حين أخفق البعض في الوصول إلى تلك الفلسفة الراقية.

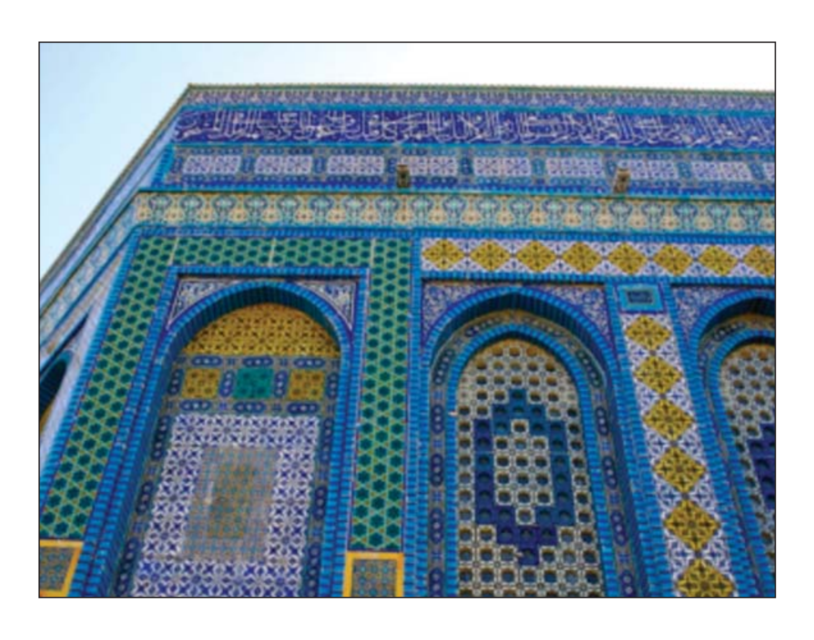
وسعى الأوروبيون في عصر النهضة،ومثلهم الإغريق، إلى التعبير عن الكمال الإلهي عن طريق تجسيم الكمال الإنساني، حيث كانوا ينظرون من خلال زاوية ضيقة للتعبير عن الكمال الإلهي وحتى يستحضروا الجمال الإلهي، الأمر الذي دعا المسلمين إلى الابتعاد عن تلك المجسمات لأن الله عز وجل هو وحده من ينفخ الروح في الأشياء وهو سبحانه ليس كمثله شيء فليس من المنطق تجسيم من ليس كمثله شيء.

ويستطرد الباحث السابق قائلا «إن الطبيعة والكمال الإلهي لا يصور في العمارة الإسلامية والفن الإسلامي كما تراها العين بل كما يفهمها العقل.

لأن الفن الإسلامي هو فن تركيبي يحلل الأجزاء ومن ثم يعيد تركيبها لا على شاكلتها القديمة وإنما بشكل جديد».

ويشير «بهنسي» إلى أن كثيراً من النقاد الأوروبيين أكدوا على أن

المسلمين في عمارتهم وفي فنونهم المختلفة كانوا يخافون من الفراغ فهم دائماً يستخدمون الزخرفة لملأ الفراغات والأرابيسك والزجاج المعشق، فقلما تجد فراغات خالية من تلك الأشكال والجماليات، حيث أشار المصدر السابق إلى أن السبب في ذلك هو الخوف من الفراغ، مثل الخوف من إبليس حيث يشغل المسلم نفسه بالتسبيح وبذكر الله عزَّ وجلَّ.(انظر الشكل (٣-١٨) و (٣-١٩)).



شكل(٣-١٨) : زخارف خارجية في مسجد قبة الصخرة، المصدر : ويكيبيديا، الموسوعة الحرة على الانترنت، هذه الصورة مرخصة للاستخدام الحر من خلال منظمة «المشاع الإبداعي» بواسطة «آنا يولين».



شكل(٣-١٩) : الزخرفة وفن التوريق بجامع الشيخ زايد – ابو ظبي – المصدر : ويكيبيديا، الموسوعة الحرة على الانترنت، هذه الصورة مرخصة للاستخدام الحر من خلال منظمة «المشاع الإبداعي» بواسطة «بوكو».

١٣- تطبيق مبدأ لا ضرر ولا ضرار :

يشير «وزيـري» إلـى أن العمارة الإسلامية ارتبطت بالفقه والقضاء الإسلامي بأحكام العمران والبنيان وعمران البيئة، تحقيقاً للإصلاح في الأرض والابتعاد عن الإفساد فيها او الاعتداء على حقوق الآخرين. حيث أخذت قاعدة «لا ضرر ولا ضرار «باباً واسعاً في كتب الفقه والعمارة في الإسـلام(١٣). وقد وضعت خمسة معايير لتطبيق هذا المبدأ في العمارة الإسلامية، وهي:

أ- لا يتعارض بناؤها مع المصلحة العامة :

ويشير «الهذلول» إلى أن الفقهاء من أتباع الإمام مالك يقسمون الضرر إلى صنفين : ضرر قائم وضرر مستجد، فأما الضرر القائم فهو الناتج عن أنشطة استقرت في المنطقة قبل غيرها من الأنشطة الأخرى حيث يجمع الفقهاء على إبقاء هذه الأنشطة لما لها من أحقية على غيرها وأسبقية على وجود الأنشطة الأخرى، وأما الضرر المستجد،فهي أضرار ناتجة عن أنشطة بدأت بعد استقرار الجوار والمجاورات السكنية المحيطة بها ومضى عليها وقت طويل قبل أن يشتكي منها الساكنون في المنطقة. فالحكم في ذلك هنا على قاعدتين : الأولى هو وقف الأنشطة في حال التلف والضرر مثل دخان نار الحمامات ورائحة الدباغة وغبار الطواحين. والقاعدة الثانية فترى الإبقاء على النشاط إذا كان ضرره بسيطاً وممكن التكيف معه مثل دخان المخابز أو مطابخ البيوت.

ويذكر المصدر السابق مثالين لتطبيق الأحكام التي تمَّ ذكرها أعلاه، فقد سئل ابن القاسم المتوفى عام ١٩١/ ٧٠٨م عن أحقية الجيران فيما لو أراد أحدهم أن يبني حماماً وطاحوناً وفرناً فوق أرض فضاء، فهل للجيران أن يمنعوه من إقامة تلك المرافق، فأشار القاضي إلى أن ذلك يعتبر من حقهم، إذا كان يسبب لهم ضرراً بليغاً، وذلك طبقا للأحكام التي توصي بمنع الأذى عن الجيران، وسئل أيضاً عن جواز أن يبني فرناً لصهر الذهب والفضة أو يبني طاحوناً أو يحفر بئراً أو مرحاضاً بالقرب من حائط الجيران، فأفتى بأن من حق الجيران منعه والاعتراض على أقامة تلك المنشآت لما تسببه من ضرر [١٤].

كما أشار «وزيري» إلى أن الفقهاء حددوا مسببات الضرر في ثلاثة أنواع وهي : الدخان والرائحة الكريهة والأصوات المزعجة [١٥].

وهناك مثال آخر ومهم كان في عصر الدولة الإسلامية الأول، حيث أقام المنافقون مسجد «ضرار» الذي أسس لمواجهة الدين الجديد بأسلوب

مواجهة الدين بالدين، فيذكر ابن عباس رضي الله عنه عن سبب نزول آية ﴿ وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مَسْجِدًا ضِرَارًا ﴾ سورة التوبة آية ١٠٧ وهم أناس من الأنصار ابتنوا مسجدا فقال لهم أبو عامر : ابنوا مسجدكم، واستعدوا بما استطعتم من قوة ومن سلاح، فاني ذاهب إلى قيصر ملك الروم، فأتى بجند من الروم، فأخرج محمداً وأصحابه، فلما فرغوا من مسجدهم، أتوا النبي ﷺ فقالوا : قد فرغنا من بناء مسجدنا، فنحب أن تصلي فيه، وتدعو لنا بالبركة ! فأنزل الله عز وجل فيه : ﴿ لَا تَقُمْ فِيهِ أَبَدًا لَّمَسْجِدٌ أُسِّسَ عَلَى التَّقْوَىٰ مِنْ أَوَّلِ يَوْمٍ أَحَقُّ أَن تَقُومَ فِيهِ ﴾ سورة التوبة اية١٠٨.

ب- تنهى عن بناء دور المراقص والخمارات :

يشير المصدر السابق إلى أن الفقهاء والقضاة المسلمين تعدى اهتمامهم بموضوع العمرانمن جوانبه المادية والتنظيمية إلى جوانبه الأخلاقية، إذ صار من مسؤوليات المحتسب إزالة وهدم مباني الفساد بالمدن الإسلامية كدور المراقص والخمارات وأماكن لعب القمار وغيره من المنكرات، وذكر المصدر السابق مثالاً على ذلك حيث أزال «علي آغا» في مصر خمارات وأماكن أخرى لممارسة المنكرات في مناطق مصر القديمة والصليبية وبولاق، وذلك بعد أن استفتى العلامة السيوطي وهو أحد فقهاء مصر المعروفين في هدم هذه المنشآت، فأفتى بهدمها لإزالة تلك المنكرات. وكما سبق القول، فإن العمارة الإسلامية هي عمارة روحية لذلك فإنه حري بأن لا تحتوي المدن في الدول الإسلامية على تلك المباني لما لها من إفساد لقيم الإنسان المسلم ولما لها من أضرار على الروح والعقل.

ج- تنهى عن اتخاذ الطرقات مجالس :

اهتمَّ الإسلام بكرامة الإنسان وحقوقه العامة والخاصة، وكما هو معروف فإن الطرقات مع المساكن تشكل ما يسمى بالبيئة المبنية أو البيئة العمرانية، ولقد نبهنا النبي ﷺ على تجنب الجلوس في الطرقات لأنها عادة سيئة وفيها اختراق للخصوصية الفردية وما ينجم عن ذلك من غيبة وعدم غض

للبصر، ومراقبة الذاهب والقادم. قال رسول الله ﷺ «إياكم والجلوس بالطرقات فقالوا يا رسول الله مالنا من مجالس بُدٌّ نتحدث فيها، فقال إذا أبيتم إلا المجلس فأعطوا الطريق حقه فقالوا، وما حق الطريق يا رسول الله؟ فقال:غض البصر وكف الأذى ورد السلام والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر» رواه البخاري.

ولقد لاحظنا في عناصر العمارة التقليدية وجود أماكن للجلوس أشبه ما تكون بالمقاعد الخاصة بالجلوس خارج المساكن حيث كان البعض يفضل تلك المجالس،مما يتعين معه لفت الأنظار إلى أن ذلك مخالف لتوجيهات الشريعة الإسلامية. لذلك لزم أن نتفاداها في تصاميمنا.

بالإضافة إلى ذلك فان للطريق ذوقيات كضرورة إماطة الأذى عن الطريق لأن الإسلام دين نظافة، حيث قال الرسول ﷺ «الإيمان بضع وسبعون شعبة أدناها إماطة الأذى عن الطريق» رواه الترمذي.

د- لا تبنى على أرض مغصوبة :

اتفقت معظم آراء الفقهاء وأهل العلم حول عدم جواز الصلاة على الأرض المغصوبة بمعنى أنها أيضا لا تصح بأن تكون مسجداً، إلا أن بعض العلماء اختلفوا حول ذلك وهم قلة، فقد ورد عن الإمام النووي في شرحه لصحيح مسلم أن الصلاة على الأرض المغصوبة صحيحة ولكن لا ينال صاحبها الأجر والثواب. لذلك فمن الأفضل عدم الصلاة على الأرض المغصوبة من الأساس. ويجب أن يتم التفريق بين الأرض المغصوبة والأرض التي تم وضع اليد عليها للمصلحة العامة إذا تمَّ تعويض صاحبها بقيمة الأرض وقد نحتاج إلى دراسة مفصلة حول ذلك من خلال قيام الفقهاء والمتخصصين في توضيح معنى اغتصاب الأرض وموارد الشبهات حول ذلك المفهوم.

خصائص العمارة الإسلامية وقابلية التجديد والابتكار :

ارتبطت ظاهرة التجديد والابتكار في العمارة الإسلامية مع ثقافة الموروث الفني الإسلامي من خلال تفعيل عملية التأصيل المعماري، والدعوة إلى الارتباط بحميمية البعد الثقافي على مرِّ العصور و الأزمان لما للموروث الإسلامي العمراني من مكانة في قلب العالم بأسره، ولما يحتويه من خصائص فنية لا يمكن مقارنتها مع أي منتج معماري حول العالم. عندما زار المعماري «فرانك لويد رايت» التحفة المعمارية الرائعة جامع السلطان حسن في مصر عام ١٩٥٨م قال: «كيف يجوز لقوم لديهم مثل هذه الروائع أن يتركوها ويستبدلوا بها سوءات العمارة الغربية التي يحاول الغربيون أنفسهم أن يتخلصوا منها». وذلك بعد أن قام بعدة زيارات متكررة لذلك الجامع وقد زار الجامع مؤخرا الرئيس الأمريكي باراك أوباما حيث أبدى إعجابه الشديد بما شاهده من الفن الإسلامي الرائع.

لقد تميزت العمارة الإسلامية باحتوائها العديد من العناصر المعمارية الراقية وتوظيف الفنون ضمن منظومة العمارة، فابتكر المسلمون الكثير من العناصر المعمارية المرتبطة بروحية الإسلام مثل المشربيات والرواشين و الارابيسك و المآذن والزخرفة بالخط العربي واستخدام فكرة الصحن والإيوان وغيرها كثير، كما طور المسلمون الكثير من عناصر العمارة والفنون التي اقتبسوها من مختلف الدول والعصور، حتى أصبحت تمثل هوية إسلامية مستقلة مثل الزجاج المعشق والفوانيس واستخدام الرخام والمرمر وغيرها كثير.

إن للعمارة الإسلامية خصائص تتميز بها عن باقي الأنماط الأخرى، وبنوع من الإيجاز، يمكن تقسيم تلك الخصائص إلى أربعة محاور أساسية، هي:

أولا : الفراغ والكتلة :

امتازت العمارة الإسلامية بالتوظيف الأمثل للفراغات الداخلية، حيث عرفت بأنها عمارة الداخل، والمتتبع لأسلوب هذه العمارة يلاحظ أن المعماري المسلم ركز على الاستغلال الأمثل لجميع الفراغات، فكانت العمارة الإسلامية مقترنة بالكتلة ففيها المغطى والمفتوح كالصحن والإيوان وفيها الفراغات التمهيدية الوسطية مثل العقود والأروقة وفيها الفراغات الرمزية كالقباب والمآذن وغيرها كثير من عناصر تفنن المبدع في الكتل البنائية الذي يشبه النحت المبدع والوظيفي للفراغات المعمارية.

لقد اشتهرت العمارة الإسلامية باستخدام الأشكال المتزنة والجميلة، حيث طبقت النسبة الذهبية على كثير من المباني التي أنشئت في عصر ازدهار الدولة الإسلامية كجامع عقبة بن نافع في القيروان، وقد طبقت «النسبة الذهبية» في كثير من عناصر الجامع ابتداء من المساحة الكلية إلى مساحة الفناء وحتى تناسب المنارات مع العناصر الأخرى، وكذلك الحال في مسجد قبة الصخرة وكثير من المباني التاريخية في رقعة الدولة الإسلامية.

لقد حاول بعض المستشرقين من أمثال «كريسويل» إعطاء الكنائس والمباني الدينية في عصر الدولة البيزنطية الصبغة الدينية و المقدسة من خلال القول إن تلك الكنائس و المباني طبقت نسبة الجمال الكوني وهي «النسبة الذهبية»، فعقد مقارنة بين طول المباني مع العرض متجاهلاً ارتفاع المباني حيث أن معظم الكنائس التي أقيمت في عصر الدولة البيزنطية، وحتى التي أقيمت في عصر النهضة، ذات ارتفاعات عالية، وقد يكون ذلك بهدف إضفاء طابع الخشوع والقداسة، ولكن سبق المسلمون الآخرين بإبداعاتهم من خلال تنفيذ مباني ذات كتلة متزنة بحيث أن ارتفاعاتها مريحة ومتناسبة مع طول المبنى وعرضه.

وفي الحقيقة، إن «النسبة الذهبية» التي وضعت إبان الحضارة اليونانية هي نسبة غير متكاملة وناقصة !! و ذلك لأن هذه النسبة تعالج بُعد الطول إلى العرض متجاهلة البعد الثالث وهو الارتفاع، وحيث أن العمارة هي مباني ذات كتل مجسمة ثلاثية الأبعاد وليست صوراً ثنائية الأبعاد، فقد كان من الواجب إيجاد صيغة متكاملة تعالج مشكلة البعد الثالث لكي تتجاوز النقص في «النسبة الذهبية».

ثانيا: الزخرفة و التشكيل :

ارتبطت العمارة الإسلامية ببعض المفردات المعمارية حيث أعطتها الهوية الخاصة بها كفن الزخرفة والتشكيل، وأصبح المعماريون يتناقلون هذه المفردات للدلالة على اهتمامهم بتلك التفاصيل الموروثة، و إن كانت متنوعة ومختلفة بعض الشيئ وذلك بسبب اختلاف بيئات الفنانين والمعماريين والجغرافية واختلاف الموروثات الثقافية.

وفي العصر الحديث، أصبح هناك توجه لتوحيد تلك الدلالات و الرموز والأشكال لإكساب العمارة الإسلامية صفة الوحدة والشخصية المتميزة، ولعل حسن فتحي كان أحد هؤلاء الرواد الذين حاولوا تقريب تلك الدلالات والرموز في العمارة الإسلامية و ذلك لأنه أحيا تلك الرموز وأعاد صياغتها مما أكسبها صفة المعاصرة والأصالة.

لقد ارتبطت الزخرفة بالعمارة الإسلامية وأصبحت من أهم خصائص الفن المعماري، فانتشر فن الأرابيسك والزجاج المعشق الذي طوره المسلمون من الأوروبيين وأضافوا له كتابات إسلامية ونقوش نباتية وإنتشر هذا الزجاج في العديد من المساجد التي بنيت في مختلف أرجاء الدولة الإسلامية.

وتحفل اليوم الكثير من المساجد العثمانية في تركيا و مصر بالزجاج

المعشق، وكذلك استخدم المسلمون فنونا أُخرى في العمارة مثل المقرنصات والزخرفة الشكلية و النباتية والمنمنمات والرقش و الحجر الملون في الأقواس و في الصحون الداخلية، إضافة إلى ذلك، أدخل الخط العربي ضمن رموز دلالات العمارة الإسلامية، فزينت جدران المساجد بالآيات القرآنية و أحيانا بكتابة الأحاديث النبوية بالخط الكوفي وخط الرقعة وبأحجار الفسيفساء والنقش على الحجر.

ولعلنا نلاحظ ذلك واضحاً في المساجد العثمانية والمساجد المملوكية. (انظر الشكل (٣-٢٠) إلى (٣-٢٣)).

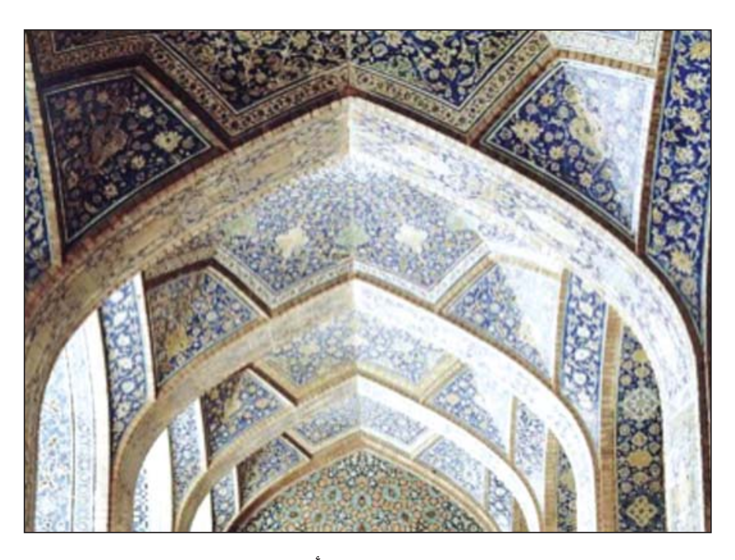


شكل (٣-٢٠) : جامع الشيخ لطف الله – أصفهان،

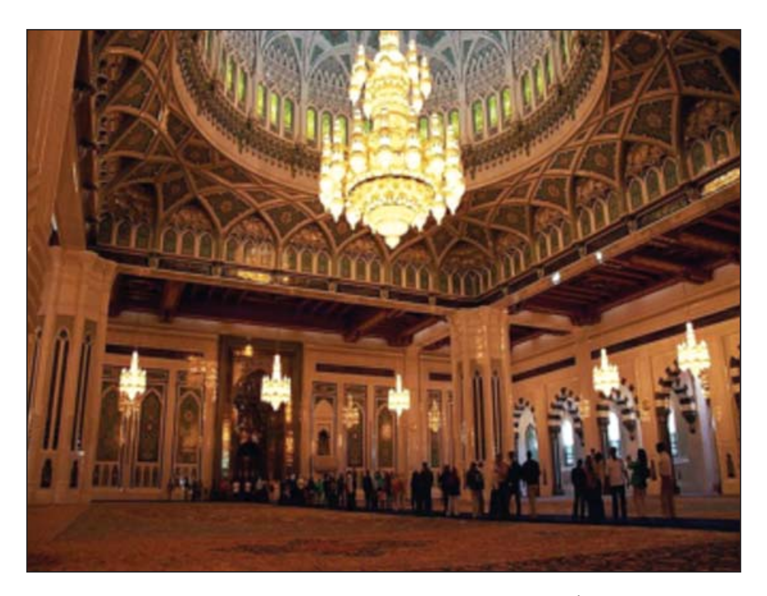
– لاحظ كمية زخرفة الفسيفساء في القبة. المصدر : ويكيبيديا، الموسوعة الحرة على الانترنت، هذه الصورة مرخصة للاستخدام الحر من خلال منظمة «المشاع الإبداعي» بواسطة «نيكولاس هاجيساوس».



شكل (٣-٢١) : قبة مزخرفة من الداخل لجامع الشيخ زايد، المصدر : ويكيبيديا، الموسوعة الحرة على الانترنت، هذه الصورة مرخصة للاستخدام الحر من خلال منظمة «المشاع الإبداعي» بواسطة «بوكو».



شكل (٣-٢٢) : زخرفة بالفسيفساء في رواق أحد المساجد. المصدر : مجلة الوعي الاسلامي، العدد ٥٣٢ بتاريخ ٢٠١٠/٩/٣م.



شكل (٣-٢٣) : أرابيسك وزخارف في جامع السلطان قابوس الكبير، المصدر : ويكيبيديا، الموسوعة الحرة على الانترنت، هذه الصورة مرخصة للاستخدام الحر من خلال منظمة «المشاع الإبداعي» بواسطة «لان» و «وندي سيويل».

ثالثا : الوحدة و التنوع :

يشير «جمعة» إلى أن هناك ملامح تحدد بيئة المدينة الإسلامية وتكسبها ذلك المظهر الخارجي الموحد، فقد تتنوع في الشكل وتتحد في المضمون بسبب اختلاف المنطقة الجغرافية و العادات والتقاليد وغيرها. ويذكر بوجمعة بعضاً من مظاهر الوحدة في عمارة المدينة الإسلامية وهي :

أ- الترابط العضوي : حيث يعكس المظهر العام للمدينة الإسلامية الترابط العضوي في المجاورات السكنية معبراً عن وظائف المكونات المعمارية وكذلك التلقائية والهوية في التشكيل العمراني المقتبسة من الترابط الاجتماعي واحترام حقوق الجوار وغيرها من الأبعاد الاجتماعية.

ب- الانسجام والتناسب القياسي : وتتنوع الفراغات في المدينة الإسلامية

من خلال تدرج هرمي يبدأ بالفناء الداخلي للوحدة السكنية ثم «البراحة» أو الفناء الخارجي لمجموعة سكنية (Cluster) ثم الساحة الرئيسية التي تكوِّن مجمعاً للأسواق و المسجد ومكاناً للتنزه، وهذا التنوع في الفراغ مرتبط بالمقياس الإنساني ومبني على حاجة الإنسان، وليس كما يقول بعض الغربيين والمستشرقين بأن المدينة الإسلامية هي تجمع بسيط من الشوارع و المباني بدون مراعاة الكثير من معايير العمارة و حاجة الإنسان الفعلية، بل إنها كيان متكامل ومتوافق مع مقياس الناس وحاجاتهم.

ج- تدرج الشوارع وتكامل الفراغات : تنتظم الشوارع في المدينة الإسلامية من خلال نسق واضح مرتبط بالتكوينات المعمارية للمدينة، حيث تشكل تلك التكوينات المعمارية الشوارع العامة، وكذلك تتكون الشوارع الثانوية بين المساكن والتي عادة ما تشترك في حقوق الارتفاق، وبعد ذلك تنقسم إلى أزقة ودروب أصغر. والدارس لوضع المدينة الإسلامية يلاحظ ذلك واضحاً في المدن القديمة كمدينة بغداد و مدينة البصرة، حيث ذكرت المراجع بأن عرض الشارع الأعظم (٦٠ ذراعاً) وعرض الشوارع الأخرى (٢٠ ذراعاً) و عرض الأزقة (٧ أذرعة).

د- التدرج الوظيفي : تتدرج الوظائف في المدينة الإسلامية بحسب وظيفة كل مرفق فمثلاً تتركز الوظائف السياسية والإدارية والدينية بداخل مركز المدينة وذلك بسبب وجود المسجد الجامع ودار الإمارة والقضاء في مركز المدينة، كما تتركز الأسواق و المزارع في محيط المدينة. وهذا ما ينسجم مع القوانين الدولية لتنسيق وتخطيط المدن المعاصرة.

هـ - انفتاح المجال السكني على الداخل: تميزت العمارة الإسلامية بالانفتاح إلى الداخل والانغلاق على الخارج لتوفير الخصوصية الفردية للساكنين وذلك من خلال توفير الأفنية الداخلية والتي عادة ما تتركز بداخل الوحدة السكنية وفي المنتصف وقد يلاحظ وجود بعض الشبابيك

أو منافذ للتهوية وتوفير الإنارة تطل على الخارج، حيث أنها توضع للحاجة القصوى بالإضافة إلى كونها فوق مستوى النظر لتحافظ على حرمة الساكنين بالداخل (١٦).

ويشير «بهنسي» إلى أن عامل الوحدة هو من أبرز خصائص العمارة الإسلامية على اختلاف مناطق الدول الإسلامية وهذا ما يكسبها صفة الهوية الخاصة بها، ومن السهولة ملاحظة أن المنشآت الدينية الإسلامية لم تختلف عن بعضها البعض سواء كانت في الشرق أم في الغرب، كما أن وحدة وتنوع العمارة الإسلامية من خصائصها المميزة والتي تساعد على تكوين عمارة حديثة تتمتع بالأصالة ولها قابلية التطور والإبداع والتجديد، وقد تميزت عن باقي الفنون والعمارة في الحضارات الأخرى. ويوضح «بهنسي» ذلك من خلال الإشارة إلى أن الفن الكلاسيكي الإغريقي والروماني أتبع ثلاثة أنظمة فقط لم يتجاوزها المعماريون، وهي النظام الدوري والنظام الأيوني والنظام الكورنثي، وهي تخضع لنظام معماري واحد يتكون من الحامل و المحمول، فالمحمول مكون من البروز الخارجي والإفريز، والحامل مكون من أعمدة متشابهة ولا تختلف إلا باختلاف التيجان فقط. وهناك مثال آخر للفن المسيحي القوطي والبيزنطي، وهما لا يخرجان عن شكل البازيليك الروماني مع وجود الكثير من التماثيل في العمارة القوطية والرسوم الجدارية في العمارة البيزنطية. في حين لا يوجد هذا الحصر والتصنيف في العمارة الإسلامية، بل إنها تعيش حالة من التعددية الفنية تدل بوضوح على قدرة المسلمين على إبداع وابتكار أشكال لا حصر لها، وتتجلى تلك الإبداعات في عواصم ومدن الدول الإسلامية في أغرا وبغداد ودمشق و أصفهان والقاهرة وقرطبة والقيروان، حيث تعود تلك الإبداعات إلى ما قبل خمسة عشر قرنا من تاريخ الحضارة الإسلامية (١٧).

رابعا : الانسجام الروحي :

إن مفردات العمارة الإسلامية وعناصرها تنسجم روحياً مع متطلبات المجتمع المدني الإسلامي، حيث تحقق التوازن التام بين الجوانب المادية والمشاعر الروحية، وقد مكنت المسلمين من حلِّ مشاكل البناء بفعالية وبتوافق مع عقيدة المسلمين السمحة. ومن بين تلك المفردات الانسجام مع مواد البناء حيث تبنى المساكن من نفس مواد البناء المتوفرة، فالبيئة الصحراوية تبني بالطين الذي كان ولا يزال يمثل جزءاً من جسد الإنسان فالعمارة الطينية مخلوقة من نفس المادة التي خلقت منها العمارة البشرية، وكذلك الحال في البيئة التي يكثر بها شجر النخيل فتراهم يبنون عمارتهم من جريد النخل وجذوعها ويأكلون أيضا من ثمرها ويصنعون بسطهم وأوانيهم من جريدها، وكذلك الحال في البيئات التي تنتشر بها الحجارة كالأردن وفلسطين وبعض البلاد الأخرى فهم يبنون بالحجارة، مما يعطي مؤشراً واضحاً على أن الممارسات البشرية العفوية هي من صميم البيئة ومنسجمة روحياً ومعنوياً معها. بالإضافة إلى ذلك كانت عمارة المجتمعات الإسلامية منسجمة مع طبيعة الأرض وشكلها ويتضح ذلك في مبانيهم الريفية.

إن وجود قوانين للبناء في المجتمعات التقليدية للمسلمين أو ما يسمى بأحكام البناء فقهياً، وإرتباط هذه الأحكام الفقهية بعمارة المسلمين يشعر الآخرين بأن تلك العمارة هي بيئة منظمة ومقتبسة من أحكام الشريعة من خلال انعكاس المفاهيم الإسلامية على الطرز المعمارية مما يولد في العقل الباطن تجسد القيم الإسلامية شكلياً في تلك العمارة، ونستطيع أن نضرب مثالاً على ذلك بالمشربية من خلال توفيرها للخصوصية، وتعرف في بعض بلدان العالم الإسلامي بـ «الرواشين» أو «الشناشيل» أو «المشربيات». حيث يوفر نظام المشربية عدة مزايا، فهي تتيح لأصحاب المنزل رؤية من هم في

الشارع في حين لا يستطيع الذين يمشون في الشارع رؤيتهم بسبب اختلاف كمية الضوء داخل المشربية عن خارجها. ولذلك توفر المشربية خصوصية لأصحاب الدار وهذا ما يتوافق مع قيم التستر وغض البصر واحترام حقوق الآخرين وعدم التطفل عليهم. ولعل في توفر الزجاج المعشق في بيئة عمارة المسلمين هو ترجمة فنية لمبدأ غض البصر فقد أثبتت الدراسات الأثرية أن الشبابيك التي تحتوي على الزجاج المعشق بالجص استخدم منذ العصر الأموي في كثير من قصور الخلفاء العباسيين.

كما عرفت المدينة الإسلامية أنواعاً أخرى من الشبابيك كالمدورات الرخامية في اليمن «القمريات» وهي تسمح بنفاذ الضوء من خلالها، وكذلك «الشماسات» المغربية وهي نوافذ نصف دائرية توجد أعلى الأبواب والنوافذ ومكسوة بالزجاج الملون. كما ارتبطت الكثير من مفردات العمارة الإسلامية بالانسجام الروحي مع المتطلبات المعمارية والوظيفية لعمارة المسلمين، فبالإضافة إلى المشربية نجد الفناء الداخلي الذي يوفر الخصوصية ونوافير الماء التي ترمز إلى النقاء والطهارة بالإضافة إلى وظيفة تلطيف الأجواء الداخلية وتبردها، وكذلك نجد الفوانيس والثريات والبلور والمرمر والرخام والأرابيسك والزخارف والخط العربي والتوريق والرقش والنباتات والأشجار تتناغم مع بعضها البعض وتعكس بعض مفاهيم الجمال والانسجام الروحي الذي توفره البيئة الداخلية لعمارة المسلمين، وأن جنة المسلم تكون من الداخل فهي تتوافق مع الروح لأنها بداخل الجسد وتتوافق مع العقيدة لأن الإيمان في القلب.

القيم الفنية الإسلامية لا تتبدل وفق الزمان و المكان :

إن المتفحص للأوابد التاريخية الإسلامية والمنتشرة في أرجاء المعمورة كقصور الحمراء في غرناطة والجامع الكبير في قرطبة وجامع القرويين في فاس والجامع الأموي في دمشق و الجوامع العثمانية في اسطنبول ومنارة

سامراء الحلزونية وجامع السلطان أحمد وغيرها كثير، يجد أن هناك قيماً معمارية لا تتبدل على الرغم من تباعد المسافات بينها واختلاف أزمنة إنشائها. يقول الفيلسوف الفرنسي الذي اعتنق الإسلام «روجيه جارودي» إن نظرة ولو سطحية على شواهد الفن الإسلامي في العالم تكشف لنا عن أصالتها وجودتها العميقة، وتشعرنا بأن ذات التجربة الروحية تحيا في أي مبنى روحي، أيا كان مكانه الجغرافي أو غايته».

كما يؤكد الكثير من الباحثين في مجال العمارة و الفنون الإسلامية أن تلك الفنون الإسلامية هي الأوسع انتشاراً والأطول عمراً، فهي قد ولدت في القرن الأول الهجري وامتدت إلى القرن الثاني عشر الهجري، وهي بلا شك لا زالت قائمة. وهذه الفنون الإسلامية تعتبر من أسمى و أنبل الفنون بسبب تحررها من المادية البحتة، حيث أنها تجمع بين الروح والفكر. فهي بذلك ترتقي إلى قمة الذائقة الحسية الروحية.

إن سرَّ تشابه تلك الفنون والقيم الإسلامية في العمارة و العمران بالرغم من الفرق الشاسع بين الموقع الجغرافي والوقت الزماني الذي أنشئت به هو توحد الهدف والرؤية التي انطبعت في نفوس المسلمين وعقولهم من معماريين وبنائيين و نقاشين، فكان ذلك الإبداع،رغم تنوعه، متشابهاً ومتوحداً على أعلى المقاييس.

لقد تولدت تلك القيم الفنية الإسلامية وتطورت، وكونت لها شخصية مستقلة تستند إلى رؤية فلسفية تقوم على أن الإنسان جزء من هذا الكون الواسع وأنه خليفة في الأرض فهو يسير وفق هدايات خالقه.

كما تبلورت شخصية الفن الإسلامي ضمن إطار فكري معين أكسبها هوية و شخصية مستقلة مختلفة عن ثقافات المجتمعات الأخرى وذلك من خلال كراهية تصوير المخلوقات لكي لا يقع الإنسان في منزلق الإيحاءات الوثنية واكتفى بالرسومات الجدارية والخط العربي والزخارف الهندسية

وأعمال المنحنيات والنقش و الجبس وغيرها، واستخدام الطرق الفنية في التلاعب بالظل والنور والألوان.

إننا اليوم بأمس الحاجة إلى صحوة معمارية تعيد إلى أذهاننا العصور الذهبية لعمارة المسلمين وفنونهم، لنجلوها ونعيد صياغتها بقالب عصري متميز. واليوم نشهد إقبالا كثيفاً من قبل الغربيين على زيارة مباني التراث الإسلامي بسبب إعجابهم بها، وما الزيارة الأخيرة لملكة بريطانيا في أواخر هذا العام (٢٠١٠م) لمباني إسلامية جميلة كجامع الشيخ زايد وجامع مسقط الكبير إلا إثبات لاهتمام الغربيين بعمارة المسلمين حيث أبدت إعجابها الشديد بما رأت من فنون إسلامية راقية ترتقي بالذائقة الجمالية إلى الحس المرهف للفنان المسلم.

الثقافة العمرانية الإسلامية قادمة :

إن ثقافة العمران الإسلامي، باعتبارها أحد روافد الثقافة الإسلامية وأحد رموز الدلالات الفنية الاجتماعية للمسلمين، كانت ولا زالت محط أنظار المستشرقين والغربيين المثقفين كحالة من حالات الاعتزاز بالهوية والتأثر بالقيم الإسلامية. وهو ما لا يوجد في المشهد الغربي المفتقر لتلك القيم والمبادئ. فكان أن طور الغربيون خيارات جديدة من أهمها «حرب القيم» والتي وضعت مبادئها بعد أن يئس الغربيون من الوصول إلى نموذج أخلاقي معاصر منافس لحضارة المسلمين وفنونهم. وكانت حرب القيم تهدف إلى غرس القيم الغربية داخل كل فرد مسلم، وجعله يتأثر بها ويقيس جميع أمور حياته عليها، واستهجان جميع القيم في الحضارات الأخرى ومن بينها حضارة المسلمين. ولا ننسى أنه في العام ٢٠٠٥م وفرت الإدارة الأمريكية ميزانية بقيمة ٢١ مليار دولار لوسائل الإعلام العربية ومؤسسات البحث لتبني نموذج غربي متلبس في ثوب إسلامي. لقد تبلور لدى الغربيين فكرة ضرورة عدم الاختلاف وإلغاء حق الاحتفاظ بالهوية لأهداف سياسية

استعمارية واقتصادية مصلحية. وكانت العولمة الاقتصادية هي أحد أهم أسباب التهام الثقافات القومية وتصنيفها ضمن نموذج غربي موحد. وبالتالي إلغاء الهوية الإسلامية و العربية أو مسخ تلك الهوية لمصلحة العولمة المحاطة بالشبهات والشكوك.

لقد بدأت العمارة الإسلامية تتجه نحو العالمية من خلال تلك القيم التي تستند عليها، وأخذ الغربيون يلاحظون ذلك، فبعد أن ظهر القرار السياسي بمنع مآذن للمساجد في سويسرا، ظهرت بعد ذلك مسابقات وجوائز لأجمل مئذنة وأجمل مسجد وقد كان من ضمن أعضاء لجنة التحكيم قساوسة من الكنيسة، حيث أصبحت تلك المباني والمفردات المعمارية الراقية جزءاً لا يتجزأ من حضارة الغرب والعالم الغربي. إن الانتشار الكثيف والكبير لقصور الحمراء في غرناطة وأشبيلية وغيرها من المباني التي تجسد الفكر الواعي والحضاري لعمارة المسلمين لهو دليل على انتصار العمارة الإسلامية وروعة الفن الإسلامي الجميل. حتى ولو كانت تلك القصور فيها ما فيها من البذخ والإسراف، ولكنها بقيت أيقونة بصرية إسلامية وجزءاً حضارياً من الحضارة الإسلامية في إسبانيا التي تعتز بوجودها في أرضها.

لقد بدأ التوجه في الآونة الأخيرة نحو أسلوب العمارة الإسلامية من خلال إيجاد مسميات جديدة كالعمارة المستدامة وكالعمارة المجتمعية وغيرها كثير بعد فشل النموذج الغربي الذي طور العمارة من ناحية مواد البناء والتقنيات الحديثة فقط، في حين أنه لا يصمد أمام الذوق الإسلامي الفني لعدة أسباب منها الاختلاف بين الثقافة الشرقية والغربية، فقد ولَّد التباين بين الثقافة الشرقية والغربية الكثير من الاختلاف في مجالات عديدة مثل العادات والتقاليد واللغة والأزياء والغناء والعمارة والمأكل وهناك عوامل أساسية جعلت الثقافة الإسلامية تتميز عن الثقافة الغربية، وهي:

أ- الترابط الاجتماعي :

من المعروف لدى الجميع بأن ثقافة المسلمين تحثُّ على الترابط الاجتماعي بين أفراد المجتمع، والانصهار ضمن مجتمع حصين ومتماسك، الأمر الذي ينعكس على عمارة المسلمين، ويجعلها تطبق مبدأ حقوق الجوار والتكامل المجتمعي، وقد ترجمت تلك المفردات إلى حقائق في المجاورات السكنية في البيئة الإسلامية التقليدية، واستخدمت الحواري المجتمعة ذات المدخل الواحد والشوارع ذوات النهايات المسدودة والتحمت المباني مع بعضها البعض، بل إن تلك المباني كانت تفتح على بعضها البعض من خلال شبابيك صغيرة في أفنية تلك الدور لتزويد الجيران بالطعام كنوع من أنواع إطعام الجار والتكافل والترابط الاجتماعي، وعلى عكس ذلك في العالم الغربي، حيث لا وجود للترابط الاجتماعي و لا سبيل لمعرفة المجاورين أو حتى إلقاء التحية عليهم. وليس من أولويات المجتمع الغربي احترام المجاورين، الأمر الذي جعل المفكرين الغربيين يعيدون النظر في مسالة الترابط الاجتماعي. وهنا مثال آخر يوضح علاقة المجاورين ببعضهم وحسب ثقافتهم، فمثلاً في الصين لا يحبُّ الناس أن يتعدى الجيران على حقوقهم الخاصة بأن يلامس جدران بيتهم بيوت الآخرين، فتجد أن بين كل بيت فراغ صغير يطلق عليه (Engawa) يحقق لهم الخصوصية الخاصة بهم.

ب- وحدة اللغة والدين و الثقافة :

لقد أكسبت وحدة اللغة والدين والثقافة العمارة الإسلامية تنوعاً فنياً راقياً، ففي البلدان العربية مثلاً التي امتدت من الخليج العربي شرقاً إلى المغرب العربي غرباً، نجد تنوعا معماريا غنيا ومليئا بمفردات معمارية فنية، و في نفس الوقت ذات مضمون موحد ليشكل قومية معمارية متنوعة ومترابطة في نفس الوقت تماماً كلوحة فسيفسائية تتداخل فيها الألوان والنقوش.

وأدت هذه العناصر الثلاثة المرتبطة مع بعضها البعض إلى إثراء تلك الفنون و العمارة دون انحراف عن القيم والمبادئ التي رسمت من أجلها.

فهي امتداد لعبق الماضي بصورة حديثة وعصرية، في حين لم يستطع الآخرون المقاومة والسير على نفس الخطى والأهداف السابقة كما حصل في تبني أفكار معمارية شاذة كتبني أفكار «دريدا» في التفكيك، وكذلك تبني أفكار مدرسة «الباوهاوس» في ألمانيا والتي تهدف إلى مكننة البناء بسبب تأثير الفكر الاشتراكي آنذاك، ولم تصمد تلك التيارات كثيراً حيث وجه لها الكثير من النقد، ووصف أسلوبها الحداثي بالإبداع المتطرف.

نحو مفهوم جديد لمدينة إسلامية فاضلة :

إن العمارة في البيئات الإسلامية بيئة مبنية تعكس المفاهيم والتعاليم الإسلامية وتراعي الاحتياجات الوظيفية، ولما كانت البشرية على مرّ العصور تعيش في مجتمعات إنسانية متكاتفة لزمنا أن نوضح المفهوم الإسلامي في المجاورة السكنية من وجهة نظر القيم الإسلامية، ونحاول ترجمتها إلى بيئة مبنية توجه السلوك نحو المطلوب، وهذا أحد أهداف المدينة الفاضلة بالإضافة إلى التعرف على إمكانات المؤسسات غير الحكومية وقدرتها على مواجهة صعوبات البيئية العمرانية المحيطة بالمستخدمين ومشاكلها.

لكن هل العمارة وحدها كافية لإيجاد مثل هذه المدينة الفاضلة ؟ وهل يمكن إيجادها ؟

يرى الفيلسوف اليوناني أفلاطون في كتابه «الجمهورية» أنه من الصعب جدا بل أنه ضرب من الخيال تطبيق ذلك بسبب طبيعة المجتمع اليوناني آنذاك والقائم على أساس وجود نخبة من المجتمع إلى جانب العبودية !

كما أسهم الفيلسوف المسلم الفارابي في كتابه «المدينة الفاضلة» في محاولة تصوير المدينة المدنية الخيالية التي يكون فيها مجتمع مثالي قائم

على العدل والأخلاق، ويبدو أنه خلص إلى ما خلص إليه أفلاطون، ولكنه قال إن البشر على تنافرهم محتاجون إلى الاجتماع والتعاون.

و سار على خطاهم الكثير من الفلاسفة والكتاب في القرن التاسع عشر مثل «صموئيل بتلر» و «وليم مورس» اللذين كتبا عن المجتمع المثالي وكيف يجب أن يكون.

ونحن نؤمن كمعماريين بأن سحر العمارة له تأثير قادر على تغيير جزء من حياة المجتمع وليس ككل حيث نؤمن بان العمارة موجهة للسلوك، بمعنى أنه يمكن التحكم في السلوك الإنساني معمارياً و ذلك من خلال وضع معايير معينة ومفاهيم أخلاقية نستطيع بعد إدراكها أن نترجم أداءها شكلياً من خلال العمارة.

وقد قمت بوضع معايير تندرج تحتها عدة أقسام تابعة لها تعتبر أساساً لإقامة المدينة الإسلامية الفاضلة والتي تقتبس من قيم الإسلام وتعاليمه منهجها، وهي كالتالي:

أ- معايير اجتماعية :

ويتم ذلك من خلال تطبيق النقاط التالية :

١- الحفاظ على خصوصية الجنسين: وهذا يقودنا إلى ضرورة فهم معنى الاختلاط المحرم، هل هو الاختلاط عند وجود الخلوة أم لا؟ وهل إن النظر إلى المرأة الأجنبية محرم لمجرد النظر أم للخوف من الوقوع في الحرام؟ ماذا لو كانت المرأة مرتدية كامل حجابها الشرعي؟ إن توضيح هذه النقاط وفهمها وإدراكها يقودنا إلى التصميم الصحيح في بيئتنا السكنية والتي تشمل المساكن والمدارس والمستشفيات والمجتمعات السكنية والمتاجر وغيرها.

٢- خلط شرائح المجتمع وإسكانهم في بيئة واحدة وعدم عزلهم على

أسس عرقية أو مذهبية أو مستوى معيشي معين : وقد سبق أن ذكرنا بأن إيجاد مساكن للفقراء أو لذوي الدخل المحدود بشكل مجتمعات سكنية له أبعاد اجتماعية خطيرة،لأن تمييز تلك الطبقة عن المجتمع أمر غير محبذ من الناحية الاجتماعية الأمر الذي يؤدي بهم إلى انتشار المخدرات والرذيلة لا سمح الله، كذلك الحال عند التمييز المذهبي والطائفي والديني في الإسكان، وقد أشرنا، سابقا، إلى أن سور مدينة بلفاست بإيرلندا الشمالية الذي وجد بهدف تخفيف حدة التوتر الطائفي بين البروتوستانت والكاثوليك لم يحقق الهدف من إقامته، وتحول إلى أماكن ينتشر فيها السلب والنهب والجرائم بسبب انعدام الرقابة الأمنية وصعوبة الدخول إلى تلك الأحياء خصوصا بعدما تحول السور إلى أكثر من عشرة أسوار خرسانية.

٣- مراعاة حقوق الشارع وحقوق الجوار : تكفلت الشريعة الإسلامية ببيان حقوق الشارع وحقوق الجوار من خلال أحاديث كثيرة تراعي حقوق الجوار واحترامه وإيجاد مبادئ حقوق الشارع ومسؤوليات كل فرد تجاه مجتمعه وجواره.

ب- معايير بيئية :

ويتم ذلك من خلال تطبيق النقاط التالية :

١- إيجاد عمارة صحية بعيدة عن الملوثات والازدحام : تكثر في مدننا أنواع الملوثات التي تسبب أمراض المدن سواء كانت ملوثات بيئية كدخان المصانع والسيارات وطفح مياه المجاري أو ملوثات بصرية وصوتية كالضوضاء وكما هو معروف فالإسلام دين النظافة، لذلك من الضروري الأخذ بالاعتبار تصميم المدن والأحياء بمعايير دولية متمثلة في النقاط التالية :

- مراعاة اتجاه الرياح السائدة لتفادي دخول دخان المصانع إلى الأحياء السكنية.

- إيجاد ضوابط لمنع إلقاء النفايات في مرادم قريبة من المدينة أو في البحر.
- مراعاة تصميم شبكة طرق يتمُّ بها تفادي ازدحام السيارات والتقليل من حدة التلوث العام.
- إيجاد شبكة مجاري عمومية لتفادي طفح المجاري وما تسببه من أمراض.
- تشجير المدينة لتحسين الميزة البصرية للمدينة وامتصاص غاز أول أكسيد الكربون السام.
- تصميم الأحياء السكنية بعيداً عن المطارات وسكك الحديد والطرق السريعة (High Ways) لتفادي الضوضاء ولإعطاء المجاورات السكنية خصوصيتها.
- إحياء الأراضي وتملكها لزيادة مساحة رقعة الأراضي الخضراء والتقليل من التصحر، ومن المعروف أن إحياء الأراضي ليس فقط لتجميل المدينة وخضرتها فقط، بل لتحقيق الأمن الغذائي والإسهام في تحقيق التنمية المستدامة.

٢- استغلال الموارد البيئية المتاحة في تنفيذ المباني وإعادة استخدامها مرة أخرى (Recycling) لتحقيق مبدأ الاستدامة في البناء (Sustainability) ولتقليل الأثر البيئي السلبي.

ج- معايير وظيفية :

ويتمُّ ذلك من خلال تطبيق النقاط التالية :

١- إعطاء طابع الهوية الإسلامية للبناء : لا شك أن لكل بيئة ولكل حضارة مميزاتها وسماتها الخاصة بها التي تعكس هويتها وانتماءها الديني والعقائدي، فالعمارة الإسلامية،كما أسلفنا في الفصل الأول من هذا الكتاب، عمارة روحية وليست شكلية، بمعنى أن الشكل الخارجي للعمارة

الإسلامية لا يعبر بالضرورة عن هوية ذلك البناء، ولكن حسب وجهة نظري فإن الشكل الخارجي للعمارة الإسلامية هو مكمل للداخل، بسبب الحاجة إلى توضيح هوية ذلك البناء وفي نفس الوقت لا يمكن الاكتفاء بالشكل الخارجي للمبنى فقط وتهميش معايير التصميم للعمارة الإسلامية في الداخل حيث يظن البعض أن العمارة الإسلامية هي عمارة قبب وأقواس وزخارف ونقوش، وهذا اعتقاد خا،طئ، وحسب ما ذكرنا سابقا فإن العمارة الإسلامية هي منظومة بيئية متكاملة تتناغم مع المتطلبات البدنية والروحية للساكنين ابتداء من الوحدة السكنية وانتهاء بالمجاورة السكنية للحي.

٢- الاهتمام بالجوهر ثم المظهر : إن العمارة الإسلامية تركز على الوظيفة أكثر منها على الشكل، كما أن هناك مبادئ إسلامية عامة نستطيع أن نقتبس منها مبادئ لحياتنا ومساكننا حيث إن الإسلام دين يؤكد الاهتمام بالجوهر والمكنون الداخلي، لأن المظهر لا يعني شيئاً سوى أنه يجب أن يكون لائقاً لايثير استهزاء الآخرين . وقد نلاحظ اليوم في مختلف مدن العالم أن التصاميم المعمارية أصبحت تهتم بالشكل الخارجي وتهمل وظائف الفراغات الداخلية بمعنى أنه يتمُّ تصميم المباني بشكل يؤثر على وظائف بعض الفراغات الداخلية. علماً بأن التصميم المعماري هو عملية نسبية فعندما تقوم بإصلاح ودراسة فراغات، فمن الطبيعي أن يكون ذلك على حساب فراغات أخرى، ولا يوجد في الكون،حسب وجهة نظري مصمم، بطريقة مثالية.

ولكن يجب أن لا نغفل أن تعاليم الإسلام نهت عن الإسراف والتبذير،وقد يلاحظ البعض أن المباني المرتفعة (High rise buildings) هي مباني تهتم بالمظهر في الأغلب الأعم بسبب أن تكلفتها أضعاف تكلفة نفس المسطح المطلوب من البناء لو كان البناء يأخذ الشكل الأفقي وليس الرأسي، ومن هذا المنطلق أدعو إلى إنجاز دراسة مقارنة بين المباني عالية الارتفاع

والمباني الأفقية من ناحية المسطح والكلفة وما يتبع النظام، مثل إستخدام التكييف بكميات كبيرة في المباني ذات الارتفاع الرأسي على سبيل المثال حتى نستطيع معرفة التكاليف غير المبررة،وبالتالي نكون حققنا أحد أهـداف المدينة الإسلامية الفاضلة. ولدينا مثال هنا حيث يقام حاليا إعداد مخططات مشروع أعلى ناطحة سحاب في العالم في دولة الكويت وهو مشروع «مدينة الحرير» حيث أنها عبارة عن ناطحة سحاب يبلغ ارتفاعها ألف متر ومتر وتتكون من ٢٥٠ طابقا وتتسع لعدد (٧٠٠،٠٠٠) نسمة وتبلغ تكاليفه نحو (٥٠) مليار دينار كويتي (١٨٩ مليار دولار أمريكي تقريباً) كما يهدف هذا المشروع الى جعل مدينة الكويت عالمية ومحط أنظار السياح. وقد شهدت منطقة الخليج العربي أمثلة مشابهة مثل برج خليفة في دبي وبرج الميل في جدة. لذلك وجب الاهتمام بالجوهر ثم بالمظهر أو بالوظيفة أولاً ثم الجمال.

٣-عدم بناء دور المراقص والخمارات : فالإسلام يحرم إقامة دور المراقص والخمارات، لذلك وجب منعها في المدينة الإسلامية الفاضلة، وهذا لا يتنافى مع الحرية الشخصية للسكان لأن ضرر تلك الدور يعمُّ جميع الساكنين بينما يترك الإسلام الحرية الشخصية للفرد في أن يتصرف بشكل فردي دون أن يؤذي الآخرين مع مراعاة حرمة تلك الأمور.

٤- الاستغلال الأمثل للموارد: إن عدم استغلال الموارد والأعيان الموجودة في المدينة وعدم تشغيلها عن طريق إدارة ناجحة هو في الحقيقة نقص، إذ نلاحظ في كثير من المدن نقص الخدمات الاجتماعية بسبب عدم وجود ميزانية أو تحصيل قطعة أرض لإقامة ذلك المشروع ولكن كل هذه العقبات والصعوبات من الممكن أن تختفي إذا طبقنا مبدأ الإدارة الناجحة في الاستغلال الأمثل للموارد.

فعلى سبيل المثال عندما تواجه المدينة أزمة في نقص عدد المدارس تجد

الإدارة المعنية بشؤون التعليم تتخذ إجراء آخر كأن تقوم باستئجار مباني سكنية لجعلها مدارس مؤقتة أو تقوم بإرسال الطلبة إلى أقرب منطقة أخرى، ولكي نحل هذه المشكلة نستخدم استراتيجية الاستغلال الأمثل للموارد، كأن يستخدم المبنى المدرسي على فترتين ليستوعب مدرستين في آن واحد، بمعنى أن يقسم اليوم الدراسي إلى قسمين فترة صباحية وفترة مسائية وبذلك نكون قد استخدمنا ذلك المبنى كمدرستين في آن واحد. إضافة إلى ذلك من الممكن أن يتم استخدام الصالات الرياضية والمكتبة وصالة الانترنت في المدارس بعد نهاية الدوام لأنشطة أهل المدينة وبالتالي نكون استغللنا المبنى المدرسي استغلالاً كاملاً.

ولنا في التاريخ عبرة حيث أتذكر إبان حرب الخليج الثانية عندما قامت القوات العراقية بإحتلال دولة الكويت قامت حكومة المملكة العربية السعودية في لفتة أخوية ومساندة للأشقاء في دولة الكويت بإسكان المواطنين الكويتيين في المباني المدرسية. وهكذا يجب أن نفكر في كل الموارد المتاحة لنا كيف نستغلها بأنسب الطرق.

خاتمة: آفاق وخطوات

نحو إصلاح المناهج والمدارس المعمارية :

يذهب البعض إلى أن المعماريين أنفسهم هم الذين أساؤوا إلى البيئة المعمارية التقليدية من خلال تجاهلهم للمعطيات الثقافية والاجتماعية والدينية في تصاميمهم المعمارية الحديثة حيث رفعت شعارات تطالب بأن يعدَّ التصميم من غير المعماريين فرفع شعار العمارة من غير المعماريين (Architecture without Architects). كما يجب أن لا ننسى أن التقنية الحديثة تمَّ توظيفها بطريقة سلبية في العمارة المعاصرة، فعندما تواجه المعماريين مشكلة ما كانوا يحلونها من خلال التقنية الحديثة دون التخلي عن أصل المشكلة أولاً، الأمر الذي جعل الكثيرين يتذمرون من أداء المعماريين. ولا يمكننا أن نبريء المعماريين من تلك التهم، فالممارسات الخاطئة التي كان ينتجها البعض لم تكن إلا بسبب سوء النظام التعليمي في بعض كليات العمارة ومدارسها، فالمناهج المعمارية التي تدرس باتت مناهج قديمة جداً عفا عليها الزمن، وقد نحتاج إلى تنويع المناهج المعمارية من كلية إلى أخرى لنوفر بذلك تعددية و مدارس فكرية متنوعة كما حصل في قسم العمارة الإسلامية في جامعة الملك عبد العزيز حيث تمَّ تبني فكر العمارة الإسلامية كمنهج يدرس. وأضيف هنا بعض النقاط التي ربما تساهم في رفع كفاءة المستوى التعليمي وإصلاح المناهج التعليمية :

١- ربط العمارة بالدراسات الاجتماعية :

لعل من أبرز أسباب سوء فهم المعماري لمتطلبات المستخدم هو جهله بالجوانب الإنسانية والاجتماعية في العمارة وعدم اطلاعه على دراسات الظواهر الاجتماعية والسلوك البشري والتنبؤ والتغير الديموغرافي، الأمر الذي دفع ببعض علماء الاجتماع والسلوك أمثال «كريستوفر أليكساندر» و«آموس رابور» إلى التصدي لتلك الدراسات لإعادة بناء البيئة المبنية بعيداً

عن دور المعماري. فهم بذلك أصبحوا على طرفي نقيض حيث يتمُّ إلغاء دور المعماري بالكامل ويعاد التصميم من خلال الدراسات الاجتماعية والسلوك، ولكن ذلك لايخدم دور المعماري بالشكل الصحيح حيث أن المعماري مؤهل من خلال دراساته التخصصية، وبالتالي فإن أفضل أسلوب هو دمج المناهج المعمارية بتلك الدراسات الاجتماعية كالدراسات السلوكية وعلم الاجتماع والعادات والتقاليد ودراسات علم النفس والظواهر ووضعها ضمن منهج محدد باسم دراسات اجتماعية في العمارة.

٢- تعميق معنى العمارة الإسلامية :

لايزال الكثير من المعماريين يجهلون المعنى الحقيقي للعمارة الإسلامية فيعتقدون بأن العمارة الإسلامية هي قبب وأقواس وزخارف، أو أن المقصود بالعمارة الإسلامية هي عمارة المساجد. وذلك بسبب عدم وضع تعريف واضح لمفهوم العمارة الإسلامية فتجد أن البعض يعرفها تعريفات متفاوتة ومختلفة، وتجد البعض يرى بأن العمارة الإسلامية ماهو إلا اصطلاح من اصطلاحات الصيغ الثقافية أكثر من كونها دينية كما كان يقول المعماري رفعت الجادرجي. في حين أن الثقافة ماهي إلا انعكاس للتأثير الديني في ثقافة المجتمعات الإسلامية، وقد اقتبست العمارة الإسلامية مبادئها من قيم الإسلام وتشريعاته. لذلك فإن كثرة التخبطات في تعريف العمارة الإسلامية ومبادئها والضبابية والغموض أحياناً في إدراك مضامينها أدى بالبعض إلى سوء فهمها وتوظيفها توظيفاً سطحياً يقتصر على الأشكال والزخرفة بعيدا عن مضمونها الرائع الذي يعكس هوية المجتمعات الإسلامية، الأمر الذي يستدعي تضافر الجهود لتبني مفهوم العمارة الإسلامية وإدراجها ضمن مناهج كليات العمارة في المجتمعات الإسلامية ومدارسها، فهي عمارة تتمثل القيم الإنسانية التي أخذ الغرب يدرسها، في حين يبتعد المسلمون عنها بسبب سوء فهمها وربما لأنها عمارة تقتصر على المجتمعات الإسلامية فهي بالتالي غير عالمية !!

٣- توظيف التكنولوجيا لدعم المناهج المعمارية:

لقد أصبحت التكنولوجيا والبرمجيات أحد أهم روافد العملية التعليمية ومكملة لها، فهي تحسن من جودة التعليم وترفع من إنتاجيته، ومن المتوقع أن التكنولوجيا الحديثة ستغير من مستوى التعليم الجامعي وترفع من كفاءته. وفي مجال العمارة تمَّ توفير معامل التصميم الافتراضي (Virtual design studio) في كثير من كليات العمارة في الدول الغربية، حيث أن ذلك يسهل من فهم وإدراك الطلبة للتصاميم التي يقومون بإعدادها وبالتالي فإن هذه العملية تقلل من الجهد والوقت والتكلفة، فمالم يستطع الأولون إدراكه كالبعد الثلاثي، أصبح الآن واقعاً،ليس ذلك فحسب، وإنما بإمكانك أن تتجول داخل التصميم وتختار التشطيبات والألوان وإعادة تصميم الفراغات بكل سهولة ويسر. وينبغي لنا أن نشيد هنا بدور جامعة الملك فهد للبترول والمعادن حيث أضافت معامل للتصميم الافتراضي تكاد تكون الوحيدة في المنطقة ضمن مناهج كلية العمارة (كلية تصاميم البيئة) ونأمل في القريب العاجل أن تعمم التجربة على بقية الكليات.

٤- التنوع والتقيد بين المنهج والمقرر:

ينبغي الإشارة إلى ضرورة الفصل بين المنهج والمقرر وعدم التقيد بمقررات معينة تعكس اسم وعنوان المنهج بعيداً عن التنوع في آفاق ذلك المنهج وما يصبو إليه، حيث أن الإبداع في التعليم المعماري لايؤكد على المنهج التراكمي التقليدي فقط، وإنما يطور من تلك التراكمية التعليمية بعيداً عن النسخ والتقليد. إن تنوع المصادر التعليمية والمراجع من أهم الروافد التعليمية التي تساند عملية التصميم المعماري وتضبطها ضمن منهجية واضحة. لذلك ينبغي إعادة مراجعة المناهج المعمارية ووضع الخطوط الأساسية لها وعدم تقييدها ضمن مقررات محددة في سبيل توفير الإبداع والانطلاق في آفاق أرحب وأوسع.

٥- تعديل سياسة القبول وربطها بسوق العمل :

لقد اقتصر قبول الطلبة لكليات العمارة على معدل درجات الثانوية العامة وفي بعض الأحيان يتمُّ إجراء اختبار روتيني للرسم يحدد مستوى الطالب وقدرته على الرسم، وهو إجراء روتيني، بينما الأهم هو الحصول على الحد الأدنى للدرجات في شهادة الثانوية العامة. وهذا المعيار في القبول لا يحدد كفاءة المتقدم لكليات العمارة، فالعمارة هي منهج إبداعي يتطلب الحصول على عدة مواهب لكي يكون الطالب مؤهلاً لإكمال مشواره التعليمي. ولقد اقتصرت كليات العمارة في عصر النهضة في أوروبا وفي أوقات متأخرة أيضاً على سياسة قبول الطلبة من خلال توفر معايير معينة فيهم مثل الرسم والشعر ومواهب أخرى، فالعمارة هي أم الفنون.

إن من أهم مشاكل تشبع سوق العمل بالمعماريين هو عدم وضع ضوابط لسياسة القبول يتمُّ من خلالها اختيار الأكفأ والأفضل، وحتى لا يكون المعماريون بعيدين عن الممارسة العملية للمهنة كما هو الحال في كثير من الدول العربية.

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين...

مصادر الكتاب

- مصادر الفصل الأول:

١- العمارة البيئية، د/ محيي الدين سلقيني، دار قابس للنشر والطباعة والتوزيع، الطبعة الأولى .

2- Green Architecture , James Wines , 2000 , GMBH , www. taschen.com.

٣- السواط، علي محمد، الإستدامة كمدخل لتعزيز دور المهندسين السعوديين في بناء الاقتصاد الوطني، ندوة المهندس ودوره في بناء الاقتصاد الوطني، مركز الملك فهد الثقافي، الرياض، ١٤٢٦هـ .

٤- السلطاني، خالد، دكتور، عمارة زهاء حديد : واقعية الفضاء الافتراضي، مجلة الحوار المتمدن، العدد ١٣٢٤، ٢٠٠٥ م .

٥- ضاهر، مسعود، مدخل منهجي : الذات والآخر في مرآة عصر العولمة، مجلة التسامح الألكترونية، www.altasamoh.net

٦ - النعيم، مشاري (دكتور)، المحلية مقابل الكونية : هوية العمارة والمدينة السعودية في عصر العولمة – جامعة الملك فيصل الدمام .

٧- الحلواني، محمد، أزمة العمارة في العالم العربي غياب البعد الإجتماعي والثقافي والإقتصادي، ملتقى المهندسين العرب الألكتروني www.arab-eng.org

٨- أكبر، جميل عبدالقادر، عمارة الأرض في الإسلام، مؤسسة الرسالة للطباعة والنشر والتوزيع، الطبعة الثالثة ١٩٩٨ م .

٩- هالبيرن، كاترين، ترجمة إلياس بلكا، مجلة علوم إنسانية الفرنسية، عدد رقم ١٥١، يوليو ٢٠٠٤ م .

١٠- النعيم، مشاري بن عبدالله، النقد والمنهج .. رؤية معمارية، جريدة الرياض السعودية، العدد ١٤٥٠٩، ١٥ مارس ٢٠٠٨ م .

١١- النعيم، مشاري (دكتور)، المحلية مقابل الكونية : هوية العمارة والمدينة السعودية في عصر العولمة – جامعة الملك فيصل - الدمام .

١٢- حداد، إيلي، الحداثة ومسألة الهوية في العمارة، جريدة النهار اللبنانية .

١٣- ثويني، علي (دكتور)، العمارة الشعبية ومفهوم العمارة دون معماريين، جريدة الصباح الألكترونية .

١٤- النعيم، مشاري بن عبدالله، النقد التخطيطي، جريدة الرياض السعودية، العدد ١٣٩٦٣، ١٦-٩-٢٠٠٦ م .

١٥- داوري، رضا، إشكالية العلاقة بين الدين والحداثة، مدونة العلوم الإنسانية الألكترونية http://science-islam.net

١٦- ضاهر، مسعود، مدخل منهجي : الذات والآخر في مرآة عصر العولمة، مجلة التسامح الألكترونية، www.altasamoh.net

١٧- خلوصي، ناطق، البنيوية وإنتاج المعنى، مجلة أرنتروبوس الالكترونية، www.aranthropos.com .

١٨- السواط، علي محمد، الإستدامة كمدخل لتعزيز دور المهندسين السعوديين في بناء الاقتصاد الوطني، ندوة المهندس ودوره في بناء الاقتصاد الوطني، مركز الملك فهد الثقافي، الرياض، ١٤٢٦هـ .

19- Green Architecture , James Wines , 2000 , GMBH ,

٢٠- الراشد، طارق، مجلة البيئة والتنمية، العدد ١٣، إبريل – يونيو ٢٠٠٧ م .

- مصادر الفصل الثاني :

١- ضاهر، مسعود، عمارة ابن خلدون والعمارة المعاصرة، موقع البيت العراقي الالكتروني، www.iraqihome.com

٢- بهيل، جاسم خزعل، المنتج الصناعي وجدلية العلاقة بين هيئته ووظيفته، صحيفة إتجاهات، العدد الأول، ٢٠٠٩ م .

٣- السلفي، جميل، بمشاركة البس، عبدالحميد، التجربة السعودية في تأصيل التراث العمراني والمحافظة عليه بمكة المكرمة، ندوة التراث العمراني الوطني وسبل المحافظة عليه وتنميته واستثماره سياحيا – الهيئة العليا للسياحة – الرياض – ٤-١٤٢٤/٨/٧هـ .

٤- العيوي، عبدالرهم محمد، إسهامات علم النفس البيئي في حل مشاكل البيئة والنهوض بها، مجلة المنهل، العدد ٥٨٣، أغسطس ٢٠٠٥ م .

٥- سالم، سيدي أحمد، جدران أخرى غير الجدار الإسرائيلي، موقع الجزيرة نت الإخباري www.aljazeera.net

٦- كريم، إبراهيم (دكتور)، موقع هندسة التشكيل الحيوي نقلاً عن القناة الاخبارية السويسرية، بتاريخ ٢٢ أكتوبر ٢٠٠٣ م، www.biogeometry.com .

٧- حسن، نوبي محمد (دكتور)، مقرر تاريخ العمارة – العمارة المصرية القديمة، قسم العمارة وعلوم البناء، كلية العمارة والتخطيط، جامعة الملك سعود .

٨- حسن، نوبي محمد (دكتور)، مقرر تاريخ العمارة – العمارة البيزنطية، قسم العمارة وعلوم البناء، كلية العمارة والتخطيط، جامعة الملك سعود .

٩- جرادات، مصطفى، العمارة الإسلامية : الاحتياجات الوظيفية والأبعاد الروحانية، ملتقى المهندسين العرب الألكتروني www.arab-eng.org

١٠- إبراهيم، عبدالباقي (دكتور)، التوجه الإسلامي للعمران، موسوعة الإعجاز العلمي في القرآن والسنة (موقع أليكتروني) http://quran-m.com

١١- الجوهري، عمرو فاروق (دكتور)، والمدني، إبراهيم السيد، جدلية العلاقة بين إحياء العمارة التقليدية وظرف ما بعد الحداثة . ندوة التنمية العمرانية في المناطق الصحراوية ومشكلات البناء فيها، والتي نظمتها وزارة الاشغال العامة والاسكان بتاريخ (٢-٤) نوفمبر ٢٠٠٢ المملكة العربية السعودية - الرياض.

١٢- شحاته، حسين (دكتور)، الفروق الأساسية بين النظام الإقتصادي الإسلامي والنظم الاقتصادية الوضعية، جامعة الأزهر، www.darelmashora.com .

١٣- وزيري، يحيي (دكتور)، العمارة الإسلامية والبيئة، سلسلة عالم المعرفة- المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب بالكويت- ٢٠٠٤م .

١٤- شيا، لي، تشينغداو مدينة البحر وذكريات الإحتلال، موقع الصين اليوم الالكتروني www.chinatoday.com .

١٥- القديمي، إبراهيم، الحي النمساوي بسراييفو – الوجه الآخر للإستعمار، موقع قناة الجزيرة الإخبارية الالكتروني بتاريخ ٢٠٠٨/١٠/١٨ م، www. aljazeera.net

١٦- عبدالغفار، أحمد، الهندسة المعمارية للمستعمرة البريطانية في ماليزيا ١٨٠٠- ١٩٣٠ م .

١٧- حداد، إيلي، الحداثة ومسألة الهوية في العمارة، جريدة النهار اللبنانية .

18- Ayal Weizam., (2003)- A civilian occupation : The Politics of Israeli Architecture., Verso, New York

١٩- قطب، جمال، كنوزنا المثيرة بصمات شرقية على جبين الغرب، مجلة الحرس الوطني، مايو ١٩٨٦ م، ص ١٣٢-١٣٥ .

٢٠- الصاوي، أحمد، التحيزات الإستشراقية ضد العمارة الإسلامية، المؤتمر الثاني للتحيز بعنوان حوار الحضارات والمسارات المتنوعة للمعرفة، القاهره، ٢٠٠٧ م .

٢١- الصاوي، أحمد، التحيزات الإستشراقية ضد العمارة الإسلامية، المؤتمر الثاني للتحيز بعنوان حوار الحضارات والمسارات المتنوعة للمعرفة، القاهره، ٢٠٠٧ م .

٢٢- ثويني، علي (دكتور)، العمارة الإسلامية جدل الإختلاف والإتفاق على المفاهيم، صحيفة الزمان، العدد ١٥٥٩-١٥٩٧، بتاريخ ٢٠٠٨/٨/٣١ م .

٢٣- باهمام، علي بن سالم، توظيف التصميم العمراني للحد من الجريمة في المناطق السكنية، مجلة جامعة أم القرى للعلوم والطب والهندسة . المجلد ١٢ العدد ٢، ١٤٢١هـ .

٢٤- النعيم، مشاري بن عبدالله، النقد التخطيطي، جريدة الرياض السعودية، العدد ١٣٩٦٣، ١٦-٩-٢٠٠٦ م .

٢٥- الناجم، علي بن عثمان، و الشريف، فيصل بن محمد، إنهيار عمارة القرن الجديد المحلية، الموقع الألكتروني faculty.ksu.edu.sa

٢٦- موس، و مايكل، في ورقتهما البحثية مواجهة تحديات العولمة، ورقة مقدمة لندوة العولمة وإدارة الاقتصاديات الوطنية . صندوق النقد الدولي، أبو ظبي، الإمارات العربية المتحدة، ٢٠٠٠ م .

٢٧- آل سعود، نوف بنت محمد، العولمة والعمارة : رؤية مستقبلية للعمارة العربية، الموقع الألكتروني لشبكة البناء www.ebnee.com .

٢٨- ضاهر، مسعود، مدخل منهجي : الذات والآخر في مرآة عصر العولمة، مجلة التسامح الألكترونية، www.altasamoh.net .

٢٩- النعيم، مشاري بن عبدالله (دكتور)، و السواط، علي بن محمد، ممارسة مهنة العمارة في عصر العولمة : دراسة لإمكانية إندماج المكاتب المعمارية في المملكة، المؤتمر الهندسي السعودي السادس، جامعة الملك فهد للبترول والمعادن، شوال ١٤٢٣هـ

٣٠- الرحموني، سعيده (دكتورة)، الشباب وحوار الثقافات والأديان، مؤتمر قضايا الشباب في العالم الإسلامي : رهانات الحاضر وتحديات المستقبل، تونس، ٢٦ نوفمبر ٢٠٠٨ م .

- مصادر الفصل الثالث:

١- السلمي، عبدالرحيم (دكتور)، مشروع التجديد الثقافي لماذا، موقع الدرر السنية الألكتروني www.dorar.net

٢- المهندس، أحمد عبدالقادر (دكتور)، تدمير البيئة والإنسان، جريدة الرياض، العدد ١٤٤٥٩ .

٣- الحارثي، نوره، رؤية حول الفكر العمراني الإسلامي، مجلة ديوان العرب الألكترونية بتاريخ ١٧ مارس ٢٠٠٨ م .

٤- أكبر، جميل عبدالقادر، عمارة الأرض في الإسلام، مؤسسة الرسالة للطباعة والنشر والتوزيع، الطبعة الثالثة ١٩٩٨ م .

٥- ثويني، علي (دكتور)، الزهد والإسراف في البنيان، مجلة ينابيع، العدد (١٨)، جمادى الأولى – جمادى الثانية ١٤٢٨ هـ .

٦- رويترز، السجون الفرنسية تسجل أعلى معدلات الإنتحار في أوروبا، جريدة الاتحاد الاماراتية، الأحد ٣٠ صفر ١٤٣١ هـ .

٧- اليوسفي، باسل و غولي، علي، جدوى إقتصادية وبيئية من إستغلال الطاقة المتجددة في المنطقة العربية، جريدة الحياة بتاريخ ٥ مارس ٢٠٠٧ م .

٨- السيوي، صالح عبد العزيز، نحو تنمية عمرانية مستدامة بإستخدام مواد البناء الطبيعية والطاقات النظيفة، مؤتمر إقامة البحث العلمي والتطور التكنولوجي في الوطن العربي، دمشق ٢٠٠٦ م .

٩- الحريقي، فهد بن نويصر (دكتور)، إحياء دور المسجد في تشكيل النسيج العمراني وتأكيد هوية المدينة الإسلامية المعاصرة، كلية العمارة والتخطيط، جامعة الملك فيصل بالدمام .

١٠- عثمان، محمد عبدالستار، نظرية الوظيفة بالعمارة الدينية المملوكية الباقية بمدينة القاهرة، دار الوفاء، الإسكندرية، ٢٠٠٠ م .

١١- حسن، نوبي محمد (دكتور)، قيم الوقف والنظرية المعمارية : صيانة معاصرة، مجلة أوقاف، الأمانة العامة للأوقاف، الكويت، العدد (٨)، مايو ٢٠٠٥ م .

١٢- السامرائي، مجيد، ذوات الأرواح في الفن الإسلامي : رموز ودلالات صوفية في جمالية التكرار، موقع ألف باء الألكتروني www.alefyaa.com

١٣- وزيري، يحيي حسن (دكتور)، عناية الفقه والقضاء الإسلامي بأحكام العمران والبنيان، مجلة الوعي الإسلامي، العدد (٤٥٩)، وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية، الكويت .

١٤- الهذلول، صالح (دكتور)، التحكم في إستعمالات الأراضي في المدينة العربية الإسلامية، سجل أبحاث ندوة الإسكان في المدينة الإسلامية، جده، ١٩٨٤ م .

١٥- وزيري، يحيي حسن (دكتور)، عناية الفقه والقضاء الإسلامي بأحكام العمران والبنيان، مجلة الوعي الإسلامي، العدد (٤٥٩)، وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية، الكويت .

١٦- بوجمعه، خلف الله (دكتور)، المدينة الإسلامية بين الوحدة والتنوع، مجمع عمران نت الألكتروني www.omrannet.com

١٧- بهنسي، عفيف (دكتور)، فنون العمارة الاسلامية وخصائصها في مناهج التدريس، منشورات المنظمة الاسلامية للتربية والعلوم والثقافة – إيسيسكو، ٢٠٠٣ م .

١- الشهود الحضاري للأمة الوسط في عصر العولمة.

د. عبد العزيز برغوث.

٢- عينان مطفأتان وقلب بصير(رواية).

د. عبد الله الطنطاوي.

٣- دور السياق في الترجيح بين الأقاويل التفسيرية.

د. محمد إقبال عروي.

٤- إشكالية المنهج في استثمار السنة النبوية.

د. الطيب برغوث.

٥- ظلال وارفة (مجموعة قصصية).

د. سعاد الناصر(أم سلمى).

٦- قراءات معرفية في الفكر الأصولي.

د. مصطفى قطب سانو.

٧- من قضايا الإسلام والإعلام بالغرب.

د. عبد الكريم بوفرة.

٨- الخط العربي وحدود المصطلح الفني.

د. إدهام محمد حنش.

٩- الاختيار الفقهي وإشكالية تجديد الفقه الإسلامي.

د. محمود النجيري.

١٠- ملامح تطبيقية في منهج الإسلام الحضاري.

د. محمد كمال حسن.

١١- العمران والبنيان في منظور الإسلام.

د. يحيى وزيري.

١٢- تأمل واعتبار: قراءة في حكايات أندلسية.

د. عبد الرحمن الحجي.

١٣- ومنها تتفجر الأنهار(ديوان شعر).

الشاعرة أمينة المريني.

١٤- الطريق... من هنا.

الشيخ محمد الغزالي

١٥- خطاب الحداثة: قراءة نقدية.

د. حميد سمير

١٦- العودة إلى الصفصاف (مجموعة قصصية لليافعين).

فريد محمد معوض

١٧- ارتسامات في بناء الذات.

د. محمد بن إبراهيم الحمد

١٨- هو وهي: قصة الرجل والمرأة في القرآن الكريم.

د. عودة خليل أبو عودة

١٩- التصرفات المالية للمرأة في الفقه الإسلامي.

ـــــــــــــــــــ د. ثرية أقصري

٢٠- إشكالية تأصيل الرؤية الإسلامة في النقد والإبداع.

ـــــــــــــــــــ د. عمر أحمد بو قرورة

٢١- ملامح الرؤية الوسطية في المنهج الفقهي.

ـــــــــــــــــــ د. أبو أمامة نوار بن الشلي

٢٢- أضواء على الرواية الإسلامية المعاصرة.

ـــــــــــــــــــ د. حلمي محمد القاعود

٢٣- جسور التواصل الحضاري بين العالم الإسلامي واليابان.

ـــــــــــــــــــ أ.د سمير عبد الحميد نوح

٢٤- الكليات الأساسية للشريعة الإسلامية.

ـــــــــــــــــــ د. أحمد الريسوني

٢٥- المرتكزات البيانية في فهم النصوص الشرعية.

ـــــــــــــــــــ د. نجم الدين قادر كريم الزنكي

٢٦- معالم منهجية في تأصيل مفهوم الأدب الإسلامي.

ـــــــــــــــــــ د. حسن الأمراني

ـــــــــــــــــــ د. محمد إقبال عروي

٢٧- إمام الحكمة (رواية).

ـــــــــــــــــــ الروائي/ عبد الباقي يوسف

٢٨- بناء اقتصاديات الأسرة على قيم الاقتصاد الإسلامي.

أ.د. عبد الحميد محمود البعلي

٢٩- إنما أنت... بلسم (ديوان شعر).

الشاعر محمود مفلح

٣٠- نظرية العقد في الشريعة الإسلامية.

د. محمد الحبيب التجكاني

٣١- محمد ﷺ ملهم الشعراء

أ. طلال العامر

٣٢- نحو تربية مالية أسرية راشدة.

د. أشرف محمد دوابه

٣٣- جماليات تصوير الحركة في القرآن الكريم.

د. حكمت صالح

٣٤- الفكر المقاصدي وتطبيقاته في السياسة الشرعية.

د. عبد الرحمن العضراوي

٣٥- السنابل... (ديوان شعر).

أ. محيي الدين عطية

٣٦- نظرات في أصول الفقه.

د. أحمد محمد كنعان

٣٧- القراءات المفسرة ودورها في توجيه معاني الآيات القرآنية.

______________________ د. عبد الهادي دحاني

٣٨- شعر أبي طالب في نصرة النبي ﷺ.

______________________ د. محمد عبد الحميد سالم

٣٩- أثر اللغة في الاستنباطات الشرعية.

______________________ د. حمدي بخيت عمران

٤٠- رؤية نقدية في أزمة الأموال غير الحقيقية.

______________________ أ.د. موسى العرباني

______________________ د.ناصر يوسف

٤١- مرافىء اليقين (ديوان شعر).

______________________ الشاعر يس الفيل

٤٢- مسائل في علوم القرآن.

______________________ د. عبد الغفور مصطفى جعفر

٤٣- التأصيل الشرعي للتعامل مع غير المسلمين.

______________________ د. مصطفى بن حمزة

٤٤- في مدارج الحكة (ديوان شعر).

______________________ الشاعر وحيد الدهشان

٤٥- أحاديث فضائل سور القرآن: دراسة نقدية حديثية.

د. فاطمة خديد ________________________

٤٦- في ميــزان الإسـلام.

د. عبد الحليم عويس ________________________

٤٧- النظر المصلحي عند الأصوليين.

د. مصطفى قرطاح ________________________

٤٨- دراسات في الأدب الإسلامي.

د. جابر قميحة ________________________

٤٩- القيمُ الروحيّة في الإسلام.

د. محمّد حلمي عبد الوهّاب ________________________

٥٠- تـلاميـذ النبــوة (ديوان شعر).

الشاعر عبد الرحمن العشماوي ________________________

٥١- أسماء السور ودورها في صناعة النهضة الجامعة.

د. فـؤاد البنـا ________________________

٥٢- الأسرة بين العدل والفضل إشارات وإثارات.

د. فريد شكري ________________________

٥٣- هي القدس... (ديوان شعر).

الشاعرة: نبيلة الخطيب ________________________

٥٤- مسار العمارة وآفاق التجديد.

م. فالح بن حسن المطيري ________________________

نهـر متعـدد.. متجـدد

هـذا الكتـاب

إن التعاطي مع فكر الآخر هو بمثابة استشراف لمستقبل العمارة ومعرفة فيم يفكر فيه هذا الآخر حتى نضع لنا خطًا فاصلاً ومنهجاً واضحاً بين إشباع رغبات الإنسان الإيوائية وبين بعض الأفكار والاتجاهات التي لا تلبي الحاجات الإنسانية...

لذلك وجب علينا، نحن المعماريين، أن ندلي بدلونا ونوضح موقفنا من تلك الاتجاهات بعيداً عن التحيز، وإنما بنظرة فاحصة لواقع العمارة المعاصرة، وسبر أغوار آفاق التجديد فيها.

إن هذا المؤلَف هو محاولة لإلقاء الضوء على المؤثرات الفعلية على العمارة المعاصرة سواء كان ذلك من خلال المدارس المعمارية أو التيارات الفكرية أو النظريات المعمارية أو تأثير المجتمع أو الدين أو السياسة أو الاقتصاد... لنظل بعد ذلك أصحاب فكر ومنهج يحتل موقعاً متميزاً بين مدارس العمارة المعاصرة.



وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية
قطاع الشؤون الثقافية
إدارة الثقافة الإسلامية
www.islam.gov.kw/thaqafa